صور من حياة الرسول

(١)

أمين دويدار

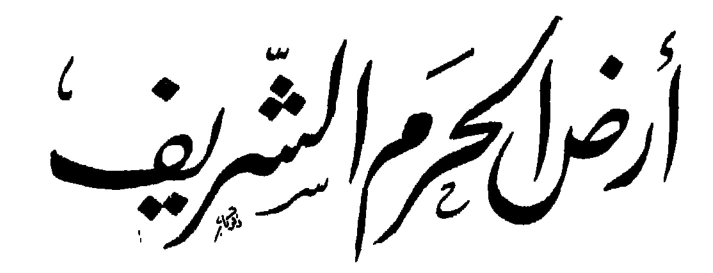
أرض الحرم الشريف

دار المعارف



صور من حياة الرسول

(١)



أرض الحرم الشريف



أمين دويدار



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وإن من خير الكتب وأجلها قدرًا هذا الكتاب الذى تهديه «دار المعارف» إلى شباب الجيل المسلم الذين تتعطش نفوسهم الحائرة إلى معرفة المثل العليا، التى تتطلع إليها أرواحهم، لتكون نبراسًا ينير لهم طريق الخير.

ولن تجد أصدق من هذه المثل التى تقرؤها فى سيرة سيد المرسلين الذى عاش حياته يعلم الناس، ويرشدهم إلى طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة.

فما أطيب الحديث عنك يا سيدى يا رسول الله، وما أجمل التأمل فى سيرتك العطرة، وما أحوج الشباب والشيوخ إلى نور

هديك الوضاء، وإلى روحك الطاهرة التى نستمد منها السداد والقوة، لتفتح أمامنا أبواب الأمل والرجاء.

وبعد :

فهذه صورة صادقة. بين يديك أيها القارئ العزيز لسيد البشرية، وإمام المجاهدين، الذى لم يثنه عن دعوته العظيمة ما لقى من الأذى والضر، فى سبيل نشر دعوة الحق والخير والسلام، حتى أتم الله نعمته على البشرية.

عزيزى القارئ : سنوالى اللقاء بك فى الحديث عن هذه السيرة العطرة حتى الجزء الرابع من هذه السلسلة.

[دار المعارف]

إهـــداء

ولدى العزيز سامى

تعهدتك بالقصة فى بكور طفولتك، كما تعهدت أختك من قبل، وتدرّجتُ بك فيها كلما تدرجتَ فى الإدراك والفهم، وكنت أبغى بذلك أن أعلمك - عن طريق القصة - كل ما أريد لك؛ وما كنت أريد إلا أن تكون إنسانًا كاملا، يدرك أن له فى الحياة رسالة أسمَى من الطعام والشراب، و من اللهو والمتاع؛ فما الطعام والشراب واللذائذ والشهوات إلا مُتعة الحيوان. أما الإنسان الذى كرمه الله ووضع فيه أسراره، فإن رسالته أن يَعْمُرَ الأرض بالحب والخير، والعدل والصلاح، وأن يكون المثل الأعلى دائماً هو الهدفَ الذى يرمى إليه فى كل شىء.

لذلك حاولت أن أرسم لك هذا المثل عن طريق القصة، لأنها أحب الطرق إلى نفسك وأقربها إلى طبيعتك، وبذلت جهدى أن أصوره لك فى الصورة التى تعشقها وتصبو إليها. وكانت غايتى التى أرمى إليها أن تكون ولدًا صالحاً، وأن يكون

المثل الأعلى هدفَك الذى تعمل له وتسعى إليه فى حياتك.

وكنت قد ادخرت لك سيرة الرسول الكريم، محمد بن عبدالله -صلى الله عليه وسلم- أزوّدك بمعانيها العالية، حين يَشِبُّ شبابُك ويستوى عودك. ولكن الله -تعالت حكمتُه- أراد أن يختارك إلى جواره، وأن ينقلك من دار الفناء إلى دار البقاء، وأنت صحيفة بيضاء لم تلوَّث بإثم، فوقفت حيران لا أدرى: هل انتهت مُهِمَّتى عند هذا الحد، أو لا يزال من واجبى أن أتعهد أترابك من الفتيان والفتيات، بما كنت أريد أن أتعهدك به؟

يُخيَّل إلىّ -يا بُنَىّ- أن مهمتى لاتزال قائمة؛ فما كنت أبغى من تهذيبك بالمُثُل الصالحة، إلا أن تكون مثلا صالحا بين أترابك، يَرَوْن فيك النَّموذج الحى للفتى الصالح، الذى يسمو بهمته على الشهوات الباطلة، والأعراض الزائلة، ويدرك أن هذه الحياةَ مزرعةٌ لما بعدها؛ فلا يُطغيه المال مهما كثر، ولا يستعبده الجمال مهما فَتَن، ولا يخدعه المنصب مهما علا، ولا يُلهيه متاع الدنيا عن نعيم الآخرة، ولا يَشغَله الشيطان عن مراقبة الله، الذى يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصدور.

فهأنذا - إذن - أستأنف السير من جديد، محاولا أن أسير مع أترابك على النهج الذى كنت أسير عليه معك؛ وهذه سيرة

الرسول الكريم أقدمها لهم، فى الأسلوب الذى تعودت أن أبسِّط لك به كل شيء.. وقد جعلت جهدى فى تبسيط هـذه السيرة الفاضلة، هدية منى إلى روحك الطاهرة.

فاسأل الله يابنى - وأنـت فى منـازل الـرضوان منـــه - أن يوفقنى إلى إتمامها على النحو الذى يرضاه لـرسوله، وأن يتقبلهـا منى عملا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتجاوز بها عـن سيئاتى، ويجعلها رُجحانًا فى ميزان حسناتى!!

المطرية

٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٢ هـ
١٠ من مايو سنة ١٩٥٣ م

والدك

أمين دويدار



تمهيد

هذه صفحات من سيرة الرسو ل الكريم، محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - أردت أن أتحدث فيها إلى الشباب من أبنائنا، ونحن فى مُستَهَلّ نهضة جديدة، لعلى أستطيع أن أساهم بها فى تقويمهم وحسن توجيههم، وفى بنائهم على أساس من الأخلاق والمُثُل الفاضلة، التى وضعها الإسلام لأبنائه، ورسمها الرسول نماذج حية للناس فى أقواله وأفعاله.

وقد حرصت جهدى على أن تكون هذه الصفحات صورًا صادقة من حياة الرسول الكريم، تملأ النفس بما فيها من صدق ووضوح، وتملأ القلب بما فيها من قوة وحياة؛ وأن أسوق الحقائق التاريخية فى أسلوب قصصى سهل، يلائم مستوى الشباب ويستهوى قلوبهم، ويقف بهم على مواقف العظمة الحقة فى حياته، صلى الله عليه وسلم، لتكون لهم قدوةً يقتدون بها فى حياتهم، فيَشِبُّون رجالا صالحين، تسعد الحياة بهم ويسعدون بها، كما سعِدت بمن كان قبلهم من أبناء المسلمين الأولين.

إن فى الشباب ميلا غريزيًا إلى القصة، يدفعه إلى التهام كل ما يقدم إليه عن طريقها. وقد رأيت الذين لايعلمون يستغلون فى الشباب هذا الميل، فيقدمون له مايشاءون من لهو الحديث عن طريق القصة، فى ألوان جاذبة وصور خادعة. وقد أسرفوا فى ذلك أيّما إسراف، واستغلوا ميول الشباب أسوأ استغلال، فدسوا له فى هذه الألوان ماشاءوا وشاءت لهم أغراضهم من سموم، حتى استطاعوا أن يَحُلّوا فى الشباب عناصر القوة، وأن يصرفوه عن الجد إلى اللهو، وعن القراءة النافعة المغذية، إلى القراءة الهشّة العابرة، لمجرّد التسلية وشغل الفراغ؛ واندفع الشباب وراءهم فى غير وعى، غير مدرك ما هنالك من خطر عليه وعلى مستقبله. وللشباب فى ذلك عذره، فإن تجار اللهو قد حرصوا على أن يقدموه إليه فى أبهج صوره، وأخدع مظاهره، حتى بلغوا من ذلك ماأرادوا؛ فقد رأينا الشباب يلتهم التهامًا كل ماتقدمه له تلك الثقافة الرخيصة، ويندفع اندفاعًا إلى تقليد هذه المُثل الهابطة، غير مبال بما وراء ذلك من عاقبة. وما زال هؤلاء يفتنون الشباب بألوان من الفتنة، ويخدعونه بأنواع من الخداع، حتى فتنوه عن دينه وخلقه، وعن تقاليد آبائه وأجداده، وحتى سلخوه من قوميته وبيئته، وتركوه مَسيخًا مشوَّهًا، لا هو شرقى ولا هو غربى، ولا هو مسلم ولا هو غير مسلم.

وإن فى تاريخنا الإسلامى من المُثل الكريمة، ما لو أحسن توجيه الشباب إليه لأتى بالمعجزات. وقد رأيت الذين كتبوا فى تاريخنا - إلا قليلا - قد أغفلوا مستوى الشباب وميولهم، فلم يقدموا لهم من هذا الزاد مايلائم مداركهم؛ فمنهم من جنح إلى المنهج العلمى الذى لاصبر للشباب عليه، ومنهم من جنح إلى الخيال وتسهّل بالأسلوب، حتى جعله إلى مستوى الطفولة أقرب.

وقد كانت لى قبل ذلك محاولات فى كتابة القصة السهلة، ساهمت بها زمنًا فى خدمة الطفولة، فرأيت الكثير من إخوانى يقولون لى : لِمَ لاتكتب للشباب كما كتبت للطفولة؟ وجعلوا - كلما جدّت مناسبة - يتهموننى بالتقصير فيما يجب علىّ نحو الشباب؟ حتى رأيت أخًا منهم ذات يوم وقد أعدّ لى مكانًا فى مجلته، لأتحدث منه إلى الشباب فى تاريخ الإسلام ورجاله، وطلب إلىّ أن أرسم لهم - فى أسلوب يناسبهم - صورًا تصور بطولة هؤلاء الرجال وعظمة أخلاقهم، وتلفتهم إلى المبادئ السامية التى بَنَى الإسلامُ عليها نفوسَهم، فسادوا بها العالم، وملئوا بها الأرض عدلا وحكمة؛ فلم أجد بدًّا من الإذعان.

وبدأت أكتب هذه الصفحات فى سيرة الرسول الكريم؛ فهو ﷺ أحسن قدوة تُقْتَدى، وأهدَى دليل يُتّبع، وفى سيرته صور

شئ من الكمال ينبغي أن يُلقّنها الآباء للأبناء، بل هو المثل الأعلى للكمال الإنسانى، فى كل ماتتسع له طاقة الإنسان.. أدّبه ربه فأحسن تأديبه، وجعله نَموذجًا حيا للشخصية القوية، التى تستطيع بقوة إيمانها أن تصلح ما أفسد الدهر، «فقد استطاع ﷺ فى حياته أن يغيّر طباع قومه وأفكارهم. وأن يقوِّم المعوجّ من أخلاقهم، وأن يدفعهم بقوة فى طريق المثل الأعلى، ويرفعَهم إلى مستوًى من الحياة أسمى وأزكى؛ ولم يلجأ فى سبيله إلى الوسائل التى يعجز عنها طوْق البشر، بل تذرع بجميع الوسائل الشريفة، مما هو فى متناول الناس جميعًا؛ فكانت حياته درسًا عمليًّا للذين يشُقون طريقهم بقوة إيمانهم، على رغم مايحيط بهم من الصعاب، ومايعترض طريقهم من العقبات»*

وقد جعلت منهجى فى كتابة هذه الصفحات أن تكون الحقيقة التاريخية هى الأساس، وأن أحاول عرض هذه الحقيقة فى الأسلوب الذى يستهوى الشباب ويستميله، وفى الصورة التى تجعل المشاهد أمامه صورة حية شاخصة، كأنه يراها رأى العين، ويدركها بكل مشاعره فى حقيقتها الواقعة.

ولست أزعم أنى بلغت من ذلك ماأريد، وإنما هو منهج وضعته لنفسى، وحاولت جهدى أن أسير عليه. فإذا كنت قد

---

* المثل الأعلى للأنبياء بتصرف.

أصبت الغرض الذى رميت إليه، فذلك فضل الله وحسن توفيقه؛ فهو الذى استعنته فأعاننى، واستهديته فهدانى. وإن كنت قد حِدْت عن الطريق وكَبَوْت دون الغاية، فحسبى أننى كنت صادق النية فيما أخذت به نفسى من هذا القصد؛ فإنما الأعمال بالنيات، وقد تكون نية المرء خيرًا من علمه، ﴿والله يَهدِى مَن يشاء إلى صِراطٍ مُستَقيم﴾.

* * *

وبعد - أيها الأبناء - فإنى أقدم إليكم هذه الصفحات من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا أضرع إلى الله أن يُلين لها قلوبكم، ويصلح بها نفوسكم، ويجعل لكم فيها زادًا من التقوى يحفظكم من غرور الشباب، ويهديكم إلى طريق الصواب. . ﴿فمَن يُرِدِ اللّهُ أن يَهدِيَه يَشرَحْ صَدرَه للإسلام، ومَن يُرِدْ أنْ يُضِلَّه يَجعَلْ صَدرَه ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

وقبل أن أمضى بكم فى سيرة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أقف بكم قليلا، لأحدثكم عن البيئة التى وُلد بها ونشأ فيها، وعن طبيعة أهلها ونظام حياتهم، وعن بعض الحوادث المهمة التى حدثت قبل ميلاده، وكان لها صلة وثيقة بسيرته وتاريخه.

بلاد العرب

فقد ولد - صلى الله عليه وسلم - فى «مكة»، ومكة -كما تعلمون- فى بلاد الحجاز، وبلاد الحجاز فى بلاد العرب؛ وبلاد العرب صحراء واسعة، قليلة الماء قليلة الإنبات، أكثرها صخور ورمال، وجبال وتلال؛ وأكثر سكانها قبائل متفرقة، يعيشون فى الخيام، وينتقلون من مكان إلى مكان، متتبعين مساقط المطر ومنابت العشب، يرعَوْن فيها أنعامهم التى يعتمدون عليها فى حياتهم.

أما المدن فى هذه البلاد فقليلة جدًّا، ومعظم أهلها يعيشون على التجارة، يسيرون بها فى قوافل من الإبل، نَحوَ الشمال فى الصيف، ونحو الجنوب فى الشتاء، عابرين بها مسالك الصحراء البعيدة، متعرضين لسطو الأعراب من البدو، فى الذهاب وفى الإياب.

البيت الحرام

ومكة من أشهر المدن فى بلاد العرب، بل فى بلاد الدنيا جميعًا؛ لأن فيها «الكعبة»، بيت الله الحرام، أول بيت بُنى فى الأرض لعبادة الله وحده.. وكانت البيوت قبله تُبنَى لعبادة

الأصنام، أولعبادة غيرها من الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والأشجار والأنهار، والحيوان والطير، وما إلى ذلك من كل ما يَرُوع النفوس بعظمته، أو يملك القلوب بمنفعته.

وهو أول بيت وُضع للناس ليطوفوا به، ويَحجوا إليه من مشارق الأرض ومغاربها؛ وأول بيت حرّم الله فيه القتال والخصام والجدال، وحرم من أجله مكة كلها، وسماها « البلدَ الأمين ».

ثم هو قبلة المسلمين جميعًا، يتجهون إليه فى صلاتهم، مهما تباعدت بلادهم واختلفت أقطارهم.. فضله الله على سائر المساجد، وحرم دخوله على المشركين، وجعله حَرَمًا آمنًا، لايلجأ إليه خائف إلاأمِن، ولايدخله داخل إلا أحس بأنه من حماية الله فى حصن حصين.

من أجل هذا أحبه أهل مكة، وعظموه وقدسوه، وعاشوا فى حماه آمنين على أنفسهم وأموالهم؛ تغدو قوافلهم وتروح فى الصحراء آمنةً مطمئنة، لايتعرض لها الأعراب كما يتعرضون لسواها؛ بل ربما نَصَبُوا أنفسهم حُرّاسًا عليها، حتى يصلوا بها إلى مأمنها، لأنها قوافل أهل الحرم، الذى قدسه الله وعظمه، وجعله مباركًا وهدى للعالمين.



أرض الحرم

إبراهيم وسارة

كان « إبراهيم » - عليه السلام - عبدًا قانتًا لله، مخلصًا فى عبادته، حريصًا على طاعته، مسارعًا إلى رضاه. وكان له زوجة صالحة تسمى «سارّة»؛ وكان يحبها وتحبه، ويخلص لها وتخلص له.

قضى إبراهيم وزوجه عمرًا طويلا ولم يُرزَقا ولدًا، حتى كبر إبراهيم وصار شيخًا هرمًا، وشاخت سارة وجاوزت سن الولادة. وكان إبراهيم يرجو أن يكون له ولد يؤنسه فى حياته، ويعينه فى شيخوخته؛ وكانت زوجه سارة ترجو مثل ما يرجو.

وكانت لسارة جاريةٌ تسمى « هاجر »، جاءت بها من مصر واتخذتها خادمًا لها؛ فوهبتها لإبراهيم وقالت له: إنى كبرت يا إبراهيم، وصرت عجوزًا فانية، وانقطع أملى أن يكون لى ولد بعد هذه السن؛ وهذه جاريتى هاجر قد وهبتها لك، عسى أن يرزقك الله منها ولدًا تَقرُّ به عينك..

ودخل إبراهيم بهاجر، فرزق منها ولدًا سماه « إسماعيل ».

إسماعيل وهاجر

فرح إبراهيم فرحًا عظيمًا بولده إسماعيل، وفرحت به أمه هاجر، وأخذت تحس مكانها فى البيت، وتشعر أنها لم تعد خادمة كما كانت؛ بل أصبحت أمًّا تفخر بولدها، وتعتز به كما تعتز الأمهات.. وأحسَّت سارة أن خادمتها قد تغيرت لها، وغدت تعتز بمكانها فى الأسرة؛ وأحست كذلك أن إبراهيم يزداد فرحه بإسماعيل يومًا بعد يوم، وأن عنايته كذلك تزداد بأمه هاجر؛ فأخذتها الغيرة، وحَزَّ فى نفسها أن يكون لخادمتها ولد وليس لها ولد.

وكان إبراهيم حريصًا أشد الحرص على رضا سارة، لأنها شريكة حياته، ورفيقة صباه وشيخوخته. فلما أحس أن الغيرة قد أخذت تداخلها من جاريتها هاجر، أراد أن يفرق بينهما؛ فأخذ هاجر وابنها إسماعيل، وانطلق بهما يسيح فى أرض الله.. ومازال يتنقل من مكان إلى مكان، ومن أرض إلى أرض، حتى حط رحاله بهما فى أرض «مكة».

وكانت أرض مكة فى ذلك الحين أرضًا موحشة، خالية من الناس والزرع والماء؛ ولكن الله أوحى إلى إبراهيم، أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر فى هذه الأرض؛ فاستجاب إبراهيم لأمر

ربه، وتركهما فى هذا المكان القَفْر، وترك معهما جرابًا فيه قليل من التمر، وسِقاءً فيه قليل من الماء، ثم قفل راجعًا إلى زوجه سارة، فى أرض فلسطين.

فى أرض مكة

فلما هم أن ينصرف تعلقت به هاجر، وقالت له: إلى أين يا إبراهيم؟ أتتركنا فى هذه الأرض الخلاء، لا طعام لنا ولاشراب، ولا أنيس ولا مغيث؟ فتأثر إبراهيم وغلبته عيناه، فلم يستطع أن ينظر إليهما، وانطلق يمشي فى طريقه.

لكن هاجرَ لم تتركه، وظلت متعلقة به تصيح: إلى أين يا إبراهيم؟ إلى أين يا إبراهيم؟.. وظل إبراهيم منطلقًا فى طريقه، لايلتفت إليها ولا إلى ولده. فلما رأت أنه لايجيبها ولايلتفت إليها، سألته قائلة: آلله أمرك بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن فهو لن يتخلى عنا، ولن يضيّعنا.. وانكفأت راجعة إلى صغيرها.

أما إبراهيم فقد ظل مندفعًا فى طريقه لايَلْوِى على شيء، حتى وصل إلى مُنعطَف الطريق؛ وهنالك جاشت نفسه بعاطفة الرحمة لهذين الضعيفين: طفله إسماعيل وجاريته هاجر؛ فألقى عليهما نظرة دامعة، ثم رفع يديه إلى السماء ضارعًا، وهتف

يدعو الله قائلا : ﴿رَبَّنا إِنِّى أسْكَنْتُ من ذُرِّيتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عندَ بيتِك المُحَرَّم، ربَّنا لِيُقيمُوا الصَّلاة، فاجْعَلْ أفئدةً من النَّاسِ تَهْوِى إليهم[1]، وارزُقْهُم مِنَ الثمرَّات لَعلَّهم يشكرون﴾..[2] ثم انثنى فى طريقه وقد اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، وزالت مخاوفه، وأيقن أن الله الذى لاتنام عينه، سيرعاهما برعايته، ويحوطهما بعنايته.

وهكذا سار إبراهيم إلى فلسطين، وهو مطمئن إلى رعاية الله لطفله وجاريته.

حيرة هاجر

أما هاجر فقد عادت إلى ولدها، تضمه إلى صدرها، وتغمره بحنانها، مستسلمةً لأمر الله، مؤمنةً بأن الله معها، وأنه ماساقها إلى هذا المكان القفر إلا لحكمة يعلمها وأمرٍ يدبّره. وما هى إلا لحظة حتى كفكفت دموعها، وابتسمت لطفلها؛ ونظرت إلى جراب التمر فأخذت منه حَفْنة، وجعلت تأكل منها فى هدوء واطمئنان؛ ثم مدت فمها إلى سقاء الماء فأخذت منه جُرعة؛ ثم

---

(١) تأنس بهم وتعطف عليهم.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

قالت : « الحمد لله الذى أطعمنى فأشبعنى، وسقانى فأروانى »!

وما زالت هاجر تأكل من ذلك التمر، وتشرب من ذلك الماء، حتى فرغ التمر والماء وأصبحت ولاطعام عندها ولاشراب.

على أنها مع ذلك لم تجزع ولم تيأس، وظلت صابرة على الجوع والعطش، وهى فى كل لحظة تنتظر فرج الله ورحمته..

وطال بها الانتظار، وتمادى بها الصبر، واشتد بها الجوع والظمأ... ولكن، كيف يتسنى لهذا الطفل الضعيف أن يصبر؟

لقد أخذ الطفل يتلوى من الألم، ويئن أنينًا يفطِّر القلب، وأمه تنظر إليه حائرة، لاتدرى ماذا تفعل...

وما زال الطفل يئن ويبكى، ونفسه تتهافت، وصوته يتخافت، حتى كادت نفسه تفيض...

هنالك لم تستطع أمه صبرًا، ولم تُطق أن تنظر إلى وليدها وهو على هذه الحال؛ فانطلقت تجرى هاهنا وهاهنا، لعلها تجد أحدًا يسعفها بشربة ماء. وكان « الصَّفَا » أقربَ جبل إليها، فصعدت عليه، وتطلعت حواليها فلم تر أحدًا؛ فنزلت تُهَرْوِل إلى بطن الوادى حتى وصلت إلى « المَرْوَة »، فصعدت فوقه وتطلعت فلم تر أحدًا؛ فعادت تجرى إلى الصفا، ثم إلى المَرْوَة، ثم

إلى الصفا، ثم إلى المروة، حتى أتمت سبعة أشواط، وهى تجرى مكروبة ملهوفة..

نجدة السماء

فلما انتهت إلى المروة فى الشوط السابع، سمعت صوتًا يرن فى أذنيها، فتسمّعت وأنصتت، فسمعت الصوت مرة أخرى؛ فصاحت قائلة : يا صاحب الصوت، أغثنا إن كان عندك غَوْث !.. ثم التفتت تنظر إلى الطفل، فإذا هو يفحص برجله من العطش، وإذا جبريل يناديها : مَنْ أنت؟ قالت : أنا هاجر، أم ولد إبراهيم. قال : فإلى من وكلكما فى هذا المكان القفر؟ قالت : وكلنا إلى الله. قال : وكلكما - إذن - إلى الرءوف الرحيم.

وحينذاك فحص الغلام الأرض بأصبعه، فإذا الماء ينبثق من بين أصابعه متدفقًا فوّارًا.

فكبّرت هاجر، وانكبت على الماء تحوشه بيديها وهى تقول : «زم.. زَمْ..» «زَمْ.. زَمْ..»، وجعلت تغرف منه فى سقائها، وهو يفور ويفور، ويسيح على ماحوله من الرمال والصخور.

وهكذا سقت هاجر رضيعها، وأروَت ظمأها، وسجدت لله

شكرًا على ما أدركها به من الغوث والرحمة. أما الملك فقد ودع هاجر وطفلها، بعد أن ألقى فى رُوعها أن الله معها، وأنه سيشملها ويشمل طفلها بخير كثير.

* * *

وجعلت هاجر تتطلع إلى الملك وهو محلق فى السماء، حتى اختفى عنها.. فلما غاب عن ناظريها أحست بالوحشة، وودَّت لو أنه بقى معها فلم يفارقها، وتطلعت نفسُها إلى الأنس فى هذه الوحدة الموحشة، وتمنت لو أن الله ساق إليها جماعة من الناس، يزيلون عنها وحشة العزلة والانفراد.

فى ذلك الوقت كانت قبيلة من قبائل العرب، تسمى قبيلة «جُرْهُم» تسير عَبْرَ الصحراء، متجهة إلى الشمال؛ فرأوا طائرًا يحلّق فوق «زمزم»، حيث تقيم هاجر وابنها إسماعيل؛ فقال قائلهم: لاشك أن ها هنا ماءً قريبًا، فإن الطيور لاتحلق إلا حيث يكون الماء.. فأرسلوا واردهم ليبحث عن ذلك الماء. فما زال يبحث حتى اهتدى إلى مكان النبع، فانقلب إلى أصحابه فرحًا يصيح بالبشرى، فأقبلوا مسرعين يتسابقون إلى الماء. فلما رأَوْا عنده هاجر، أدركوا أنها صاحبة الماء؛ فاستأذنوها فى النزول عند مائها، فأذنت لهم، فنزلوا.

وهكذا نزلت قبيلة جرهم عند ماء زمزم، فأنست بهم هاجر

وأنسوا بها، وطابت لهم الحياة فى هذا المكان فأقاموا.. وشب إسماعيل بينهم، واختلط بهم وبأولادهم، فتعلم منهم لغة العرب. ونشأ يتكلمها كما يتكلمونها..

فلما كبر إسماعيل وبلغ مبلغ الرجال، تزوج من قبيلة جرهم، وصار له من بعد ذلك بنون وبنات؛ وتوطدت صلة إسماعيل بالعرب، حتى غدا كواحد منهم.

وبارك الله فى ذرية إسماعيل، فأخذت تتناسل فى هذه البقعة المباركة، وتتوالد فيها جيلا بعد جيل، حتى وُلد منها محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

بناء البيت

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة

كان إبراهيم - عليه السلام - يتردد بين الحين والحين على أرض الحجاز، ليطمئن على ولده إسماعيل. فلما استقر إسماعيل فى مكة، وصار رجلا ذا أسرة وعيال، أوحى الله إلى إبراهيم أن يبنى بيتًا لعبادته عند ماء زمزم، بمعاونة ولده إسماعيل؛ فتوجه من فوره إلى أرض الحجاز، فوجد إسماعيل جالسًا بجوار زمزم، يبرى نبالا له ليصطاد بها؛ وكان إسماعيل شابًا قويًا مغرمًا بالصيد.

فلما رأى إسماعيل أباه قام إليه فرحان، يعانقه عناق الشوق، ويبادله قُبَل الحنان. فلما فرغا من تحيات اللقاء، واطمأن كل منهما على حال صاحبه، قال إبراهيم لابنه إسماعيل: إن الله عهد إلينا أن نبنى له بيتًا فى هذا المكان. قال إسماعيل: وأنا إن شاء الله مُعينك ومؤازرك على بناء هذا البيت. فسرّ إبراهيم وقال: نِعم المعينُ أنت على أمر الله يابنى..!

وقام إبراهيم وإسماعيل يتعاونان على بناء البيت: إبراهيم يبنى وإسماعيل يحمل الأحجار ويناوله؛ حتى إذا ارتفع البناء عن قامة إبراهيم، وصار أعلى من أن تناله يده، جاء إسماعيل بحجر كبير، فجعله مقامًا لأبيه؛ فوقف عليه إبراهيم، وجعل يبنى ويدور به حول الجدار، متنقلا من مكان إلى مكان، حتى أتم بناء البيت.

فلما تم البيت وارتفعت قواعده، توجه إبراهيم وإسماعيل إلى الله يدعوان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لكَ، ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لك، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِم رسولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكمةَ وَيُزَكِّيهِم، إنك أَنت العزيزُ الحكيم﴾.[1]

إبراهيم يدعو إلى الحج

وقد تقبل الله منهما، واستجاب دعاءهما، فجعل هذا البيت كعبة للناس، يحجون إليه من فجاج الأرض، وأوحى إلى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج إليه. قال إبراهيم: وما عسى أن يبلغ صوتى إذا أنا أذّنت يارب؟ فقال له ربه: إنما عليك الأذان

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ - ١٢٩.

وعلينا البلاغ. . فارتقى إبراهيم جبلا عاليًا، وجعل ينادى بأعلى صوته : «يأيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج إلى بيته فحجُّوا». . فجعل صوته يدوّى فى الآفاق، فيسمعه كل من أراد الله له أن يحج، فيقول : «لبّيْك اللهم لبيك»!

وأقبل الناس على البيت طائعين، يلبون النداء، ويجيبون الدعاء؛ ففرح إبراهيم فرحًا عظيما، حين رأى الناس يقبلون من كل حَدَب، ويجتمعون حول البيت أجناسًا وألوانًا. فتمنى لو أن هذا المكان القفر، قد صار بلدًا عامرًا بالخير آهلًا بالسّكَن، يأنس الناس إليه ويألفونه، ويعيشون فيه إخوانًا، يحب بعضهم بعضًا، ويأمن بعضهم بعضًا؛ فتوجه إلى الله يدعوه بقلب خالص : ﴿ربِّ اجعلْ هذا بَلَدًا آمنًا، وارزُق أهلَه من الثمراتِ مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر!﴾[1].

فأوحى الله إلى إبراهيم : أنى جعلت هذا البيت حَرَمًا آمنًا، يُجبَى إليه ثمراتُ كل شىء؛ وجعلت مكة بلدًا حرامًا، لايحل فيها القتال، ولايُصاد طَيرُها ولا حيوانها، ولا يُقطع شجرُها ولايُختَلى خَلاها[2]؛ وجعلت أشهر الحج أشهرًا حُرُمًا، لارَفَثَ فيها[3] ولا فسوق، ولاخصام ولاجدال. . وأرسل الله إلى إبراهيم

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦.

(٢) لا يختلى خلاها : لايحش مابه من عشب.

(٣) الرفث : فحش القول.

ملكًا من السماء، فعلمه مناسك الحج؛ فجعل إبراهيم يعلمها للناس، كما تعلمها عن الملك، وكما تعلمها الملك عن الله سبحانه.

الحجاج يأتون من كل فج

من ذلك الحين، صار هذا البيت مَثَابَةً للناس[1] وأمنًا؛ يأتون إليه من مشارق الأرض ومغاربها، مُشاة ورُكبانًا، ويجتمعون فى ساحاته إخوانًا سَوَاسِيَة؛ قد تركوا وراءهم مظاهر الجاه والمال، وتجردوا من زينة الحياة الدنيا، ولبسوا من الثياب أبسطها مظهرًا، وأكثرها تشابهًا، وأقلها كُلفة، لافرق فى ذلك بين غنى وفقير، وعظيم وحقير؛ وجاءوا عبادًا مخلصين لله، يهلّلون له ويكبّرون، ويشكرونه على أن هيأ لهم هذا الحرَم الآمن، فى هذا البلد الآمن، فى هذه الأشهر الآمنة، ﴿لِيَشهَدوا منافعَ لهم، ويَذْكُروا اسمَ الله فى أيام مَعْلوماتٍ على ما رَزَقَهم من بَهِيمَة الأنعام﴾[2]؛ فيُهدِى الأغنياء من الهَدْى[3] مايشاءون، ويأكل الفقراء من اللحم مايشتهون، ويقْبل الجميع على الله بقلوب

(١) مثابة : مجتمعًا لهم.

(٢) سورة الحج الآية ٢٨.

(٣) الهدى : ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، ليذبح هنالك ويفرق لحمه على الفقراء.

خاشعة، وعيون دامعة، يتوبون إليه ويستغفرونه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

فإذا انتهت هذه الأيام المباركة، عادوا إلى ديارهم وقد غُسلت ذنوبهم، ومُحيت سيئاتهم، فرجعوا أطهارًا أبرارًا كما ولدتهم أمهاتهم.

من أجل ذلك صار هذا البيت مَهْوَى الأفئدة، وقبلة الأنظار، وصارت القبائل من الأعراب تتهافت على الإقامة حوله، وتتسابق إلى السكن فى رحابه، حتى امتلأت بهم مكة، وعَمَرت بهم ساحاتها، وصار خُدّام هذا البيت فيها أرفعَ الناس منزلة، وأعلاهم مقامًا.

سدانة البيت

كانت خدمة البيت شرفًا عظيمًا

كان خدام البيت يُسمَّوْن « السدنة »، وكانت سدِانة البيت شرفًا عظيمًا، لا يناله إلا الأكفاء من الأشراف والسادة؛ وكانت القبيلة التى تُسند إليها سِدانة البيت، هى سيدة القبائل وأشرفها وأعلاها؛ وكان سدَنَة البيت هم حكام مكة وأولو الأمر فيها، وهم الذين يملكون مفاتيح الكعبة، ويتولَّون زعامة الحج وقيادة الناس فى أداء مناسكه.

من أجل ذلك كانت القبائل التى نزلت بمكة، تتنافس تنافسًا شديدًا فى الوصول إلى سدانة البيت، وتحاول كل قبيلة أن تستأثر دون غيرها بهذا الشرف العظيم؛ وكان الصراع من أجل ذلك دائمًا بين القبائل، فكل قبيلة تغْلِب يكون لأشرافها وحدهم حق السدانة؛ فلا تزال كذلك حتى تغلبها عليه قبيلة أخرى.

وكان بنو إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - هم الذين تولوا سدانة البيت بعد أبيهم، ومازالوا يقومون بها حتى غلبهم

عليها أخوالهم من قبيلة «جُرْهُم» فانتزعوها منهم؛ واستمرت السدانة فى جرهم حينًا من الدهر، حتى غيروا وبدلوا فى شعائر الحج، وطَغَوا وبغوا على الناس، وأفسدوا فى أرض الحرم، فسلط الله عليهم قبيلة أخرى تسمى «خزاعة» فغلبوهم على سدانة البيت، وتولوا دونهم أمر مكة. فلما رأت قبيلة جرهم أنها غُلبت على أمرها، عمدوا إلى كل ما أهدى إلى الكعبة من نفائس، فألقوها فى بئر زمزم، ثم ردموا البئر فطمسوها وأخفوا معالمها، ثم خرجوا من مكة مهاجرين فى الأرض.

واستمرت خزاعة دهرًا طويلًا وهى تقوم على سدانة البيت، وتتولى شئون الحكم فى مكة، حتى انتقلت منها إلى قبيلة «قُرَيش». وكانت قريش أشرف القبائل فى مكة، وأعلاها نسبًا، لأنها من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام. وكان أول من تولى ذلك من قريش، قُصَىّ بن كلاب، أحد أجداد النبى محمد، صلى الله عليه وسلم.

قصى بن كلاب

ويقولون : إن قصيًا كان قد مات أبوه وهو صغير، فتزوجت أمه رجلًا آخر يسمى «رَبيعةَ بن حرَام»؛ وكان ربيعة من قبيلة تسمى «قُضَاعة»، وكانت قضاعةُ تسكن عند حدود الشام،

فنَقل ربيعةُ زوجته إلى بلاده، فأخذت معها ولدها قصى بن كلاب. وظل قصى يعيش مع زوج أمه وهو يظنه أباه، حتى كبر وصار شابًا وكان جلْدًا[1] قويًا شديد الشبه بأبيه؛ يمتاز بطوله الفارع، وعضله المفتول، وشعره الخشن الكثيف، الذى يملأ صدره وذراعيه وساقيه.

وفى ذات يوم كان قصى يبارى رفيقًا له من قضاعة فى رمى السهام، فغلبه قصى، فاغتاظ القضاعى وسب قصيًا وعيره، وقال له : أما آن لك أن ترحل عنا أيها الغريب؟ اذهب إلى قومك فاعرِفْ من أبوك.. ! فأثرت هذه الكلمات تأثيرًا شديدًا فى نفس قصى، فذهب من فوره إلى أمه فسألها : من أبى؟ قالت : أبوك ربيعة بن حرام. قال : لا، ليس ربيعة أبى ! قالت : ومن أدراك أن ربيعة ليس أباك؟ فحكى لها قصى ما كان بينه وبين رفيقه القضاعى.

فحزنت لذلك حزنًا شديدًا، وقالت له وهى تغالب دموعها : أنت والله يا بنى أكرم منه أبًا، وأعلى نسبًا، وأشرف منزلًا ! أبوك كلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَضْر بن كنانة القُرشى، ونسبك ينتهى إلى

---

(1) جلدًا : صلبًا.

إسماعيل بن إبراهيم، وقومك بمكة عند البيت الحرام، وأخوك هنالك زهرة بن كلاب سيد فى قومه.. ! قال قصى : فوالله لا أقيم ها هنا أبدًا، ولا أرضى لنفسى أن أكون نزيلاً على غير أهلى !

وخرج قصى مع الحجاج من قضاعة يبغى أرض مكة. فلما وصل إليها ذهب إلى أخيه زهرة بن كلاب، وكان قد كبر وذهب بصره؛ فحياه قصى، فرد عليه التحية ثم سأله : من أنت ؟ قال قصى : أنا أخوك قصى بن كلاب. فدهش زهرة وقال : إن قصيًّا هنالك مع أمه، يرعى إبل قضاعة فى أرض الشام.. ! فتأثر قصى وغلبته عيناه، فقال وهو يختنق بدموعه : كان ذلك وهو طفل صغير لا يدرك؛ أما الآن فقد عقل وميز وعرف ما كان به جاهلاً، وأدرك ما كان عنه غافلاً !

فابتسم زهرة ابتسامة المرتاب، وقال : إنى لأعرف فيك صوت كلاب بن مُرَّة، ولكنى أريد أن أتبين؛ أُدْنُ منى.. فدنا منه قصى، فجعل يتحسسّه بيديه، ويتلمس مواضع الشعر فى صدره ويديه ورجليه. فلما تبينت له سِمَات النسب[1] فى أخيه، صاح فى فرح واغتباط : أنت والله أخى.. ! أنت قصى

---

(١) السمات : علامات القرابة.

ابن كلاب.. ! لقد عرفت فيك الصوت والشبه.. ! وجعل يضمه إلى صدره ويقبله.

قصي يجمع أطراف الشرف

وعاش قصي بمكة، وامتاز فيها بخلقه وعقله ومروءته، فعلا شأنه بين الرجال، وعظم شرفه، وذاع صيته.. وكان شريفَ مكة وسادن البيتِ في ذلك الحين رجلٌ من خزاعة، يسمى «حُلَيْل بن حُبْشِيَّة»، وكان له ابنة تسمى «حُبّى» فخطبها إليه قصي، فزوجه إياها.

وعرف حُليلٌ قصي بن كلاب، فأعجب برجولته وخلقه، وأحبه حبًّا شديدًا، وأنزله من نفسه منزلة ولده. فلما حضر[1] حليل، أوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة إلى قصي بن كلاب، وبذلك انتقلت السدانة والولاية من قبيلة خزاعة إلى قبيلة قريش. فمازالت بها حتى بعث الله فيها رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله.

---

(١) حضر: حضره الموت.

دار الندوة

ولما تولى قصى أمر مكة، جمع فيها ما تفرق من بطون قريش، وقسم لهم فيها منازلهم، فنزل بعضهم فى بطاح مكة[1] وسهولها، ونزل بعضهم فى ظواهرها وأعاليها. وبنى إلى جوار البيت دارًا واسعة، سماها «دار الندوة»، وجعلها ناديًا له ولقومه، يجتمعون بها فى مسراتهم وأحزانهم؛ ويتبادلون الرأى فى شئونهم وأحوالهم، ويتشاورون فى أمور الحرب والسلم، والصلح والخصام، والزواج والطلاق، والسفر والإقامة؛ ويقيمون فيها الولائم والحفلات، ويبرمون العقود والمعاهدات.. فما كان يحدُث من أمر فى قريش إلا ودارُ الندوة مكانُه، وقصى هو صاحب الرأى والمشورة فيه؛ إذ كانوا جميعًا يُجِلُّونه ويحبونه، ويتيَمَّنون[2] برأيه فى الأمور كلها.

رفادة الحجاج وسقايتهم

ورأى قصى أن حجاج بيت الله يأتون إليه من بلادهم البعيدة، وأقطارهم النائية، بعد سفر طويل مُرهق، كلَّت فيه

---

(١) بطاح مكة : أراضيها الواسعة.

(٢) يتيمنون : يتفاءلون ويستبشرون.

دوابُّهم، وضَمَرت رواحلهم[1]، وحَفِيَت أقدامهم؛ فلا يصلون إلى البيت إلا شُعْثًا غُبْرًا[2]، أضناهم السفر، وأرهقهم السير، وآذاهم الجوع والعطش؛ ولا سيما الفقراء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون.

فجمع رجال قريش ووجوهها[3]، وقال لهم: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وأهل الحرم، قد خصكم الله بذلك وأكرمكم، وإنه يأتيكم فى موسم الحج زُوَّار بيت الله، وحجاج حرمه، يعظمون شعائره، ويقدسون حُرُماته؛ فهم ضيوف الله وزوار بيته؛ وأحق الضيف بالكرامة ضيف الله، فأكرموا ضيوف الله، واجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج، حتى يصدُروا عنكم، ويعودوا إلى بلادهم وأهليهم».

فاستجابت قريش إلى نداء قصى، وتعاونوا على رفادة الحاجّ[4] وسقايتهم، وفَرَض أهل كل بيت على أنفسهم قَدْرًا معلومًا من الطعام والشراب؛ الغنى بحسب قدرته، والفقير على قدر طاقته، يدفعونه جميعًا إلى قصى بن كلاب، فيصنع الطعام

---

(١) ضمرت: تعبت ركائبهم وهزلت من كثرة السير.

(٢) غبرًا: معفرين بتراب السفر ومتاعبه.

(٣) وجوهها: رؤساءها.

(٤) الرفادة: إطعام الحجاج.

للناس أيام الحج، يُشْرِد لهم الخبز واللحم[1]، ويقدم لهم السَّوِيق[2] والتمر، ويحمل لهم الماء فى حياض من الجلد. فلا يزال الحجاج فى كرم قريش وضيافتها، حتى تنتهى أيام الحج، ويَصدُروا عن مكة عائدين إلى ديارهم.

وهكذا انتهت إلى قصى بن كلاب، كل مظاهر الشرف والرياسة، لا يدخل أحد الكعبة حتى يكون قصى هو الذى يفتحها له، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايته، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامه، ولا تعقد قريش لواء حرب[3] إلا بيده، ولا تقطع أمرًا من أمورها إلا فى داره. فهو صاحب الحِجابة والسِّقاية والرِّفادة واللواء والندوة، وصاحب الأمر والنهى فى شئون الدين والدنيا بمكة؛ وكان أمره فيهم كالدِّين المتبع، لا يعملون بغيره فى حياته ولا بعد موته.

---

(١) يثرد : يقدم لهم الثريد وهو الفت.

(٢) السويق : حب مجروش، ويطبخ أحيانًا باللبن وأحيانًا بالعسل وأحيانًا بالماء. ولعله هو المسمى عند البدو الآن «بالدشيشة».

(٣) لواء الحرب : قيادتها.

كشف زمزم

كانت السقاية مهمة شاقة

ظلت سقاية الحاج ورفادتهم فى قريش سُنَّة معروفة وعادة مألوفة، منذ عهد قصىّ، يتوارثها أولاده وحفدته من بعده جيلًا بعد جيل، حتى وليَها عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى. وكانت الرفادة شيئًا هينًا سهلًا، إذ كانوا يتعاونون عليها ويتساندون فيها، فيقدم كل بيت ما يستطيع من الطعام.

أما السقاية فكان تدبيرها شيئًا عسيرًا جدًا، يقاسى ولاة البيت فى أمرها مصاعب ومشاق، نظرًا لقلة الماء فى مكة وما حولها؛ فكانوا يطوفون بالعيون والآبار والينابيع، يجمعون منها الماء ويضعونه فى حياض من الجلد، ويحملونها معهم إلى حيث يسيرون، حتى تنتهى أيام الحج.

فلما تولى عبد المطلب السقاية، أهمه أمرها همًا عظيمًا، وبات يقضى ليله ونهاره مفكرًا فى وسيلة سهلة، ييسر بها للحجاج سبيل الماء بلا عنت ولا مشقة، وكان قد سمع فيما سمع من

أقاصيص الرواة عن بئر زمزم، التى بناها جده إسماعيل ابن إبراهيم، ثم طمستها جُرهُم وأخفت معالمها، حين نزحت من أرض الحرم، فتمنى لو قُدِّر له العثور على مكانها، ليكشف عنها، ويعيدها سقاية للحجاج، كما كانت فى عهد جده إسماعيل، وظل مشغولاً بهذا الأمر ليله ونهاره.

رؤيا عبد المطلب

وفيما هو ذات ليلة يفكر فى أمر السقاية وقد غلبه النوم، رأى كأن هاتفًا فى منامه يقول له : يا عبد المطلب، احفر « طيبة ».. فسأل عبد المطلب : وما طيبة ؟ فانصرف عنه الهاتف ولم يجبه بشىء. فلما كانت الليلة الثانية، أقبل عليه ذلك الهاتف كما أقبل فى الليلة السابقة، وقال له : با عبد المطلب، احفر « بَرَّة ».. قال عبد المطلب : وما برّة ؟ فانصرف عنه الهاتف ولم يجبه بشىء. فلما كانت الليلة الثالثة، عاد إليه الهاتف وقال له : يا عبد المطلب، احفر « المضْنُونة ».. قال عبد المطلب : وما المضنونة ؟ فانصرف عنه كذلك ولم يجبه بشىء.

فشُغل عبد المطلب شغلاً عظيمًا بأمر هذا الهاتف، وجعل يسأل نفسه عن معنى هذه الكلمات المبهمة، التى تلقى له فى النوم إلقاء، دون أن يفهم لها معنى أو يدرك لها حقيقة. فلما

كانت الليلة الرابعة أوى عبد المطلب إلى فراشه، وهو يخشى أن يزوره هذا الهاتف، فيلق إليه بلغز جديد؛ فاستعاذ بالله، وتوجه إليه بنفس واجفة أن يكشف له عن سر هذا الهاتف، وأن يبين له حقيقة ما يرمى إليه إن كان هاتف خير، ويحفظه من شره إن كان شيطانًا.

ونام عبد المطلب وقد تحصن بحماية الله الذى لا يضرّ مع اسمه شيء؛ فما كادت عينه تستغرق فى النوم، حتى أقبل عليه الهاتف يقول: احفر «زمزم».. فتململ عبد المطلب فى فراشه، وصاح بالهاتف غاضبًا: وما زمزم؟ فلم يغضب الهاتف، ولم ينصرف عنه كما كان ينصرف فى كل مرة، بل نظر إليه مبتسمًا، وظل يقول فى أناة وهدوء: «لا تنزح ولا تُذم[1]، تسق الحجيج الأعظم؛ وهى بين الفَرْث[2] والدم، عند نقرة الغراب الأعصم[3]..»

فهب عبد المطلب من نومه فرحان مستبشرًا، وجعل يتلفت حواليه، كأنما يبحث عن ذلك الهاتف ليستزيده من الشرح والإيضاح، فلم يجد غير نفسه، جالسًا على سريره حيث كان،

(١) تنزح: لا تفرغ من الماء الشهى.
(٢) الفرث: ما يتخلف من كروش الذبائح.
(٣) الأعصم: الذى يكون فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائرها أسود.

ووجد نور الصبح يملأ الحجرة، وضوء الشمس يغمر الآفاق من حوله.

حفر زمزم

حينذاك نهض من فراشه عجلان، وانطلق نحو البيت ينظر ما هنالك، فإذا الغراب الأعصم قائم كعادته فى مذبح الكعبة، ينبش برجليه وينقر بمنقاره، حيث تذبح الأنعام التى تهدى إلى البيت، ويوزع لحمها على الفقراء والمساكين. وكان هذا الغراب يمتاز من غيره من الغربان، ببياض فى إحدى رجليه؛ وكان قد ألفه الناس يأتى إلى هذا المكان، فيأكل مما تخلفه الذبائح من فرث ودم.

فلما رآه عبد المطلب فرح واستبشر، وأيقن أن هذا الهاتف لم يكن شيطانًا، وأن هذه الرؤى لم تكن أضغاث أحلام، وانطلق من فوره إلى داره فأتى بفأس ومِكْتل[1]، واصطحب معه وحيده « الحارث »، وعاد مسرعًا إلى الكعبة، وأخذ يحفر حيث كان الغراب الأعصم ينقُر وينبِش.

وجعل عبد المطلب يحفر بهمة ونشاط، لا يبالى بما يلفحه من وهج الشمس، ولا بما يتصبب على جبينه من العرق؛ بل

(١) المكتل : ما يملأ بالتراب، وهو المعروف الآن باسم « الغلق » و « المقطف ».

هو ماض فيما قد دُعى إليه، يضرب الفأس بقوة، ويملأ المكتل بالتراب، ثم يناوله ولده الحارث، فيحمله الحارث بين يديه، ويمضى به غير بعيد، ثم يَكُبّه ذات اليمين أو ذات الشمال. فلا يكاد الحارثُ يُفرغ المكتل، حتى يتلقفه منه عبد المطلب فيملأه بالتراب ثم يرفعه إليه، وهو فيما بين ذلك يَرْتَجِزُ ويغنى :

لاهُمَّ[1] قد لبَّيت من دعانى   وجئت سَعْىَ المسرع العَجْلان
ثَبْتَ اليقين صادق الإيمان   يتبعنى الحارثُ غير وانِ[2].
جذلانَ لم يحفل بما يُعانى[3]   لا هَمّ فلتصدُق لنا الأمانى
مالى بما لم ترضَهُ يدان[4]*

والحارث من ورائه يردد أنغامه وأراجيزه، والمكتل بينهما رائح غاد، والفأس صاعدة هابطة، وصوت عبد المطلب الغليظ ينتشر منبسطًا فى الفضاء، فياضًا بالنشاط والغبطة، ومن ورائه صوت ولده الحارث ينبعث لينًا سهلًا، كأنه الصدى يأتى من البُعد البعيد.

---

(١) لاهم : اللهم.

(٢) غير وانٍ : مسرعًا غير مبطئ.

(٣) فرحان لا يبالى بالتعب.

(٤) يعانى : لا أستطيع أن أغضب أو أخالف أمرك.

* على هامش السيرة.

نذر عبد المطلب

واستيقظت قريش على صوت الفأس يرن فى الأرض القوية، وعلى أناشيد عبد المطلب تتردد فى الفضاء. فلما رأوه يحفر بين يدى الكعبة، ثاروا عليه يريدون أن يمنعوه، وكاثروه بأبنائهم ومواليهم. ولولا أنه سيد قريش، وأن له فيهم سنًّا ومنزلة، وأن رجالاً تدخلوا فيما بينه وبينهم، لحالوا بينه وبين ما يريد.

وعز على عبد المطلب أن يكاثره هؤلاء بأولادهم، وليس له إلا ابنه الحارث، فاغرورقت عيناه بالدموع، وتمنى على الله أن يَهَبَ له عشرة من الوَلَد، يقومون حوله ويمنعونه[1]، ونذر أن يذبح لله واحدًا منهم، إذ هم بلغوا عشرة من العدد.

ورأى رجال قريش ما ألم بعبد المطلب من الحزن، فتركوه يحفر حيث كان؛ فما زال يحفر ثم يحفر، لا يكِل ولا يمل حتى مضت ثلاثة أيام.

وكاد عبد المطلب أن ييأس، وبدأ يساوره الشك فى صدق ما أنبأه به الهاتف، لولا أنه رفع الفأس ثم ضرب بها ضربة، فأصابت شيئًا صلبًا، فانتعش عبد المطلب، وأخذ يكشف عن

---

(١) يمنعونه : يحمونه ويدافعون عنه.

ذلك الشيء حتى تبينه، فإذا هو غَزالان من ذهب، ودروع وأسيافٌ وآلاتُ حرب؛ فابتهجت نفسه، وعاوده الأمل من جديد، فعاد يحفر وهو أكثر همة ونشاطًا.

ومازال يرفع الفأس ويخفضها، وهو يُنشد ويغني، حتى ضربت الفأس فى حرف البئر الذى بناه إسماعيل.

هنالك كبّر عبد المطلب، وصاح فى فرح وابتهاج: هذا طَوِيُّ إسماعيل..! هذه بئر زمزم..! هذه سقاية الحجاج..! فعرفت قريش أنه أدرك الماء، فأقبلوا إليه مسرعين، يريدون أن يشاركوه فى كل ما عثر عليه.

قال عبد المطلب: أما الذهب والسلاح فليس لى ولا لكم؛ إنما هو للكعبة التى أُهدىَ إليها؛ وأما الماء فاجعلوا بينى وبينكم فى شأنه حَكَمًا، فإنْ حكم لكم به فهو ماؤكم، وإن حكم لى فهو مائى الذى دُعِيت إلى استنباطه وكشفه، وخُصِصْت به من دونكم جميعًا.

قالوا: لقد أنصفتنا يا عبد المطلب، فنعم الرأىُ رأيك!

الاحتكام

وكان من عادة العرب فى ذلك الزمان، أن يحتكموا إلى الكهان والعرّافين فى شئونهم المهمة، فاتفقوا على أن يذهبوا

جميعًا إلى «كاهنة بنى سعد»، وكانت تقيم عند حدود الشام؛ وخرجت قريش بعشرين رجلا من بطونها[1]، وخرج عبد المطلب بعشرين رجلا من بنى عبد مناف. فلما قاربوا حدود الشام، نَفِد ما كان معهم من الماء، وضلوا فى متاهَة جرداء مقفرة؛ وكان القيظ شديدًا والحر بالغًا، وضوء الشمس يسطع على الصخور فيجعلها كجمرات النار. فاضطُروا إلى النزول حيث كانوا، وجعلوا يقلّبون وجوه الرأى بينهم للخلاص من هذه المَهلكَة.

قال قائل منهم : يا قوم، إنه الموت لا محالة.. ! وإنا إذا واصلنا السير فسنهلك واحدًا بعد واحد، وتذهب آثارنا بددًا[2] بهذه الصحراء. فلنُقِمْ هنا حيث نزلنا، وليحفِرْ كل واحد منا قبره بيديه، فمن مات منا دفناه فى حفرته؛ حتى إذا لم يبق منا غير واحد، كان ذهاب واحد بددًا خيرًا من ذهابنا جميعًا، ولعل أهلنا أن يعثروا على قبورنا، إذا قُدِّر لهم أن يصلوا إلى مكاننا هذا.

فاستحسن القوم هذا الرأى وهموا يريدون أن يحفروا حفائرهم، لولا أن صاح فيهم عبد المطلب : يا قوم، والله

---

(١) البطون فى أيام العرب تشبه العائلات فى أيامنا.

(٢) بدداً : تتبعثر فى كل ناحية.

ما هذا برأى.. ! وإنه لعجْزٌ منا أن نستسلم للموت وفينا بقية من حياة.. ! إنما الرأى أن ننهض من مكاننا هذا، وأن نواصل السير ما بقيت فينا قوة؛ فلعل الله أن يبدل يأسنا أملا، ويشملنا برحمة من عنده، فنجد الماء فى مكان آخر.. !

ثم ركب ناقته وزجرها فهمّت به قائمة؛ لكنها ما كادت تستوى على قوائمها، حتى رأى عبد المطلب نبعًا ينبثق تحت أقدامها، ويتفجر منه الماء سائغًا عذبًا.

فكبّر عبد المطلب، وصاح بالركب: أبشروا يا قوم فقد سقانا الله.. ! فاندفع القوم إلى الماء يستقون، ويسقون جمالهم وركائبهم، وأحاطوا بعبد المطلب يتمسحون به ويباركونه، ويقولون: قد - والله - حكم الله بيننا وبينك يا عبد المطلب! إنكم يا آل عبد مناف لَتَحْملون أنفُسًا زكية، وقلوبًا طاهرة؛ وإنك يا عبد المطلب لأزكاهم نفسًا، وأطهرهم قلبًا، وأقربهم إلى الخير، وأبعدهم عن الشر! وليس على الله من حرج أن يحوطك بكرامته حيثما كنت!

ثم لوَى القوم أعناق رواحلهم إلى مكة[1] وهم يصيحون بعبد المطلب: هيا إلى مكة يا سيد قريش؛ إن الذى سقاك

---

(١) لوى: وجهوها إلى مكة.

بهذه الفلاة[1]، هو الذى سقاك زمزم؛ فوالله لا نخاصمك فيها أبدًا.. وانقلبوا جميعًا عائدين إلى ديارهم.

ومنذ ذلك اليوم، صارت زمزم حقًّا خالصًا لآل عبد المطلب، يسقون منها الحجيج ماء غَدَقًا[2].

---

(١) الفلاة : الصحراء.

(٢) غدقًا : كثيرًا.

فداء عبد الله

الوفاء بالنذر

تحققت أمنية عبد المطلب بن هاشم، وبلغ بنوه عشرة رجال، فأيقن أنه قد آن له أن يفي بنذره لله، ما دام الله قد أجاب دعاءه وحقق رجاءه. فجمع أولاده حوله، وقال لهم: إني تمنيت على الله ذات يوم، أن يمنحني عشرة من الولد، يحمي بهم كظهري، ويشدّ بهم أزري، ونذرت إن هو منحني هؤلاء العشرة، أن أذبح له واحدًا منهم، تقربًا إليه وشكرًا له على فضله. وها أنتم أولاء عشرة من أبنائي، تحوطونني من جميع نواحي، وتملئون نفسي فخرًا، وتزيدون في اسمي ذكرًا. فهل آن لي أن أفي بنذري لله الذي أقرّ بكم عيني؟ فقالوا جميعًا: نعم.. ! وقدم كل واحد نفسه ليكون هو القربان.

فاغتبط عبد المطلب أيّما اغتباط، حين رأى أولاده يتسابقون إلى التضحية بأنفسهم في سبيل مرضاته، وألقى عليهم جميعًا نظرة

شاكرة، وقام من فوره فاصطحبهم إلى سادن الكعبة، ليُقرع بينهم بقِداحه[1].

استنباء القداح

وكان من عادة العرب كلما هموا بأمر عظيم، أن يلجأوا إلى القِداح يستنبئونها قبل أن يُقدموا عليه، فما أشارت بفعله فعلوه، وما أشارت بتركه تركوه. وهى شىء أشبه بالقُرْعة التى نلجأ إليها فى أيامنا هذه. وكان لهذه القداح فى حياتهم أثر بالغ، إذ كانوا يؤمنون بها إيمانًا شديدًا، ويعتقدون أنها تعبّر عما تريد آلهتهم. وكان العرب قد اتخذوا لهم أصنامًا آلهة، يعبدونها من دون الله، وشاعت عبادتها بينهم، حتى كان لكل قبيلة صنم خاص بها، تقدّم له القرابين، وتذبح له الذبائح، وتستشيره فى كل شأن من شئونها.

فلما ذهب عبد المطلب إلى الكعبة، طلب إلى سادنها أن يدير القداح بين أبنائه العشرة، فأيُّهم خرج القِدْح باسمه فهو الذبيح. فتقدم صاحب القداح فكتب أسماء البنين العشرة، ثم ضرب القداح، فخرج قِدْح عبد الله.

(١) القداح : جمع (قِدْح)، وهى عصىّ قصيرة مصقولة، بعضها مكتوب عليه وبعضها غُفْل بلا كتابة.

مكانة عبد الله

وكان عبد الله أحب أبناء أبيه إليه، وآثرهم عنده، وكان له بين أهل مكة مَعَزّة ومكانة؛ إذ كان يسمو على شبابها بخلق هادئ، وعقل رزين، ولسان عذب الحديث، ووجه دائم البشاشة؛ وكان فوق ذلك عفًّا نقيًّا، بعيدًا عن كل ما يشين الشباب من نَزَق[1] وجهالة.

من أجل ذلك كان وقوع القداح عليه خَطبًا جسيما، أثار أهل مكة جميعًا على عبد المطلب؛ فتقدم إليه شيوخها وشبابها، ورجالها ونساؤها، يحاولون أن يَثْنوه عن رأيه في ذبح عبد الله؛ فيأبى عبد المطلب إلا أن يُوَفي بنذره كما اختارت له الآلهة.

وتقدم عبد المطلب إلى عبد الله يقوده إلى المذبح، وتقدم عبد الله إلى أبيه شجاعًا باسم الثغر؛ فأحاطت به نساء قريش، وتعلقت به أخت له تحول بينه وبين أبيه، وأخذت تستصرخ القوم ليمنعوا أخاها من الموت. وكان صراخها مؤثرًا وبكاؤها مثيرًا؛ فتقدم رجال من قريش يقولون: يا عبد المطلب، إنك بهذا تريد أن تَسُنّ فينا سُنّة سيئة..! لقد علمتَ يا عبد المطلب

(١) النزق: الطيش.

أنك شيخنا ورئيسنا، فلو مضيت تذبح ولدك اليوم، فإنه سيتبعك رجال من قومك فيذبحون أبناءهم، تأسِّيًا بك واقتداء بسُنّتك؛ فنصبح وقد غدا الذبح فى أبنائنا سُنّة متَّبعة.. ! فبالله عليك يا عبد المطلب إلا عدلت عن هذا الرأى، فإن فيه فناءَنا وذهاب قوتنا. فإن كان لابد لك من الوفاء بنذرك، فلنحتكمْ نحن وأنت إلى عرّافة يثرب؛ فما حكمتْ به فهو الحكم بيننا وبينك.. !

فلان عبد المطلب أمام هذا القول، وأرجأ ذبح عبد الله حتى تحكم العرافة بينه وبين رجال قومه؛ وغدا الجميع ممتطين[1] رواحلهم، يُغِذّون[2] السَّير فى طريقهم إلى يثرب.

حكم العرافة

فلما وصلوا إلى هنالك، عرضوا قضيتهم على العرافة، فقالت لهم : أنْظِرونى[3] ثلاثة أيام حتى أتبين وجه الصواب فى قضيتكم. فلما كان بعد الثلاثة الأيام ذهبوا إليها، فقالت لهم : كم الدِّيَة[4] فيكم؟ قالوا : عشر من الإبل. قالت : فائتوا بعشر

(١) ممتطين : راكبين.

(٢) يغذون : يسرعون.

(٣) أنظرونى : أمهلونى.

(٤) الدية : ما يدفع عوضًا عن القتيل.

من الإبل فقربوها، وقربوا صاحبكم، ثم اضربوا عليها وعليه القداح؛ فإن خرجت القداح عليها فاذبحوها، وإلا فزيدوا الإبل عشرًا، ثم اضربوا القداح عليها وعلى صاحبكم؛ فإن خرجت عليها فاذبحوها، وإلا فزيدوا الإبل عشرًا؛ وهكذا لا تزالون تزيدونها عشرًا بعد عشر، حتى تقع القداح على الإبل، فمتى وقعت على الإبل، فاعلموا أن ربكم قد رضى بها فداء لصاحبكم.. فرجع القوم وقد رضيت نفوسهم بهذا الحكم، واطمأنت له قلوبهم.

فلما رجعوا إلى مكة جاءوا بعشر من الإبل، فضربوا عليها وعلى عبد الله بالقداح، فخرجت القداح على عبد الله؛ فزادوا الابل عشرًا، ثم ضربوا القداح فخرجت على عبد الله، فزادوا الإبل عشرًا.. ثم ما زالوا يضربون بالقداح ويزيدون عشرًا بعد عشر، حتى بلغت الإبل مائة؛ ثم ضُربت القداح فخرجت على الإبل. فصاح القوم فى ابتهاج : ها قد رضى ربك يا عبد المطلب!

ولكن عبد المطلب - فيما يقولون - أبى أن يطمئن حتى تضرب القداح ثلاث مرات؛ فضربت القداح ثلاثًا فخرجت على الإبل. فاطمأن عبد المطلب وأمر بالإبل فنُحرت جميعها، وتُركت طعامًا لأهل مكة، لا يُصَدُّ عنها إنسان ولا حيوان ولا طير.

وكان فداء عبد الله عيدًا لأهل مكة، قَضَوا فيه أيامًا حافلة بالطعام، مليئة بالسرور والبهجة، وكان عيدًا سابغًا شاملا، نَعِم فيه كل حى بمكة حتى الطيرُ والحيوان والوحش.

وأراد عبد المطلب أن يستكمل بهجة هذا العيد بهاءه، فذهب من فَوْره إلى سيد بنى زُهرة، وَهْب بن عبد مناف، فخطب إليه ابنته «آمنة» على ولده عبد الله.

رحلة القافلة

الصهر الكريم

كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وبيت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة، من أعلى البيوت فى قريش، إذ كان عبد المطلب بن هاشم سيد بنى هاشم، وكان وهب ابن عبد مناف سيد بنى زهرة؛ وكان كِلا البيتين مَوْسُوما بالشرف والكرامة، والطهر والعفاف، ورعاية الدين والفضيلة. فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب، من آمنة بنت وهب، زواجًا موفقًا ميمونًا، اتحد فيه عنصرٌ طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصْهَر بيت عريق فى شرف الآباء وطهر الأمهات، إلى بيت يكافئه فى الشرف والطهارة؛ فكان من الطبيعى أن تكون ثمرة هذا الصّهر ثمرةً طيبة مباركة، وأن يكون نسل هذا الزواج نسلاً طاهرًا كريمًا : ﴿والبلَدُ الطيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُه بإذْن رَبِّه﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٨.

كان كِلا الزوجين سعيدًا بصاحبه، يبادله عواطف الحب والتقدير، وينظر إلى الحياة معه نظرة فياضة بالسعادة، ملؤها الأمل الحلو، والرجاء الباسم، والتطلع إلى المستقبل البعيد فى طمأنينة وثقة. ولكن الله الذى يدبر شئون الخلق على مقتضى حكمته، لم يشأ لهذين الزوجين أن يندفعا مع الآمال إلى بعيد، فقدر عليهما أن يفترقا إلى الأبد، وهما لا يزالان فى ثياب العُرْس.

رحلة الشتاء والصيف

وكان لقريش رحلتان للتجارة: رحلةٌ فى الشتاء إلى بلاد اليمن وما وراءها، ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام وما يجاورها. وكانت القوافل فى كلتا الرحلتين تقوم من مكة، محمَّلةً بمنتاجاتها من الصوف والشعر والوبر والجلود، وتعود محملة ببضائع الشام والعراق ومصر واليمن وبلاد الحَبَش. وكان عبد المطلب يحب أن يأخذ أبناءه بالمِران على أساليب التجارة، فكان يرسلهم واحدًا بعد واحد، فى رحلة الشتاء والصيف. فلما كانت هذه الرحلة، وقع اختياره فيها على ابنه عبد الله.

كانت الرحلة فى هذه المرة قاصدة إلى بلاد الشام، وكان الوقت صيفًا، والحر شديدًا، والسفر مُضْنِيًا؛ وكانت ظروف عبد

الله كلها تدعو إلى الإقامة، ولكن عبد الله لم يشأ أن يخالف أمر أبيه، واندفع مع القافلة فى الصحراء المترامية الأطراف، متعرضًا لأخطارها ومشقاتها، وترك وراءه عروسه الحبيبة، تقاسى مرارة الفراق العاجل، والوحشة المباغتة، والوحدة التى جاءت مبكرة على غير انتظار.

وانطلقت القافلة فى طريقها إلى الشام، تقطع الفيافى البعيدة، وتخوض الرمال الواسعة، وتصطلى وَقْدة الشمس التى تُذيب الرءوس، وحرارة العطش التى تفتّت الأكباد، وتعانى من قسوة الصحراء ما تعانى، حتى وصلت إلى أسواق الشام؛ فباعت ما شاء الله لها أن تبيع، واشترت ما شاء الله لها أن تشترى، ثم قفلت راجعة من حيث جاءت، حتى وصلت فى طريقها إلى مدينة «يَثْرِب».

وكان عبد الله قد مرض فى أثناء الطريق، وأنهك قواه طولُ السير فى الصحراء، فأوَى إلى أخوال أبيه فى المدينة، ليستَجِمَّ ويستريح، ويقيم عندهم أيامًا حتى يُبِلَّ من مرضه. أما القافلة فقد تركت رفيقها عبد الله عند أخواله، وواصلت سيرها إلى مكة، لتصل إليها فى الموعد المعتاد.

عودة القافلة

وكان أهل مكة يحتفلون برجوع القافلة أيّما احتفال؛ فتخرج جموع الشبان لترافق القافلة من بعيد، ويجتمع الكهول والشيوخ فى دار الندوة، يتنسّمون الأخبار ليطمئنوا على أموالهم ومتاجرهم، وتستعد النساء فى البيوت لإستقبال العائدين من الأبناء والأزواج والإخوة؛ ويصعد الأطفال على شُرُفات المنازل ورءوس الجبال، يتطلعون إلى العِير المحمّلة بجديد الثياب، ولذيذ الطعام والشراب، وهم يُمَنُّون أنفسهم بيوم حافل بالمُتَع واللذائذ؛ وتتهيأ النفوس والقلوب للقاء الأحبة، بعد طول الفراق وكثرة الأشواق.

وكان آل عبد المطلب قد تهيئوا لهذا الأمر، كما تهيأ له غيرهم من الناس، فجلس عبد المطلب فى دار الندوة مع الجالسين من رجال قريش، وخرج أبناؤه يستقبلون القافلة مع الخارجين من شباب مكة، وتسابق الأطفال إلى الشُرُفات العالية يتطلعون فى فرح ونشوة، وجلست آمنة بنت وهب تنظر وتتشوّف، وقد أعدت بيتها وهيأت نفسها للقاء الحبيب الغائب.

ودخلت القافلة مكة، يحيط بها جمع حاشد من الشباب، وهلل الأطفال وزَغْردت النساء، واندفع كل حبيب إلى حبيبه

يعانقه ويقبّله، وأخذ عبد المطلب يدور بعينيه فى القادمين يحاول أن يرى ولده عبد الله فلا يراه... أين عبد الله يا قوم..؟ قال قائلهم: لقد مرض عبد الله فى الطريق، وتخلف عند أخواله فى يثرب، ليستريح عندهم أيامًا ثم يعود.

أين عبد الله؟

وفوجئ عبد المطلب بما لم يكن يتوقع، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه، وأمر ولده الحارث بأن يذهب على الفور إلى يثرب، ليحمل إليه أخاه عبد الله! فما لبث الحارث أن أعد راحلته، وانطلق بها إلى يثرب مسرعًا... لكنه لم يكد يصل إلى هناك، حتى استقبله الناعى على بابها، ينعَى إليه أخاه عبد الله!

وعلم الحارث أن عبد الله قد مات، ودفن هنالك عند أخواله، فعاد إلى مكة كاسف البال مكلوم الفؤاد، فألق إلى أبيه بالنبأ المشئوم؛ فاضطرب عبد المطلب له اضطرابًا شديدًا، وتحير كيف يُلقِي هذا النبأ الفاجع إلى آمنة بنت وهب. وأطرق برأسه إلى الأرض، ومكث برهة يفكر... ولكن، ماذا..؟ أليس كُلُّنا ميتين؟ إذن فلا بد مما ليس منه بد..!

موقف عصيب

وقام الشيخ متحاملا على نفسه، يمشي الهُوَينا في وُجوم واكتئاب، ورجال قريش يحيطون به؛ حتى إذا وصل إلى بيت آمنة، أخذ يتكلف الابتسام، ويتظاهر بالبشر، ثم وقف أمامها حيران لايدرى كيف يبدأ ولا كيف ينتهي.. ونظرت آمنة إلى وجه الشيخ فأدركت كل شيء، وأرادت أن تنقذه من حيرته، فتقدمت نحوه وهي تقول: أطال الله عمرك يا أبي..! فيك العِوَض وفيك الرجاء كله..! ثم ارتمت في حِضنه باكية. فجعل الشيخ يضمها إلى صدره في حنان بالغ، ودموعه تنهلّ من عينيه فياضة غالبة.

وأحسّ عبد المطلب أن الحزن قد غلبه على أمره، وخرج به عن وقاره، فانفلت مسرعًا إلى الكعبة، يشكو إلى الله بَثّه وحُزنه، وترك آمنة غريقة في دموعها وأشجانها، وحولها نساء بني هاشم، يحاولن تعزيتها وتخفيف لَوْعتها.

مولد الرسول ﷺ

أحلام آمنة

لم يستَبِدّ الحزن بآمنة بنت وهب. ولم يُجثِم طويلا على صدرها؛ فسَرعان ما جلَت عنها غَشْيةُ الحزن التى ألَمّت بها، وأحست برَوْح من السكينة يغشاها، فيملأ قلبها بالطمأنينة والرضا لما جرى به القضاء. وأخذت نفسُها تتفتح للحياة من جديد، وعاودها المرح والنشاط كما لو لم يكن قد حدث شىء. بل إنها كانت تُحس بفيض غامر من السعادة يفيض عليها، فيجعل الدنيا أمامها أكثر بهجة مما كانت. وهذا ما كانت تعجب له أشد العجب، وتدافعه أشد المدافعة فلا تستطيع.

وأعجبُ ما كانت تَعجَب له آمنة، أن الهواتف كانت تتوارد على نفسها بأنها ليست وحيدة، وأن موت عبد الله لم يكن شرًّا يراد بها، وأن الغد القريب ينتظرها بخير كثير. وكانت إذا أوت إلى فراشها من الليل سبحت فى جو من الأحلام السعيدة، وتراءت لها فى النوم ألوان شتى من النور البهىّ، ترسُم أمامها

أبدع المناظر؛ وأحاطت بها أطياف باسمة من الولدان والحور، تتغنى بأحسن الأغانى، وتنشد أعذب الألحان؛ حتى إذا طلع النهار واستيقظت أحست بفيض من النشاط والأنس يغمرها إلى الليل.. فهى دائماً أبدًا فى غمرة من النشوة والرضا، لا تعرف لها مصدرًا، ولا تدرى لها سببًا.

وفى إحدى الليالى أوت آمنة إلى فراشها كعادتها؛ فرأت كأن طيفًا لطيفًا يدنو منها، ثم يهتف بها فى همس: لقد حملتِ يا آمنة، وعما قريب تكونين أمًّا..!

بين الشك واليقين

وانتظرت آمنة أن تُحس ما تحسه الحوامل من أسباب الضعف والوهَن، ولكنها لم تجد فى نفسها ضعفًا ولا وَهنًا. ومرت الأيام تِلْوَ الأيام وآمنة تترقب أعراض هذا الحمل فلا تجدها.. لقد كانت تغدو فى كل يوم وهى أكثر نشاطًا منها فى اليوم الذى قبله، حتى لقد أنكرت ما أنبأها به الهاتف، وظنت أنها أضغاث أحلام.

ولكن ذلك الهاتف كان حريصًا على ألا يترك للشك مجالا إلى نفسها، إذ كان يعاودها من حين إلى حين، فيلق إليها فى كل مرة نبأ جديدًا... فقد أنبأها ذات ليلة بأنها حملت بسيد

هذه الأمة، ومرة أنبأها بأنها ستكون أمًّا لخير أهل الأرض، ومرة أخرى أمرها بأن تسميه «محمدًا»... !

وغدت آمنة فى حيرة، أتصدق ذلك أم تكذبه؟... من أجل ذلك كانت تلجأ إلى الأدْنَيْن من صواحبها وذوات قرباها، فتُفْضِى إليهن ببعض أخبارها، وتستأنس بآرائهن فى الحمل وما يَجِدْن من أعراضه وأحواله؛ وتنظر فى حالها منه فيغلب عليها الشك، ثم تذكر الهواتف والرُّؤَى وما تراه فى أحلامها من البشائر والآيات، فيغلب عليها اليقين.

وما زالت كذلك بين الشك واليقين، حتى أحست بشائر الحمل واستبانت حقيقته. هنالك صدّقت أن هذه الهواتف لم تكن إلا هواتف صِدْق، وأن حَمْلها هذا لابد أن يكون له شأن؛ فكتمت أمرها عن صواحبها، وخافت على جنينها أن تصيبه عين حاسد.

نور يضىء المشرق والمغرب

وفى إحدى الليالى رأت فيما يرى النائم، كأن نورًا قد خرج منها فأضاء ما بين المشرق والمغرب، حتى رأت على ضوئه قصور «بُصْرَى» من أرض الشام.. ومازالت آمنة تتوالى عليها البشائر والآيات، حتى أتمت شهور الحمل، وولدت رسول الله، صلى

الله عليه وسلم. وكان ذلك فى يوم الاثنين، الثانى عشر من شهر ربيع الأول، والعاشر من أغسطس سنة ٥٧٠، وهو العام الذى حدثت فيه حادثة الفيل: إذ جاء أَبْـرَهَة وأصحابه ليهدموا الكعبة، فأرسل الله عليهم طَيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجّيل، فجعَلهم كعَصْف مأكول.

* * *

ويُحدّث آمنةُ بنت وهب عن نفسها فتقول: «لقد عَلِقْتُ به[1] فما وجدت له مشقة حتى وضعته؛ فلما فَصَل منى[2] خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب؛ ثم وقع على الأرض معتمدًا على يديه، رافعًا رأسه إلى السماء».

وتقول زوجة أبى العاصى ممن حضرن ولادة آمنة: «لقد شهدت ولادة آمنة بنت وهب، ليلة ولدَتْ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما شيء أنظره فى البيت إلا نور. ولقد رأيت النجوم تدنو ثم تدنو، حتى لقد خشيت أن يَقَعن علىّ».

ويحدث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن نفسه فيقول: «من كرامتى على الله أنى وُلدت مختونًا، ولم ير سَوْأتى أحد».

---

(١) علقت به: حملته.

(٢) فصل منى: ولد.

فرحة عبد المطلب

وأرسلت آمنة جاريتها إلى عبد المطلب، تخبره بأن قد ولد له غلام؛ فجاء مسرعًا ينظر.. فلما جاء حدثته آمنة بما كانت ترى منذ حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسمّيه.

ففرح به عبد المطلب فرحًا شديدًا، ونظر إليه فأعجبه، ونزل من نفسه منزلة عظيمة؛ فجعل يقول: «لَيَكُونَنّ لابنى هذا شأن..!» ثم حمله بين يديه، وانطلق به إلى الكعبة، فقام يدعو ويشكر الله، عز وجل، ويقول:

«الحمد لله الذى أعطانى ... هذا الغلام الطيِّبَ الأردانِ[1]
أعيذه بالبيت ذى الأركان ... حتى أراه بالغَ البنيان»[2]

فلما كان اليوم السابع، وهو يوم العقيقة عند العرب، ذبح جَزُوراً[3] وأطعم المساكين والفقراء، ودعا رجالا من قريش فحضروا وطَعِموا، وهنّئوا بالطفل السعيد، وتمنّوا له رفعة الشأن وبركة العمر؛ فلما أكلوا قالوا: «يا عبد المطلب، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه»، ما سَمَّيْتَه؟ قال: سميته

---

(١) الأردان: الثياب، وطهارة الأردان كناية عن البراءة من العيوب.

(٢) بالغ البنيان: مكتمل الرجولة.

(٣) الجزور: الجمل أو الناقة.

«محمدًا». قالوا: فما رَغبتَ به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله فى السماء، وأن يحمده خلقه فى الأرض.

* * *

وكان أولَ من أرضع رسول الله ثُوَيْبَةُ، جارية عمه أبى لهب؛ ومع أنها لم تُرضعه سوى أيام فقد ظل يحفظ لها هذا الجميل، ومازال يكرمها ويَبَرُّها حتى ماتت وهو بالمدينة، فلما ماتت سأل عن ابنها مسروح - وكان أخًا له فى الرضاعة - ليصِلَه مكانَها، فعلم أنه مات قبلها.

الرَّضاع

مراضع البادية

كان من عادة الأشراف من أهل مكة، أن يبعثوا بأطفالهم إلى البادية، يقضون فيها مدة الرضاع فى حضانة المراضع من نساء البدو، بعيدين عن جو المدينة وهوائها الوَخِمِ الثقيل؛ إذ كانوا يعتقدون أن جو البادية أصح، وأنق وأحسن أثرًا فى نمو الأطفال وزكائهم[1].

وكانت المراضع من نساء البادية يأتين إلى مكة من آن إلى آن، يلتمِسْن الرُّضع من الأطفال؛ وكانت الأمهات من نساء السادة يُلقِين بأولادهن إلى هؤلاء المراضع، ويُغدِقْن عليهن من الأجر والبر، بمقدار ما طُبعت عليه نفوسهن ونفوس أزواجهن من الكرم والسماحة.

وكانت المراضع يَبحثْن أول ما يبحثْن عن ذوى الآباء من أبناء الأغنياء والسادة، طمعًا فيما ينالهن من بر الآباء ونفَحاتهم؛

(١) الزكاء : النمو.

أما يَتامى الأطفال - ولا سيما الفقراء منهم - فلم يكونوا فى موضع الرغبة من هؤلاء المراضع.

وكان رسول الله ﷺ قد ولد يتيما، ليس له إلا جده عبد المطلب وأمة آمنة، فلم تكن حاله تلك مما يُغرى به المراضع من نساء البادية. وكان قد وفد على مكة ركْب من المراضع، من بادية بنى سعد بن بكر بن هَوَازن، يلتمسن الرضعاء من أطفال الأشراف والسادة من قريش، فعرضت عليهن آمنة رضيعها فكلُّهن زَهِدْن فيه، لأنه يتيم ليس له أب يَطمعْن فى بِرّه.

حليمة

وكان من بينهن امرأة تسمى «حليمة بنت الحارث»، وكانت قد قَدِمت مع زوجها وطفل لها رضيع، فى حال تدل على شدة الفقر والجدب فى بادية بنى سعد.. كانت حليمة بادية الضعف والهزال، وكان زوجها ظاهر البؤس والفاقة، وكان طفلها لا يكف عن الصراخ لحظة، من شدة ما به من الجوع. وكانت قد قدِمت على أَتَان لها قَمْراءَ[1] مهزولة، لا تكاد تحملها قوائمها من الضعف؛ حتى لقد كانت حليمةُ وأتانها موضعَ

(١) أتان قمراء: حمارة بيضاء.

السخرية من زميلاتها فى الركب، لشدة ما كانت عليه من التعثر والرَّيْث[1] فى أثناء غُدوّهم إلى مكة. وكان زوجها قد قدم معها على ناقة ضامرة مُسنة، لا يَبِض ضرعها بقطرة من اللبن[2].

فلما حط الركب رحاله فى أرض مكة، ذهبت حليمة كما ذهب غيرها إلى آمنة. فلما علمت بأن طفلها يتيم لا أب له ولا مال، زَهِدت فيه كما زهدت صواحبها، وقالت كما قلن: وما عسى أن يصنع لنا جده وأمه؟

وحصلت كل مُرضع منهن على رضيع لها من أبناء السادة؛ إلا حليمة، فإنها رجعت من دونهن بغير طفل.. قال لها زوجها: ما بالك يا حليمة قد عدت من دون صاحباتك صِفْرَ اليدين؟ قالت: لقد كان حظى اليوم نَكِدًا؛ فما وجدت من الرضعاء سوى طفل يتيم قد مات أبوه، وليس له إلا جده وأمه، فزهدت فيه كما زهدت صواحبى، وقلت: وما عسى أن يصنع لنا جده وأمه، وحالنا كما تعلم فى هذه السنة الشديدة؟ لكننى والله مازلت مشفقة على هذا اليتيم مُذْ رأيتُه، ومازالت نفسى تراودنى أن أعود إليه فآخذه، حَدَبًا عليه وتعلقًا به، لا رغبة فيما يعود علينا بسببه من بر..!

---

(١) الريث: البطء.

(٢) ناقة مهزولة عجوز، جفت أثداؤها من اللبن.

قال لها زوجها : وما علينا إذا نحن أخذنا هذا اليتيم يا حليمة ؟ فَلأَنْ ترجعى ومعك هذا اليتيم، خير من أن ترجعى دون صواحبك فارغة اليدين. قالت حليمة : إنى والله به لَعالقة[1]، ولكنك تعلم شدة ما بنا من حاجة إلى المعونة والبر! قال زوجها : اذهبى إليه فخذيه، فلعل الله أن يجعل لنا فيه بركة.. !

النسمة المباركة

فذهبت حليمة إلى آمنة فأخذته منها. فما هو إلا أن وضعته فى حجرها وضمته إلى صدرها، حتى حَفَل ثدياها وأقبلا عليه بما شاء من لبن، فرضع حتى شبع؛ ثم أخذت وليدها الآخر فوضعته على ثديها، فرضع كذلك حتى شبع. وهكذا رضع الطفلان حتى امتلأا شِبَعًا ورِيًّا، وكانت حليمة من قبل لا تجد فى ثديها ما تسد به رمق وليدها المسكين.

وجلست حليمة تحكى لزوجها ما رأت، وهو يعجب لما تحدِّثه به ويقول : لعل الله قد عطف على رضيعك يا حليمة، فأطعمه ببركة هذا اليتيم الذى عطفت عليه.. !

وكان الجوع قد اشتد به وبزوجته، وأرهقهما العطش وشدة

(١) تعنى أنها شديدة التعلق به والرغبة فيه.

الحر؛ فقام إلى ناقته يعتصر منها رشفة لبن يتبلّغان بها، فما راعه إلا ضَرْع الناقة حافلًا ممتلئًا؛ فما هو إلا أن يمسه بيده حتى يَدُرّ منه اللبن درًّا غزيرًا، فيشرب وتشرب زوجه حليمة، حتى يكاد الرّيُّ يخرج من أظفارهما.

هنالك صاح الزوجان فرحًا واغتباطًا: لقد - والله - حصلنا على نَسمَة مباركة..! وأقبلا على الطفل يُشبِعانه ضمًّا وتقبيلًا.

وقامت حليمة إلى أتانها فركبتها، وقام زوجها إلى ناقته فركبها، واندفعا فى الطريق ليلحقا بالركب، وكان الركب قد خلفهما وأمعن فى السير إمعانًا شديدًا. وكان عجبًا من العجب أن هذه الأتان الهزيلة، التى كانت لا تكاد تخطو حتى تعثُر، ولا تكاد تنهض حتى تقع، قد انطلقت الآن فى طريقها كالسهم؛ فهى تطوى الأرض طيًّا، وتنهبها نهبًا، ومن ورائها الناقة العجفاء[1] تلاحقها ملاحقة شديدة، وتسوقها سوقًا عنيفًا.

فما هى إلا برهة يسيرة، حتى أدركت حليمة صواحبها فى الركب، وزاحمتهن بأتانها العرجاء حتى خلفتهن وراءها، وهن يتضاحكن منها ويقلن لها: ارفُقى بنا يا ابنة أبى ذُؤَيب! أهذه أتانك العرجاء التى كنت تركبينها فى الغدو؟.. فتضحك حليمة

---

(١) العجفاء: الهزيلة.

وتقول: إنها والله لهى.. ! فيقلن متعجبّات: لا والله، إن لها لشأنًا.. !

بركة فى كل شىء

وتقبل حليمة إلى بادية بنى سعد، وترى من بركة هذا اليتيم ما لم يكن يخطر لها ببال: خير يدُرّ عليها من كل ناحية، وبركات تَحِل عندها فى كل شىء.. هذه أغنامها تخرج إلى المراعى المجدبة مع أغنام غيرها من الحىّ فتعود غنمها حافلات الضروع ممتلئات البطون، وتعود أغنام سواها جياعًا ضامرات؛ حتى ليظن الناس أن غنم حليمة ترعى فى المكان الخصب، وأن أغنامهم ترعى فى المكان الجدْب؛ فيعودون على رُعيانهم باللوم والتقريع، يقولون: لم لا ترعون حيث ترعى غنم بنت أبى ذؤيب؟ فيقسم الرعيان أنهم لا يرعون إلا حيث ترعى غُنيمات حليمة.

وهكذا ظلت حليمة عامين كاملين، وهى فى كل يوم ترى عجبًا من بركة هذا اليتيم، حتى أتمت مدة رضاعه، وأصبحت ولا بد لها أن تعود به إلى أمه. فجاءت به إليها وهى أشد ما تكون رغبة فى بقائه معها.

فلما رأته آمنة سرّت به سرورًا عظيمًا، واغتبطت أيما اغتباط

حين رأته غلامًا جَفْرًا[1] قد زكا ونما، حتى لكأنه ابن أربع وهو لم يجاوز السنتين بعد. فبرّت حليمة وأرضتها، وشكرت لها ما رأت من عنايتها وإخلاصها.

قالت حليمة : لقد - والله - شَبّ غلامك شبابًا ما يَشِبّه الغلمان، وإنى لأخشى عليه وباء مكة؛ فهلا أذنت لنا أن نعود به مرة أخرى إلى البادية، حيث الهواء الصحو، والجو المنطلق، والفضاء الرحيب، حتى يتم تمامُه ويشتد عُوده؟ قالت آمنة : لا عليك أن تفعلى يا ظئْر[2]، فهو طفلى وطفلك حيث كان. . فشكرت لها حليمة، وعادت به إلى البادية، وهى لا تملك نفسها من الفرح والاغتباط.

---

(١) جفرًا : ناميًا رابيًا.

(٢) الظئر : المرضع. ومعنى العبارة أنها موافقة على أن تعود به حليمة إلى البادية.

البادية

العودة إلى البادية

رجعت حليمة برضيعها سعيدة مسرورة، ورجع رضيعها كذلك سعيدًا مسرورًا بعودته إلى البادية، فقد ألفت عيناه فضاءها الرحب، الذى لا تحده حدود ولا تقيده قيود، وألفت نفسه حياة البساطة، التى تلائم طبيعة الأطفال بمافيها من حرية وانطلاق. فما كادت ظئره حليمة تصل به إلى البادية، حتى انطلق فيها بملء حريته، يَدْرُج مع الأطفال حيث يدرجون، ويمرح حيث يمرحون، على رمالها السهلة، وبطاحها الواسعة، وأرضها المنبسطة.

وأرْخت له ظئره العنان كما ترخيه لأولادها، فكان يخرج معهم إلى المراعى حيث ترعى الأغنام، وأخته «الشّيماء» تحضُنه[1] وتراعيه؛ فتحمله أحيانًا إذا اشتد الحر وطال الطريق، وترسله أحيانًا فيدرُج وراء الخراف والنعاج يُحوشها بعصاه، وقدماه

(١) تحضنه: من الحضانة وهى رعاية الطفل والقيام بشئونه.

الصغيرتان تغوصان فى الرمال السهلة الكثيفة، فيكبو فوقها. ثم ينهض، ثم يكبو ثم ينهض.. حتى تدركه أخته الشيماء، فتأخذه بين ذراعيها، وتضمه إلى صدرها، وتطبع على خديه قبل الحنان الخالص، ثم تعود به إلى الظل، حيث يجلس الرعيان الصغار، فى فىء[1] شجرة من الأشجار القليلة، أو تل من التلال العالية، أو صخرة من الصخور البارزة، هاربين من حرارة الشمس القاسية ووطأتها الشديدة.

رعيان الغنم

هنالك يجلسون جميعًا، غارقين فى صنوف شتى من اللهو؛ يعملون أكوامًا من الرمال، أو يقيمون بيوتًا من الحجارة، أو يقومون بتمثيل بعض مظاهر الحياة فى البادية، فى بساطة لذيذة، وسذاجة بريئة، فلا يزالون كذلك حتى يُحسّوا ألم الجوع، فيصيحوا بإخوتهم وأخواتهم ليسعفوهم بالطعام. فسرعان ما يُقبل الرعيان الكبار إليهم، يحملون الطعام فى مناديلهم، فيفرشونها على الأرض، ويبسُطون عليها الطعام، ويستدير الجميع حولها حَلَقًا؛ ثم يقبلون على طعامهم هذا الخشن، فيلتهمونه التهامًا، فى شهية مفتوحة، ونفس راغبة، فإذا ما انتهوا من ذلك استلقَوا

(١) الفىء : الظل.

على الرمال، واستسلموا للنوم، فكان الرعيان الصغار أسرعَهم له استجابة، فما أسرع ما يُلقى بهم فى أحضانه، ويطير بهم فى جو من الأحلام السعيدة؛ فلا يزال ينتقل بهم من عالم إلى عالم، حتى يوقظهم مسُّ الشمس، أو صوت الكلاب الحارسة، وهى تنبح أحد القادمين من الغادين أو الرائحين.

حينذاك يَهُبُّ الرعيان سراعًا، يتفقدون أغنامهم، فيرون بعضها لا يزال راقدًا، وبعضها قد استدرجته طراوة المساء، فأخذ يسرح فيما حواليه، يلتقط ما عسى أن يجده من أعواد الحشيش والعشب، أو لحاء الشجر وفروعه وأوراقه. . حتى إذا امتدت الظلال، وهدأت وقدة الشمس، وهبت نَسَمات المساء عليه باردة، أخذوا عصيهم وصاحوا بأغنامهم فهبّت من مراقدها، فيجولون بها جولة أو جولتين، ثم يعودون بها مع الغروب إلى الحى، فيلقاهم أهله بالبشر والسرور إن كانت شباعًا، وباللوم والتقريع إن كانت جياعًا.

ليالى البادية

ويبُسط الليل رداءه على البادية، فيأوى كل إلى كِنّه[1]، ويجتمع ما تفرق من شمل القوم حول الطعام، فيتناولون عشاءهم

---

(١) الكن : المسكن.

من لبن الأغنام أحيانًا، ومن لحومها أحيانًا، قانعين فى أكثر الأحيان بلُقيمات من خبز الشعير، أو بشيء من حب الشعير الجاف يَسفُّونه سفًّا، ثم يُسيغونه بالماء فى قناعة ورضا.

فإذا ما انتهى العشاء، تحلق[1] الرجال حول النيران يسمُرون، وتجمع الأطفال يلعبون ألعابهم الساذجة، فى نور القمر الزاهى، أو فى ضوء النجوم اللامعة؛ فأحيانًا يمثلون غارة قوم على قوم، فتقوم بينهم معركة شديدة، ينتصر فيها فريق وينهزم فريق، وأحيانًا يمثلون هجمة الذئب على الغنم، يقومون فيها بدور الكلاب والرعيان فى مقاومة الذئب، حتى يفر الذئب هاربًا؛ وأحيانًا يتحلقون حول واحد منهم، أو حول واحد من قُصّاص الحى، يستمعون إلى حكاياته وأمثاله.

وهكذا تمر الأيام والليالى تِباعًا، والبادية على حالها تلك، لا يكاد يتغير من حالها شيء، إلا ما يكون من تغير الجو فى الفصول، من حر الصيف إلى برد الشتاء إلى اعتدال الربيع، وإلا ما يكون لذلك من أثر فى رجال البادية ونسائها من نشاط أو فتور.

أما الأطفال فهم فى شغل عن الحرب والبرد، بما هم فيه

(١) تحلق الرجال : استداروا.

من لهو وعبث، وما هُيِّئ لهم في فضاء البادية الرحيب من حرية وانطلاق. فهم أحرار طلقاءُ دائماً في الليل والنهار، والنوم واليقظة، والغدوّ والرواح، لا تُخضعهم لسلطانها تقاليد القبيلة ولا أحكام البادية ولا يَحُدّ من نشاطهم تحكم الآباء فيهم، ولا خوف الأمهات عليهم.

حرص حليمة على رضيعها

على أن حليمة كانت من دون النساء في هذه البادية، شديدة الرعاية لوليدها محمد، شديدة العناية به والخوف عليه؛ تخشى عليه الليل والنهار، وتخشى عليه الحر والبرد، وتخشى عليه الأحداث، وتخشى عليه كل شيء.. كانت تحبه حبًّا شديدًا، وكانت ترى من حاله أنه غلام ليس كالغلمان، وكانت ترى من ترجته ما يزيدها تعلقًا به وحرصًا عليه؛ وكانت تحس أن الناس جميعًا يحسدونها عليه، ويريدون أن يتخطفوه منها. لذلك كانت تلاحقه بعينيها حيثما كان، وتحوطه من رعايتها وعنايتها بأكثر مما تحوط به أولادها.

أفزعها الحر ذات يوم، فخرجت تطلبه في وقت الظهيرة والناس من حولها قائلون[1]. والبهم[2] والأغنام قد أوت إلى

(١) قائلون : مستريحون في وقت القيلولة.

(٢) البهم : صغار الغنم.

الظل، تستجير به من وهج الشمس، فوجدته مع أخته الشيماء مقبلاً على الحى؛ فجعلت تلوم ابنتها وتقول فى ألم وغيظ: فى هذا الحر يا شيماء..! فقالت أخته: لا تجزعى يا أمى، فوالله ما وجد أخى حرًّا.. لقد وجدت غمامة تُظله حيثما ذهب، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

حفظ الجميل

لقد ظل محمد يحفظ لها هذا الجميل دائماً؛ فما نسى يومًا أنها ظِئرهُ التى أرضعته من ثدييها، وغذته بلبنها، وأن لها عليه حقّ الأم على ولدها؛ بل لم ينس أن يحفظ هذا الجميل لقبيلتها بنى سعد بن بكر بن هوازن، فظل دائماً يذكر أنه نشأ فى باديتهم، وتربى بين ظهرانيهم[1]، وكان له منهم إخوة وأخوات، وآباء وأمهات، وأهل وعشيرة.

حضرت إليه حليمة ذات يوم وهو يتجر فى مال خديجة، فشكت إليه حالها وما تلاقيه من شدة العيش فى البادية، فكلم لها خديجة، فنحتها بعيرًا وأربعين شاة، وردتها مكرمة إلى أهلها.

واستأذنت عليه مرة أخرى وهو رسول الله ﷺ، فأذن لها..

(١) بين ظهرانيهم: بينهم.

فلما دخلت عليه قام لها متهللاً يقول: «أمى! أمى!» ثم بسط لها رداءه وأجلسها عليه، ثم جعل يلاطفها، فمس صدرها مسًا رفيقًا، وهو يبتسم لها ابتسامة الابن البار لأمه الحنون؛ كأنما يريد أن يُشعرها بأنه لن ينسى لهذا الصدر ما غمره به من حنان، وما أفاض عليه من بر. ثم سألها عن حاجتها فقضى لها ما أرادت.

ولما انتصر، صلى الله عليه وسلم، على المشركين فى غزوة حنين، وغَنِم كثيرًا من أموالهم، وسَبَى كثيرًا من نسائهم وذراريهم، أتى إليه وفد من قبيلة «هوازن»، يرجون أن يعفوَ عنهم، ويرد إليهم أموالهم وأولادهم ونساءهم. وكان فيهم عمه من الرضاعة، فاستشفعوا به إليه. فتقدم بين يديه يعلن خضوع القوم وإسلامهم، ويقول فيما يقول: «يا رسول الله، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفلُك من عماتك وخالاتك وحواضنك. وقد حضناك فى حجورنا، وأرضعناك بثدينا.. لقد رأيتك مرضعًا فما رأيت مرضعًا خيرًا منك، ورأيتك فَطيمًا فما رأيت فطيمًا خيرًا منك، ثم رأيتك شابًا فما رأيت شابًا خيرًا منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك.. فامنُن علينا، منّ الله عليك..!»

وكان النبى ﷺ قد جعل ينتظر قدومهم عليه حتى يئس من

قدومهم، فقسم بين المسلمين أموالهم وسباياهم؛ ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يردهم خائبين، لأنهم أسلفوا إليه الجميل فى صغره. فقال لهم: «لقد استأنيت بكم[1] حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبىَ وجرت فيه السهْمان، فما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس.. فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا: نستشفع برسول الله إلى المسلمين، ونستشفع بالمسلمين إلى رسول الله.. فإنى سأقول لكم: ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأطلب لكم إلى الناس».

فلما صلى الظهر الناس، قام وفد هوازن فقالوا كما علمهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرد عليهم ما كان له ولبنى عبد المطلب، وجعل يرغّب الناس ويترضّاهم حتى ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم. وضرب النبى بذلك أروع الأمثال فى حفظ الجميل لمن أولى الجميل.

---

(١) استأنيت: انتظرت وتمهلت.

شق الصدر

قلب حليمة

ظل محمد فى بادية بنى سعد حتى بلغ أربع سنين، يحيا حياة الأعراب فى البادية، ويتكلم لغتهم، ويلبس ملابسهم، ويشارك الأطفال فى جدهم ولعبهم، وغدوهم ورواحهم، يغدو فى الصباح مع إخوته حين يغدون بالغنم إلى مراعيها، ويروح معهم فى المساء حين يعودون بها إلى حظائرها. وكانت ظئره حليمة لا تفتأ توصى به إخوته كلما خرج معهم، وتحذرهم أن يتهاونوا فى رعايته وحفظه، أو يذهبوا به بعيدًا حتى ينقطعوا عن الحى.

كان قلب حليمة دائماً ممتلئًا بالخوف عليه، وكانت نفسها مفزّعة جازعة، فهى لا تكف أبدًا عن مراقبته، ولا تفتر عن السؤال عنه ساعة بعد ساعة، كأنما كانت تُحِس أن شيئًا سيحدث له كلما غاب عنها. ولو استطاعت حليمة أن تحبسه فى دارها مخافة الأحداث لفعلت، ولكنها لا تستطيع، لأن حياة

البادية لا تعرف القيود ولا الحدود؛ إنما هى حياة الحرية الواسعة والانطلاق الحر، تستمد طبيعتها من فضاء البادية الرحْب، وجوها المنطلق، وآفاقها الفسيحة.

الحادث الخطير

وكان ما خافت حليمة أن يكون؛ فبينما هى ذات يوم فى دارها مشغولة ببعض شأنها، إذ أقبل ولدها يَشتدّ[1] نحو الحى وهو يصيح: ذاك أخى القرشى قد قتل.. ! فخرجت حليمة تشتد ملهوفة، وهى تصيح بأعلى صوتها: «يا ضعيفاه.. ! يا وحيداه.. ! يا يتيماه.. ! استضعفوك فقتلوك.. !» حتى وصلت إليه، فوجدته قائمًا مُنتقَعًا لونه، فصاحت به: «يا بنى، ألا أراك حيًّا بعد.. !» وانكبت عليه تضمه إلى صدرها، وتغمره بحنانها، وهى لا تستطيع أن تمنع نفسها من البكاء.

الرسول ﷺ يصف الحادث

ويصف، صلى الله عليه وسلم، هذا الحادث لأصحابه فيقول: «... بينا أنا ذات يوم مُنْتَبِذ من أهلى فى بطن واد،

---

(١) يشتد: يجرى.

مع أتراب[1] لى من الصبيان، نتقاذف بيننا بالجِلَّة[2]، إذ أتانا رَهْطٌ[3] ثلاثة، معهم طَسْتٌ من ذهب مُلِئَ ثَلجًا، فأخذونى من بين أصحابى. فخرج أصحابى هُرَّابًا... مسرعين إلى الحى، يُؤذنونهم ويستصرخونهم[4] على القوم.

«فعَمَد أحدُهم فأضجعنى على الأرض إضجاعًا لطيفًا، ثم شق ما بين مَفْرِق صدرى إلى مُنتهى عانتى[5]، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مَسًّا؛ ثم أخرج أحشاء بطنى، ثم غسلها بذلك الثلج فأنْعَم غسلها، ثم أعادها مكانها.

«ثم قام الثانى منهم، فقال لصاحبه: تَنَحَّ. فنحاه عنى؛ ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى - وأنا أنظر إليه - فصَدَعه[6]، ثم أخرج منهُ مضْغة سوداء فرمى بها؛ ثم قال بيده[7] يُمْنَةً منه كأنه يتناول شيئًا، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يَحارُ الناظرون دونه، فختم به قلبى فامتلأ نورًا - وذلك نور النبوة والحكمة - ثم أعاده مكانه، فوجدت بَرْدَ ذلك الخاتم فى قلبى دَهرًا.

ثم قال الثالث لصاحبه: تنحَّ. فتنحى عنى؛ فأمرَّ يده

---

(1) أتراب: رفقاء.

(2) الجلة: البعر.

(3) رهط: جماعة.

(4) يخبرونهم يستنجدون بهم.

(5) العانة: ما تحت السرة.

(6) صدعه: شقه.

(7) قال بيده: أهوى بيده.

ما بين مفرِق صدرى إلى منتهى عانتى، فالتأم ذلك الشق بإذن الله. ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذى شق بطنى: زِنْه بعشرة من أمته. فوزنونى بهم فرَجحْتُهم[1]. ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنونى بهم فرجحْتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنونى بهم فرجحتهم. فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم...

قال: «ثم ضموى إلى صدورهم، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ، ثم قالوا: يا حَبيبُ، لا تُرَعْ[2].. إنك لو تدرى ما يُراد بك من الخير لقَرّت عيناك..!»

قال: «فبينا نحن كذلك إذا أنا بالحى قد جاءوا بحذافيرهم، وإذا أمى - وهى ظئرى - أمام الحى، تهتف بأعلى صوتها وتقول: يا ضعيفاه...! فانكبوا علىّ فقبلوا رأسى وما بين عينى، وقالوا: حبذا أنت من ضعيف..! ثم قالت ظئرى: يا وحيداه..! فانكبّوا على فضموى إلى صدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عينى، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد..! ما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنون من أهل الأرض..! ثم قالت ظئرى: يا يتيماه استُضْعِفت من بين

(١) رجحتهم: زدت عليهم.

(٢) لا ترع: لا تخف.

أصحابك فقتلت لضعفك.. ! فانكبوّا عليّ فضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا : حبذا أنت من يتيم.. ! ما أكرمك على ! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير.. ! فوصلوا بي إلى شَفير الوادي..

«فلما بَصُرت بي أمي - وهي ظئري - قالت : يا بني، ألا أراك حيًّا بعد.. ! فجاءت حتى انكبت على وضمتني إلى صدرها. فوالذي نفسي بيده، إني لفي حجرها وقد ضمتني إليها، وإن يدي في يد بعضهم. فجعلت أتلفت إليهم، وظننت أن القوم يبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم.

«يقول بعض القوم : إن الغلام قد أصابه لَمَمٌ[1] أو طائف من الجن، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه. فقلت : يا هذا، ما بي شيء مما تذكر؛ إن إرادتي سليمة وفؤادي صحيح، ليس بي قَلَبَة[2].. فقال أبي من الرضاع : ألا ترون كلامه كلامٌ صحيح؟ إني لأرجو ألا يكون بابني بأس.. !

«فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن؛ فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه. فلما قصوا عليه قصتي قال : اسكتوا حتى أسمع من

---

(١) لممٌ : جنون.

(٢) قلبة : علة.

الغلام، فإنه أعلم بأمره منكم. فسألنى فاقتصصت عليه أمرى ما بين أوله وآخره. فلما سمع قولى وثب إلىّ وضمنى إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه؛ فواللات والعزى لئن تركتموه فأدرك، ليذِلُنَّ دينكم، وليُسَفّهنَّ عقولكم وعقولَ آبائكم، وليخالفن أمركم، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط!

«فانتزعتنى ظئرى من حجره، وقالت: لأنت أعْتَهُ وأجَنُّ من ابنى هذا، فاطلب لنفسك من يقتلك فإنا غير قاتليه.. ! ثم احتملونى فردونى إلى أهلى. فأصبحت مُفَزَّعًا مما فعل بى، وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشراك[1]».

مخاوف حليمة

كانت هذه الحادثة حدًّا فاصلا بين رسول الله ﷺ والبادية، فقد أصبحت ظئره حليمة منذ ذلك اليوم واجفة القلب هالعة الفؤاد، لا تطمئن على فطيمها لحظة، ولا تدرى كيف يتسنى لها أن تحافظ عليه بعد ذلك، وقد رأت بعينيها ما رأت، وسمعت بأذنيها ما سمعت. وزادها فزعًا وهلعًا قول ذلك الكاهن المجنون

(١) الشراك: السير من الجلد.

الذى كاد يفتك به، لولا أنها استطاعت أن تخلصه من يديه، وتنجو به هاربة إنها لا تأمن أن يعود إليه جنونه، فيفتك بالغلام حين يظفر به فى أية فرصة؛ وإنها لتخشى عليه كذلك هؤلاء الرجال الأجانب، الذين انقضّوا عليه فى الوادى فكادوا يقتلونه.. إنها لا تدرى من أمرهم شيئاً، ولا تدرى لم اختاروه هو من دون أصحابه! هل استضعفوه لأنه يتيم ليس له أب يحميه؟ أو كانوا يريدون أن يخطفوه ليبيعوه، فأحيط بهم فاستعصى عليهم؟ أو هم لصوص فتاكون سفاكون، لاهمّ لهم إلا إراقة الدماء وقتل الأنفس؟.. إن أخشى ما تخشاه أن يكونوا طلاب ثأر عند بنى عبد المطلب، فجاءوا إلى هذا الغلام يأخذونه بثأرهم، ويفجعون فيه أهله وعشيرته، وإنها لا تأمن أن يعودوا إليه مرة أخرى، فيقتلوه أو يخطفوه.

وهكذا ظلت حليمة نهبًا للهواجس والظنون، حتى أصبحت المخاوف تتراءى لها فى كل ناحية، وتتمثل لها فى كل شىء. فجعلت هى وزوجها ينظران ويتدبران الأمر فى شأن هذا الصبى... قال زوجها: إنى لأخشى أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فانطلق بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف.

قالت حليمة: فاحتملناه فلم تُرَع أمه إلا به.. فقدمنا به عليها، فقالت: ما رَدَّكما به يا ظئر وقد كنتما عليه حريصين؟

فقلنا : لا والله . . . إلا أن الله قد أدّى عنا وقضينا الذى علينا، وقلنا - نخشى الإتلاف والأحداث - نرده إلى أهله. فقالت : ما ذاك بكما[1] فاصدقانى شأنكما . . فلم تدَعْنا حتى أخبرناها خبره.

قالت : «أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل! والله إنه لكائن لابنى هذا شأن. ألا أخبركما خبره؟ قلنا : بلى. قالت : حَملت به فما حملت حملا قطُّ أخفَّ منه، فأريت فى النوم حين حَملت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام. ثم وقع حين ولدته وقوعًا ما يقعُه المولود، معتمِدًا على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء . . فدعاه عنكما».

(١) أى : ليس هذا هو السبب الذى دفعكما إلى رده.

وفاة آمنة

وحشة الغريب

عاد محمد إلى مكة، فعاد إلى الأرض التى نبتت فيها أصوله، وتعمقت فيها جذوره، وتفرعت فيها بطانته وأهله. فكان حَريًّا أن تَقَرَّ بذلك عينُه، وتتفتح له نفسه؛ ولكنه ظل فترة من الزمن يشعر بالنفور من ذلك الجو الجديد ويعيش فيه عيشة المستوحش الغريب.

نعم، كان كل شىء جديدًا عليه فى ذلك الجو، إذ لم يكن قد أَلِف غير مناظر البادية، فى امتداد أطرافها، وسعة آفاقها، وانبساط أراضيها؛ وفى صمتها البالغ، وهدوئها الشامل، وسكونها الدائم؛ وفى هذا العدد القليل من سكانها الذين يعرفهم ويعرفونه، ويألفهم ويألفونه؛ وفى هذه المساكن الساذَجة، التى يتخذونها من الخيام تارة ومن أكنان الجبال تارة، يأوون إليها إذا آذاهم البرد أو أرهقهم الحر...

أما هذه القصور الشاهقة، وهذه الأبنية المتلاصقة؛ وأما

هذه الجموع المتراكمة، وهذه الأنفس المتزاحمة؛ وأما هذه الحدود وهذه القيود، فشيء جديد عليه، لم تألفه نفسه الحرة، ولم يستَسِغْه فؤاده المنطلق؛ فكان من الطبيعى أن يستشعر الوحشة فى هذا الجو الغريب، وألا يأنس إليه ويمتزج به إلا بعد لأى[1].

من أجل ذلك ظل فترة طويلة وهو يعيش بخياله فى جو البادية، يحن إلى حياتها السهلة ومعيشتها الساذَجة، ويستشعر الحنان والحب فى عطف ظئره حليمة، ورعاية أخته الشيماء، ولا يتخيل الأنس والسعادة إلا فى زمالة أتراب[2] البادية، ولا المرح واللذة إلا فى اللعب معهم والحديث إليهم.

ولكن، أين هو الآن؟ إنه بين أهله وذويه، وفصيلته التى تؤويه... فى حضن أمه الحبيبة، حيث الحنانُ الطبيعى الذى لا يماثله حنان، وحيث الحب الخالص الذى ينبعث فياضًا بلا حساب؛ وفى رعاية أهله وعشيرته، من الآباء والأمهات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات.. هو إذَنْ فى مكانه الطبيعى الذى لا ينبغى أن يكون إلا فيه.

---

(١) بعد مشقة ووقت.

(٢) الأتراب: الزملاء فى السن.

الامتزاج بالوطن

وقد أحاطته هذه العشيرة بالعطف والرعاية، وغمرته من جميع نواحيه بالحنان البالغ، فملأت كل ما كان يحسه من فراغ، وآنسته كل ما كان يجده من وحشة، فما أسرع ما استجاب لها واندمج فيها، وما أسرع ما استبدل أهلا بأهل وأحبابًا بأحباب. وبسطت عليه حياة مكة سلطانها، فصار مَكيًّا كأهل مكة، وتبينت له فيها معالم لم يكن يراها، فظل يعرفها واحدة بعد واحدة حتى عرفها جميعًا.

هذه هى الكعبة، بيت الله الحرام، الذى يحج إليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها.. وهذه هى دار الندوة، مُجتمَع قريش ومُنتداها، ومَعْقِد أفراحها وأتراحها وقضاياها.. وهذه رحلة الشتاء إلى الجنوب، وهذه رحلة الصيف إلى الشمال، تذهب فيها العير محملة بحاصلات الحجاز، وتعود محملة بحاصلات الشام والعراق واليمن وبلاد الحبش، فتحتفل لها قريش أيما احتفال... وهذه وفود الحاجّ تأتى إلى مكة فى موسم الحج، فتمتلئ بها الدور والقصور، وتغَصّ بها الطرق والرحاب، وتعمر الأسواق بالسلع والبضائع، وتنشط حركة البيع والشراء، والأخذ والعطاء.. وهذه، وهذه، وهذه... من مظاهر الحياة فى مكة،

مازال يعرفها ويألفها حتى امتزجت بها نفسه، واصطبغت بها حياته.

إلا الأصنام

لكن شيئًا واحدًا لم تألفه نفسه، ولم يستطع أن يمتزج به أو يأنس إليه.. هو هذه الأحجار التى يعظّمها أهل مكة، والتى يسمّونها آلهة يعبدونها ويقدسونها، ويقرّبون لها القرابين، وينحرون لها الذبائح، ويلجأون إليها فيا جلّ وهان من شئونهم... لقد نفرت نفسه منها نفورًا شديدًا، فلم يشارك القوم فى تعظيمها ولا فى عبادتها، ولم يتقدم لها يومًا من الأيام راغبًا ولا راهبًا.

وأخذ عقله الصغير يتفتح فيعجب من فعل هؤلاء القوم، ويسأل: كيف استساغوا لأنفسهم أن يستسلموا لهذه الحجارة وهم يصنعونها بأيديهم..! أهى التى تطعمهم إذا جاعوا، وتسقيهم إذا عطشوا، وتشفيهم إذا مرضوا؟.. أهى التى ترزقهم ما يُنعمون به من طيبات الرزق، وتكفيهم ما يحل بهم من مصائب الدهر؟.. إن هى إلا حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تعى، ولا تملك من أمرها نفعًا ولا ضرًّا. ولكن القوم يستسلمون لها، ويتأثرون بها تأثرًا شديدًا.

وأصر على ألا يشارك القوم فيما يفعلون لهذه الأحجار فهجر الأصنام وقَلاها[1]، وخاصمها ونفر منها. ولم تكن سِنُّه بحيث تَلفت إليه أنظار القوم، فظنوه طفلا لم يبلغ بعد سن الإدراك والفهم.

محمد يزور يثرب

وحين بلغ السادسة من عمره، ذهبت به أمه إلى يثرب، ليزور أخواله بنى عَدِىّ بن النجار؛ وصَحِبته فى هذه الرحلة حاضنته أم أيمن، وهى «بَركة» الحبشية، جارية أبيه التى خلّفها له مع ما خلف من ميراث قليل.

فلما نزل على أخواله أحسنوا وفادته وأكرموا مثواه، فأقام عندهم شهرًا، جاب فيه رحاب المدينة، ورأى كثيرًا من معالمها، وخالط كثيرًا من أطفالها وأنِس إليهم وأنسوا إليه. ولا شك أنه وجد فى أطفال المدينة هذه الرقة التى امتاز بها أهلها، فامتزجت نفسه بنفوسهم، وتوثقت بينه وبينهم صلات الإخاء والحب.

وانطبعت فى ذهنه صورة حية للمدينة، ببساتينها وحدائقها، ونخيلها ومزارعها، وينابيعها الجارية، وآطامها[2] العالية، ومياهها

(١) قلاها : كرهها.

(٢) آطامها : قصورها. والواحد أطم.

العذبة، فلم يَنسها قط. وظلت هذه الصورة الجميلة مطبوعة فى نفسه، حتى هاجر إليها وهو رسول الله؛ فكان يذكر لأصحابه كثيرًا من معالمها، ويذكر معها كثيرًا من أحداث الطفولة وذكرياتها، ومن أترابه الذين خالطهم وأنس إليهم فى ذلك العهد البعيد.

نظر إلى أُطمُ بنى عدِىّ بن النجار فعرفه، وقال: «كنت ألاعب أنيسة - جارية من الأنصار - على هذا الأطم؛ وكنت مع غلمان من أخوالى نطير طائرًا يقع عليه»... ونظر إلى الدار التى نزل فيها، وهى دار النابغة، فقال: «هاهنا نزلت بى أمى.. وفى هذه الدار قبر أبى، عبد الله بن عبد المطلب. وأحسنتُ العَوم فى بئر بنى عدى بن النجار».

وفى هذه الرحلة رأى محمد قبر أبيه. ولا شك أنه بكى حين رأى أمه تبكى عند هذا القبر. ولعل هذه أول مرة أحس فيها لَذْع الحزن فى فؤاده؛ ولعلها كذلك أول مرة عرف فيها معنى اليتم، حين رأى نساء بنى عدى يُواسينَ أمه ويُعزينها فى فَقد عبد الله، وعيونهن تذرف الدمع، وأصواتهن يخنقها الكباء؛ وحين رأى الرجال يُخصُّونه بمزيد من العطف والرحمة.

إنها مظاهر تلفت الذهن الذكى وتدفعه إلى التساؤل. وما أكثر تساؤل الأطفال فى مثل هذه الحالات، وما أرهفَ

إحساسهم وأرق عواطفهم... ! وما أسرعَ إدراكهم للحقائق حين يحاول الكبار أن يُموّهوها عليهم، ظنًّا أنهم لا يدركون.. ! ثم ما أكثر ما يتبرع الأطفال بعضهم لبعض، بكشف ما خفى من هذه الأسرار، وما استتر من هذه الأخبار.. !

الحادث الأليم

ثم رجعت به أمه عائدةً إلى مكة. فلما قطعت به من الطريق نحو مرحلة، فاجأها الموت عند قرية « الأبواء »، فدفنت هنالك.. ! ورجع محمد وحيدًا، تفيض عيناه بالدمع، ويمتلئ قلبه بالأسى والحسرة.. !

لا شك أن هذا الحادث لم يمر به مرًّا خاطفًا، بل ترك فى نفسه أعمق الأثر وأقواه. نعم إنه كان لا يزال طفلا، ولكنها هى أمه.. أمه الحبيبة التى لم يكن له سواها بعد فقد أبيه، والتى كانت له منبع الرحمة والحنان والحب، والتى كان يجد فى ظلها برد الراحة والسكينة، والتى كان يستطيع أن يَبُثّها شكواه، مما يُلم به من ألم أو يناله من هم.. ! لقد كان طفلا مُرْهَف الإحساس، جيّاش العواطف، تغنيه اللمحة عن النظرة، وتغنيه النظرة عن الإشارة، وتغنيه الإشارة عن الكلمة، ويدرك من

بعيد ما لا يدرك غيره من قريب.. فكان قلب أمه وحده، هو الذى يستطيع أن يتجاوب مع إحساسه المرهف. وذكائه اللماح.

إن هذه الحادثة لم تذهب من خياله قط، وكان لها فى نفسه أبعد الأثر وأبقاه، فظل ذكرها حيًّا فى فؤاده، وكان وهو رسول الله يذكرها، فتفيض نفسه بالرحمة والحنان، وتأخذه الرقة لها فيرجو أن يشملها الله برحمته، ويسأله المغفرة لها جزاء ما قدمت له من بر، وما أفاضت عليه من حنان؛ ولكن ﴿الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَك به، ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء﴾[1]؛ فيأسى لذلك رسول الله، ويبكى حتى يُبكى أصحابه.

عن عبد الله بن مسعود قال: «خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينظر فى المقابر، وخرجنا معه؛ فأمرَنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فناجاه طويلا؛ ثم ارتفع نَحِيبُ رسول الله ﷺ باكيًا، فبكينا لبكاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا، فتلقاه عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، ما الذى أبكاك؟ لقد أبكانا وأفزَعَنا.. فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائى؟» قلنا:

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨.

نعم. قال: «إن القبر الذى رأيتمونى أناجى، قبرُ آمنةَ بنتِ وهب، وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذِن لى؛ واستأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه.. فأخذنى ما يأخذ الولدَ للوالدة من الرقة؛ فذلك الذى أبكانى!».

يتيم عبد المطلب

رعاية اليتيم

رجع محمد من رحلته إلى يثربَ يتيمَ الأبوين، قد فَقد أمه كما فقد أباه، ولم يكن قد جاوز السادسة بعد، ولم يكن له مال موروث يستطيع أن يعيش منه؛ فكل ما تركه له أبوه خمسةُ جمال، وقطعةٌ صغيرة من الغنم، وجاريته أم أيمن؛ تلك الفتاة الحبشية التي كانت تسمى «بركة»، والتي لم تكن قد تزوجت بعدُ ولا أنجبت ولدها أيمن.

ولكن الله عطف عليه قلبَ هذه الجارية، فحضنته[1] ورعته، وكانت له أمًّا مكان أمه؛ وقلبَ جده الشيخ عبد المطلب، فحبه وأحاطه، وكان له أبًا مكان أبيه. ونزل محمد من هذين القلبين الكريمين منزلة البُنُوَّة الحقة، يجد لديهما من الإعزاز والإكرام، ومن الرعاية والعناية، ومن الإيثار والحب، فوق ما يجده الأبناء من آبائهم وأمهاتهم.

(١) حضنته : قامت بتربيته وخدمته.

كان عبد المطلب سيد قريش، وكان لقريش تقاليدها فى تربية أبنائها، وأخذهم منذ الطفولة باحترام الآباء وهيبتهم، والوقوف معهم على حدود الأدب والوقار؛ فلم يكن الولد يستطيع أن يجالس أباه إلا حين يبلغ سن الرجولة، وكانت مجالس الآباء خالصة لهم، لا يغشاها الأبناء ما داموا صغارًا، فإذا بلغوا مبلغ الرجال جاز لهم أن يخالطوا الآباء، وأن يشاركوهم فى مجالسهم وأحاديثهم؛ لكن مع الأدب والوقار الكامل والاحتشام الذى لا يجعل لولد رأيًا فوق رأى أبيه، ولا حكمًا بعد حكمه. وكان هذا أدبًا سائدًا فى قريش، وتقليدًا يشِبُّ عليه الصغار منذ يدركون ويَعقلون.

وكان من عادة عبد المطلب بن هاشم أن يتخذ له مجلسا بجوار الكعبة، يتحدث فيه إلى رجال قريش ويتحدثون إليه، فكان يُفرَش له فراش فى ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا له؛ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يأتى وهو غلام جَفْر[1]، حتى يجلس على فراش جده، فيأتى أعمامه ليؤخروه عنه، فكان عبد المطلب يمنعهم إذا رآهم، ويقول: «دعوا

(١) غلام جفر: ظاهر الصحة والنمو.

ابنى، إنه ليُؤْنس ملكا.. ! ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يفعل.

وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخله عليه إذا خلا وإذا نام، ويرق له رقةً لم يرقّها لولده؛ وكان لا يأكل طعامًا إلا قال: علىّ بابنى.. ! فيؤتَى به إليه.

قلب عبد المطلب

وكان ينظر نحوه بعاطفتين: عاطفة الأبوة المشبوبة، التى كانت تملأ قلبه حبًّا، وتملأ نفسه حنانًا ورقة؛ فهو ابن ولده عبد الله، أحب أبنائه إليه وآثرهم عنده، والذى كان موته ضربة قاصمة هَوَتْ عليه فآدَتْه[1]، وتركت فى قلبه جُرحًا غائرًا عميقًا. فما هو أن وُلد له محمد، حتى وجد فيه صورة ابنه عبد الله، فأفرغ عليه كل ما فى قلبه من حب وحنان، حتى لم يكن يسميه إلا ابنه.

وكان مع هذه العاطفة عاطفة أخرى تزيد من فعلها وتذكيها، هى عاطفة الإعجاب والزّهو بما كان يبدو عليه، صلى الله عليه وسلم، من آيات العناية الربانية؛ فقد كان كل شىء فيه يدل على أنه طفل لا كالأطفال، وأنه كائن له فى مستقبله

---

(١) آدته: أرهقته وحملته فوق ما يطيق من الألم.

شأن أيّ شأن. وقد أحس عبد المطلب هذا وتنبأ به من أول يوم ولد فيه محمد، فما كان يتحدث عنه قطّ إلا بصيغة الإعزاز والإعجاب، والثقة بالمستقبل العظيم الذى ينتظره.

سمو الطفولة

وتُجمع الروايات التاريخية على أن عبد المطلب كان حَفيًّا[1] بابنه محمد، وأنه كان يُوليه من العناية والرعاية مالا يوليه أبناءه الذين من صُلبه، وكان يتفقده ويلاحظه فى كل أحواله. وكأنما كان يحس أن الأجل مقصر به عن بلوغ ما يرجوه من رعاية هذا الغلام المُعْجِب، فكان لا يترك فرصة تمر حتى يُوصِي به كل مَن يثق به من أهله.

ومما كان يزيد عبد المطلب تعلقًا به وحرصًا عليه، ما كان يراه من إعجاب الناس به، وبما كان يبدو عليه من آيات السموّ؛ فقد كان، صلى الله عليه وسلم، مثلاً يلفت الأنظار فى كمال أدبه، وفى سمو خلقه، وفى عُزوف نفسه عن اللهو الباطل، وفى تنزهه عن التدنّى فيما يتدنّى إليه الأطفال، من التهافت على الطعام والشراب، أو التطلع إلى ما يجلبه الآباء والأمهات.. لقد كان فى كل ذلك مثلا يلفت الأنظار، ويدعو إلى الاهتمام بشأن

(١) حفيا: بادى الاهتمام به

هذا الطفل الذى يسمو علىٰ الطفولة، ويتعالى على نوازعها ومُقتضَياتها عُلوًّا كبيرًا.

نعم، كان فى ذلك موضع العجب والاهتمام من كل من يراه؛ فما كان محمد إلا طفلا يتيما، قد نشأ فى قوم غلبت عليهم الجهالة، وفشا فيهم الشرك، وأسرفوا على أنفسهم فى المتع والملاذ، ﴿وقالوا: ما هى إلا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونحيا، وما يُهلِكُنا إلا الدَّهر﴾[1].. فكان من الطبيعى أن ينشأ كما ينشأ الطفل المهمَل، بعد أن فَقد الأب الذى يُعنى بتأديبه وتهذيبه، والأم التى تُعنى بتعليمه وتدريبه.

ولكن الله، تعالت حكمته، أراد له هذا اليتم المبكر، ليكون هو الذى يحوطه بعنايته ويكلؤه بعينه، ويكمله بما يرضى له من الأخلاق والآداب؛ وليُسْبِغ عليه من آيات فضله ما يجعله آية للناس، ونموذجًا حيًّا للبشر الكامل، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه، وصنعه فأتقن صنعه، وأعدّه لما أراد به من الكرامة؛ و﴿الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته﴾[2].

* * *

(1) سورة الجاثية الآية ٢٤.
(2) سورة الأنعام الآية ١٢٤.

كان أمر هذا اليتيم موضع العجب حقًّا، وكان محطّ الأنظار من كل من رآه؛ فكان ذلك مما زاد جدّه الشيخ تعلقًا به وحياطة له، واهتمامًا بشأنه.

قال قوم من بنى مُدْلج لعبدالمطلب: احتفظ به، فإنا لم نر قدَمًا أشبه بالقدم التى فى المقام منه. فقال عبدالمطلب لأبى طالب: اسمع ما يقول هؤلاء.. فكان عبدالمطلب يحتفظ به، ويحرص أشد الحرص على أن يكون هو الذى يرعاه ويحوطه.

ومعنى هذا: أن هؤلاء القوم حين رأوا رسول الله ﷺ وهو لا يزال غلامًا حَدَثًا، لفت أنظارَهم ما رأوا فيه من الآيات، وأدهشهم ما يجدون من حاله، وما يروْن من عجائب صنع الله فيه؛ فأخذوا يتأملونه ويفحصونه، فرأوا أن قدمه أشبه شىء بقدم جده الأعلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والعرب كانوا ولا يزالون من أقدر الأمم على معرفة الأقدام وقيافة الأثر[1].

وكلما كانت هذه الظواهر والآيات تزيد عبد المطلب تعلقًا بيتيمه، كانت تزيده كذلك خوفًا عليه، فكان لا يَغْفُل عنه لحظة، ولا يَفْتَأ يتفقده كلما غاب عنه، ولا يهدأ له بال ولا يطمئن له قلب حتى يكون بجانبه.

---

(١) القيافة: تتبع الأثر وملاحظته والاهتداء به.

قال عبدالمطلب لأم أيمن : يا بَركة، لا تغفُلى عن ابنى، فإنى وجدته مع غلمان قريبًا من السِّدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبيُّ هذه الأمة.

ويقول الرواة : إن حليمة قدمت به مكة وهو ابن خمس سنوات، فأضلَّها[1] فى الناس، فالتمسته فلم تجده؛ فأتت عبدالمطلب فأخبرته، فالتمسه عبدالمطلب فلم يجده، فقام عند الكعبة يدعو ويقول :

لا هُمَّ، أدِّ راكبى محمدا أدِّهْ إلىّ واصطَنِعْ عندى يَدا[2]
أنت الذى جعلته لى عَضُدا أنت الذى سميته محمدا

ولعل هذه الحادثة قد حدثت فى موسم الحج، حين تزدحم مكةُ بالناس، ويصعب السير فى مسالكها على الصغير والكبير. وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح، فهى دليل على مبلغ المكانة التى كانت لمحمد فى قلب جده عبدالمطلب.

تبادل العواطف

وكان من الطبيعى أن يبادله محمد هذه العاطفة، وأن يحبه أكثر مما يحب أحدًا من أهله. فما أسرع انجذاب الطفل إلى من

(١) أضلها : تاه منها.

(٢) اللهم تفضل على برد ولدى محمد إلى.

يحنو عليه، وما أشد تعلقه به واندفاعه إليه.

ولما مات عبدالمطلب بن هاشم، أحس محمد ألم الفاجعة. وأدرك عظم المصيبة، وعرف أنه فقد القلب الكبير الذى يحنو عليه، وعدِم الركن الشديد الذى يأوى إليه؛ فجعل يبكيه بكاء الحزين الحائر، الذى لا يدرى متى يَقَرُّ قرارُه، ولا ماذا يكون مصيرهُ.

قالت أم أيمن: «رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير عبدالمطلب» وسُئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أتذكر موت عبدالمطلب؟ قال: «نعم، أنا يومئذ ابن ثمانى سنين».

فى كفالة أبى طالب

اختيار أبى طالب

لم يشأ عبد المطلب أن يترك شأن يتيمه هَمَلًا بعد موته، وهو العزيز الأثيرُ عنده؛ فما هو إلا أن أحس دُنُوَّ أجله حتى أرسل إلى ولده أبى طالب، فأوصاه بأن يضم محمدًا إليه ويجعله فى كفالته. ولابد أنه شدد على أبى طالب فى هذه الوصية، وكرر عليه القول بأن يرعاه حق الرعاية، وأن يُوليه من عنايته ما يوليه أولاده؛ فهو ابن أخيه وشقيقهِ عبدالله بن عبدالمطلب، وهو فوق ذلك جوهرة نفيسة يجب الحرص عليها والعناية بها، حتى تبلغ الشأو الذى قدره الله لها.

ولم يكن أبوطالب يجهل من أمر محمد شيئًا، ولا كان فى حاجة إلى أن يوصيه به أحد؛ فقد كان يشهد من آيات الله فيه ما كان يشهده أبوه عبد المطلب، وكان يحس من شأن مستقبله العظيم ما كان يحسه كل من يطلع على شئونه وأحواله. فما هو إلا أن دعاه عبد المطلب إلى كفالته، حتى استجاب

راضيَ النفس قريرَ العين، على رغم ما كان عليه من قلة المال وكثرة العيال.

ولسنا ندرى لِمَ اختار عبد المطلب أبا طالب من دون أبنائه، ليكون هو الذى يلى أمر يتيمه من بعده، مع أنه كان يعلم ما عليه أبو طالب من كثرة الوَلد وضيق ذات اليد.. ألأنه كان شقيق عبد الله، فهو أقرب إخوته رَحِما إلى ابن أخيه وأقواهم به صلة؟ أم لما كان يرى فيه من عواطف الرحمة والحنان، ودوافع النخوة والمروءة؟ أم لهذا وذاك وغير هذا وذاك من الأمر؟

لقد كان لعبد المطلب عِدَّةٌ من الولَد، كلهم إخوة لعبد الله، وكلهم أعمام لرسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وكان فيهم من هو أكثر مالا وأقل عيالا من أبى طالب، ومن هو أوسع منه سَعَةً وأرحب مكانًا ومن هو أقدرُ أن يكون هو الكفيل إذا كان الغنى بالمال هو كل شىء.. ولكن عبد المطلب - فيما يبدو - كان يرمى إلى هدف بعيد؛ فلعله كان يرمى إلى أن تكون اليد التى تحوط محمدًا هى أقوى يد وأحناها[1]، وأن يكون القلب الذى يرعاه هو أشجع قلب وأرحمه، فلم يكن يَعْنيه فى ذلك

(١) أحناها: أكثرها حنوًا.

الأمر كثرة المال ولا قلته، فما المال إلا عَرَض[1] يأتى ويزول، وعارية تذهب وتجىء، إنما كان يعنيه أن يجد القوىَّ الأمين من أهله، ليكلَ إليه أمر ذلك اليتيم الذى ملك عليه قلبه، والذى كان يتمنى لو امتد به الأجل فظل يرعاه ويصونه، حتى يبلغ به الشأو العظيم الذى ينتظره.

الركن الأمين

كان أبو طالب هو الركن الأمين الذى آثر عبد المطلب أن يُؤْوِىَ إليه يتيمه، وكان هو من دون إخوته جميعًا موضع الطمأنينة والثقة من نفسه؛ فأسلم إليه أمر محمد، ومات وهو مطمئن القلب إلى أنه قد أسلمه إلى اليد الحانية الأمينة، وإلى القلب الرءوف الرحيم.

وكذلك برهن أبو طالب على أنه كان عند حسن الظن به، وأنه كان أهلا لهذه الثقة التى أولاه إياها أبوه عبد المطلب. فما هو إلا أن ضم إليه محمدًا حتى أقبل عليه يغمره بعطفه ورعايته، ويخلطه بنفسه وأهله، وأنزله بين بنيه منزلة الإكرام والإيثار، وبسط عليه حمايته منذ كان صبيًا، حتى صار شابًا، ثم

(١) العرض: شىء لادوام له ولايبقى على حال.

صار رجلا، ثم صار زوجًا له زوجة وبنون.. وحين أكرمه الله برسالته، وعاداه من عاداه من أهله وقومه، وقف أبو طالب دونه يحول بينه وبين أعدائه، فلم يستطع أحد أن يناله بسوء؛ ولقى أبو طالب فى سبيل ذلك ما لاقى من معاداة قومه، ومن عَنَتهم[1] واضطهادهم، ولكنه صبر على كل ذلك صبر الكرام، ولم يشأ أن يُسلم ابن أخيه أو يتخلى عنه لحظة.

وجعل أبو طالب يحفظ رسول الله ويحوطه، ويَعْضُده[2] وينصره إلى أن مات. فلما مات بكى عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحزن لموته أشد الحزن، وجعل يستغفر الله له جزاء ما شمله به من بر، وما أحاط به دعوته من حماية. ومازال يستغفر له ويرجو له رحمة الله، حتى نُهِىَ عن ذلك.

عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: «أخبرت رسول الله، ﷺ، بموت أبى طالب، فبكى وقال: «اذهب فاغسله وكفنه ووَارِه[3]. غفر الله له ورحمه!».. قال على: ففعلت ما قال، وجعل رسول الله يستغفر له أيامًا، ولا يخرج من بيته، حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿ما كان

(1) العنت: مايلاقيه الإنسان من المشقة.

(2) يعضده: يسنده ويعينه.

(3) واره: ادفنه.

للنبيِّ والذين آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكين، ولو كانوا أولى قُرْبى، مِنْ بَعد مَا تَبيَّن لَهُمْ أنَّهم أصحابُ الجحيم﴾[1]».

وكم تمنى رسول الله لو أن الله هدى عمه أبا طالب إلى الإسلام وشرح به صدره، وأدخله فى رحمته الواسعة التى كتبها لعباده المؤمنين، الذين آمنوا برسوله وعزَّرُوه[2] ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه. وكم ألح عليه رسول الله ﷺ فى ذلك، وكم حاول - حتى وهو فى نزع الموت - أن يظفر منه بكلمة الشهادة ولكن الله لم يشأ أن يَهديَه إلى الإسلام، لحكمة يعلمها وأمر يدبِّره..

ويقول أهل العلم بالتأويل[3] : إن الله أنزل على رسوله ﷺ فى شأن أبى طالب قوله تعالى : ﴿إنك لا تَهدِى مَنْ أحْبَبْتَ وَلكنَّ الله يَهدِى مَنْ يَشَاء، وهم أعْلَمُ بالمهتدين﴾[4]، لما رأى من همه به، وشدة حرصه على هدايته وإسلامه.

* * *

وليس عجبًا أن يهتم رسول الله ﷺ بإسلام عمه هذا

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٣.

(٢) عزروه : عظموه.

(٣) التأويل : التفسير.

(٤) سورة القصص الآية ٥٦.

الاهتمام وأن يحرص على هدايته هذا الحرص؛ فقد رباه صغيرًا، وحماه كبيرًا. ووقف دونه كالطَّوْد[1] العظيم، يحوطه بالحب والعناية، ويغمره بالعطف والرعاية، ولعله كان هو الحصن الأمين الذى آواه الله إليه ومنَّ به عليه فى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى..﴾[2] فكان من الطبيعى أن يحفظ له رسول الله ﷺ فى نفسه هذا الجميل، وأن يُكنّ له فى قلبه كل عواطف الشكر والرحمة والمحبة، وأن يبذل كل ما يستطيع من جهد ليقدم له كل ما يستطيع من خير ونعمة.. وليس فى هذه الدنيا كلها خير أعم ولا نعمة أتم من نعمة الإيمان، الذى به تتم السعادة فى الدنيا والآخرة.

لقد كان رسول الله ﷺ مثلا عاليًا فى الوفاء وعرفان الجميل، وكان عمه أبو طالب مثلا عاليًا فى رعايته وإكرامه وبره، حتى لقد قيل: إنه كان يحبه حبًّا شديدًا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبَّ[3] به صَبابة لم يُصبّ مثلها بشىء قط.

وكان يلمس البركة تَحِل فى طعام أولاده، إذا أكل معهم

(١) الطود: الجبل العظيم.
(٢) سورة الضحى الآية ٦.
(٣) صب به: تعلق به وأحبه.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أراد أن يُغَدِّيهم قال لهم: «كما أنتم حتى يحضر ابنى». فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يُفْضِلون من طعامهم؛ فإن لم يكن معهم لم يشبعوا. فيقول أبو طالب: «إنك لمبارك..!»

النفس العالية

وكان، صلى الله عليه وسلم، عَزُوفًا عالى النفس، لا يتهافت على الطعام تهافتَ الأطفال، ولا يقبل عليه إقبالهم؛ فكان إذا اجتمع بأبناء عمه على الطعام، انكبوا عليه يتخاطفونه ويلتهمونه، ويجولون بأيديهم فى نواحيه؛ وجلس هو متعففًا يأكل مما يليه، قانعًا بالقليل الذى تصل إليه يده، وأحيانًا يكف يده عن الطعام فلا يأخذ منه شيئًا. وكان أبو طالب يلاحظ منه ذلك، فكان يَعزل له طعامه، ويخصه بالطيبات، ويؤثره على بنيه بالملاطفة وحسن الرعاية.

قال ابن عباس: «كان أبو طالب يقرِّب إلى الصبيان صَحْفَتهم[1] أولَ البُكْرة[2]، فيجلسون وَينتَهِبون[3]، وَيكفُّ رسول الله يده فلا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه

---

(١) الصحفة: مايقدم فيه الطعام كالطبق ونحوه.

(٢) البكرة: أول النهار.

(٣) ينتهبون: يخطفون.

على حِدَة. وكان أبناء أبي طالب يُصْبحون غُمْصًا رُمْصًا[1]، ويُصبح رسول الله ﷺ، صَقِيلا كحيلا[2].

وقالت أم أيمن : « ما رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، شكا - صغيرًا ولا كبيرًا - جوعًا ولا عطشًا. كان يغدو فيشرب من زمزم، فأعرض عليه الغَداء فيقول : « لا أريده. أنا شبعان. ».

وقال، صلى الله عليه وسلم، يومًا لأصحابه، وقد أرادوا أن يواصلوا الصيام كما يواصل : « إنى لست كهيئتكم، إنى أبيت عند ربى يُطعمنى وَيسقينى ».

راهب بصرى

وحين بلغ، صلى الله عليه وسلم، الثانية عشرة، سافر عمه أبو طالب إلى الشام فى تجارة، فتعلق به رسول الله، ﷺ فأخذه معه، فلما وصلوا فى طريقهم إلى « بُصْرَى » من أرض الشام، دعاهم راهب هذه القرية إلى طعام عنده فى صومعته[3].

وكان عند ذلك الراهب عِلم من الكتاب، وكان يقرأ فى التوراة والإنجيل أن نبيًّا سيبعث فى بلاد العرب، وأن هذا النبى

(١) عيونهم ملوثة بالعمص.
(٢) كحيلا : نظيف العينين.
(٣) الصومعة : بيت من بيوت النصارى للعبادة.

قد آن أوانه. وكان مكتوبًا عندهم فى التوارة والإنجيل صفة هذا النبى وعلاماته، حتى إنهم ليعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

ويقولون : إنه حين رأى رسولَ الله ﷺ جعل يتفرس فيه ويتأمله، ثم سأله عن أشياء من حالات نومه ويقظته، فوجدها كما عنده فى الكتاب. ثم نظر فى ظهره فرأى شامَةً سوداء بين كتِفيه كأنها الخاتَم؛ فعرف أنها علامة النبوّة، وأيقن أنه هو النبى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، والذى بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

رعْى الغنم

الحس الدقيق

كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دقيق الحس مرهف الشعور، وكان على صغر سنه يدرك ثِقَل الحمل على عمه أبى طالب، ويدرك ما هو عليه من قلة المال وكثرة العيال، فكان من أجل ذلك دائم التفكير فى الوسيلة التى يستطيع بها أن يخفف هذا الحمل عن عمه.

كان يود أن يقوم بنصيب فى حَمل هذا العبء. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وهو لا يزال صبيًّا صغير السن، غَضًّا طَرِىّ العود، لا يقوى على ما يقوى عليه الرجال من مشاقّ الكفاح فى سبيل العيش، ولا سيا فى هذا البلد القفر الذى يعتمد جُلّ أهله فى حياتهم على التجارة؛ والتجارة فى مثل هذا البلد عمل شاق عسير، يتطلب السفر البعيد الشاق فى متاهات الصحراء ودروبها الوعْرة، ويتطلب فوق ذلك الدُّرْبة الطويلة والمرونة الواسعة، فى البيع والشراء والأخذ والعطاء، كما يتطلب أن

يكون المرء على شيء من المكر وسعة الحيلة، حتى لا يقع فى أحابيل المَكرَة من التجار وما أكثرهم.

وليست مكة كذلك بلدًا زراعيًا، فيستطيع أن يزاول مهنة الفلاحة بالأجر عند الناس، أو فى أرض عمه إن كان له أرض.. لو كان فى يثرب لاستطاع أن يشتغل فلاحاً فى الأرض، أو أبّارًا[1] للنخل، أو بستانيًا فى أحد بساتينها الكثيرة، أو صانعًا فى إحدى صناعاتها التى يتخذها أهلها من النخيل والأعناب؛ ولكنه فى مكة، ومكة بلد قفر بواد غير ذى زرع، تحيط به الجبال من جميع نواحيه. وهى جبال صخرية جرداء، لا ينبُت فيها شجر ولا نبات؛ إلا بعض أعشاب ضئيلة ذاوية، وشجيرات قليلة شائكة، تنبت متفرقة هنا وهناك فى بعض أوديتها البعيدة، فيخرج إليها أهل مكة يُسيمون[2] فيها جمالهم، ويَرعَوْن أغنامهم. على أنها مع ذلك شيء قليل لا يُسمن ولا يغنِي من جوع.

فلم يكن بُدٌّ إذن لمن يريد أن يعمل من صبيان مكة، إلا أن يكون راعيًا يرعى الغنم، أو يُسيم الجمال والأنعام؛ لأن هذا هو العمل السهل الذى يلائم أسنان الصبيان، ويناسب جهودهم وقدرتهم.

---

(١) الأبار : الذى يقوم بشئون النخل من تقليم وتلقيح وتدنية وغير ذلك.

(٢) يسيمون : يرعون.

رعى الغنم

من أجل ذلك عمل رسول الله ﷺ أولَ ماعمل فى رعى الغنم، رغبةً منه فى معاونة عمه أبى طالب، فكان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، وكان يرعى غنم أهله بأجْياد. و« أجياد » واد من وديان مكة مما يلى الصفا، لعله كان كثير المرعى، ولعله كان أول واد ذهب إليه رسول الله ﷺ يرعى فيه غنم أهله لقربه من عمران مكة، أو لعله كان أكثر المراعى عُلوقًا بنفسه، لكثرة تردده عليه وانجذابه إليه.

ولله الحكمة البالغة إذ جعل هذه المهنة - مهنة رعى الأغنام - هى مهنة الأنبياء، يبدءون حياتهم برعى الأغنام، ثم يختمونها برعاية الخلائق.

حدّث جابرُ بن عبدالله قال: «كنا مع النبى، ﷺ، نجنى الكَبَاث[1]، فقال: "عليكم بالأسود منهم فإنه أطيبه فإنى كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم"، قلنا: وكنت ترعى الغنم يارسول الله؟ قال: "نعم، وما من نبى إلا وقد رعاها"».

وأخبر أبو إسحاقَ أنه كان بين أصحاب الغنم وأصحاب

(١) الكباث: مانضج من ثمر الأراك. والأراك هو الشجر الذى يؤخذ منه السواك.

الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل. قال: فبلغنا - والله أعلم - أن النبي، ﷺ، قال: «بُعث موسى، عليه السلام، وهو راعى غنم، وبُعث داودُ، عليه السلام، وهو راعى غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد».

رعيان مكة

ولاشك أنه، عليه الصلاة والسلام، لم يكن يرعى الغنم وحده، بل كان له أصحاب يرافقونه ويرعَوْن معه، منهم من يرعى غنم أهله، ومنهم من يرعى غنم سادته، ومنهم من يرعى أجيرًا عند أصحابها من أغنياء مكة. وكانوا بحكم المهنة رفقاء، يتصافَوْن أحيانًا ويتخاصمون أحيانًا، ويجدّون أحيانًا ويلعبون أحيانًا، وربما دفعهم الخصام إلى التنابذ بالألقاب، أو التطاول بالشتم والسباب، أو التضارب بالأيدى والعِصى؛ وربما دفعهم اللهو إلى بعض عادات الجاهلية، وإلى الإسفاف والتدنّى من الإثم.. إلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد شب يَكلؤه[1] الله ويحوطه، ويحفظه من أمور الجاهلية ومعايبها، فما رُئى قطّ منازعًا ولامخاصمًا، ولاحقودًا ولاحسودًا؛ بل نشأ أحسنَ قومه خلقًا، وأكرمَهم مخالطة، وأفضلهم جوارًا وأرغبَهم فى الجد

(١) يكلؤه: يحفظه ويصونه.

وأزهدَهم فى اللهو، وأبعدَهم من الفحش والأخلاق التى تدنّس الرجال.

كان الله يحفظه

وكان صلى الله عليه وسلم، يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأيام جاهليته، فيقول : «لقد رأيتُنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب الصبيان، كلنا قد تعرَّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فإنى لأُقْبِل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال : شُدَّ عليك إزارَك.. ! (قال) : فأخذته فشددته علىّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ من بين أصحابى».

وحدث علىّ بن أبى طالب قال : «سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول : "ما هَممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يُهمّون به؛ إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله عز وجل، فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن رِعَاءٌ فى غنم أهلها : أبْصِرْ لى غنمى حتى أدخل مكة أسمرُ فيها كما يسمرُ الفتيان. فقال بلى. (قال) : فدخلت حتى أتيت أول دار من دور مكة، فسمعت عَزْفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت : ما هذا؟ قالوا : تزوج فلان فلانة؛ فجلست أنظر.. وضرب الله على أذنى، فوالله ما أيقظنى

إلا مس الشمس؛ فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: مافعلت شيئًا؛ ثم أخبرته بالذى رأيت.. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لى غنمي حتى أسمر؛ ففعل، فدخلت؛ فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة؛ فسألت، فقيل: نَكَح[1] فلان فلانة؛ فجلست أنظر.. وضرب الله على أذنى، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لاشىء؛ ثم أخبرته الخبر.. فوالله ما هممت ولاعُدت بعدهما لشىء من ذلك، حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته"».

(١) نكح: تزوج.

محمد فى قومه

كان مثالا للكمال الإنسانى

نشأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين قومه فى مكة، يعيش فيها كما يعيش الناس؛ يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويلبس كما يلبسون، ويخضع لأحكام البيئة وتقاليدها فى الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، والسفر والإقامة؛ ويشارك القوم فى أفراحهم وأتراحهم، وفى شغلهم وفراغهم، وفى كل ما تمليه ظروف الحياة عندهم من حرب وسلم، وبناء وهدم، وصلح وخصام.

غير أن رسول الله ﷺ كان يمتاز على كل من يعيشون فى بيئته بطابع خاص لا يشاركه فيه غيره، هو طابع الكمال فى كل شيء؛ ذلك أن الله جلت قدرته تولاه منذ طفولته بالحفظ والصيانة، فعصمه من عبث الجاهلية وفسادها، وطهره من أدرانها وخبائثها، فكان صورة ماثلة للكمال الإنسانى، ونموذجًا حيًا للفضيلة فى كل ما يأتى وما يدع.

كان شابًّا فيه حماسة الشباب ودوافعه ونَزعاته، ولكنه لم يكن يتنزل إلى ما يتنزل إليه الشباب من عبث ولهو، ولم يكن يرضى لنفسه أن يهبط إلى المستوى الذى يدنس الرجولة أو ينافى الكرامة.. كان فى مكة بيوت كثيرة للهو، فيها الخمر والمَيْسر، وفيها الغناء والسمر، وفيها العبث والمجون، وفيها كل ما يُرضى جُموح الشباب من لذة ومتاع.. وكان للشباب فى تلك البيوت مآربُ شتى، تهفو إليها نفوسهم، وتسعى لها أرجلهم؛ إلا محمد ابن عبد الله، فقد عَزَف بطبعه عن كل ذلك، وتعالى بنفسه عن مواطن الريبة ومواضع الخسة؛ فما رُئى يومًا قط لاهيًا ولا عابثًا، ولا آثمًا ولا فاحشًا، ولا معاقرًا خمرًا ولا قَمْرًا[1]، ولا متدنسًا فى نَزْوة من نَزَوات الشباب الجامحة، بل كان سمتُه[2] الجد والعفاف، وطابَعه الوقار والكمال، مع سماحة فى الطبع، وطلاقة فى الوجه، وحلاوة فى اللسان، جعلته محببًا إلى كل من يعاشره أو يحادثه أو يلقاه.

سموه «الأمين»

وعرف له أهل مكة هذا السَّمْتَ الوَقور، وهذا الخلق الرضىّ، فأحبوه وأكبروه، ووصفوه بأحسن ما يمكن أن يوصف

(١) القمر: لعب القمار.

(٢) السمت: الهيئة التى يكون عليها الشخص ويتميز بها من غيره.

به إنسان من صفات الكمال، فلقبوه «بالأمين»؛ وأصبح هذا اللقب وصفًا مميزًا له دون غيره، حتى صار عَلَمًا عليه لا ينادَى ولا يُذكَر إلا به. فقد عرفوه منذ نشأ فيهم، وهو الصادق الذى لا يكذب، والوفى الذى لا يغدر، والناصح الذى لا يَغُش، والأمين الذى لا يخون؛ كما عرفوه طاهر النفس، واسع الحلم، رحيم القلب، جَمَّ التواضع، وعرفوا فيه كرم العشرة، وحسن الجوار، ورجاحة العقل، وعلوّ الهمة، والزهدَ فيما يتكالب الناس عليه من متاع الدنيا، والبعدَ عن كل ما يحط من أقدار الرجال؛ ولمسوا فيه من صفات الخير ما لم يألفوه فى أحد من أقرانه ولا من أهل بيئته.

نعم، رأوْه شيئًا آخر غير ما يرون فى بيئتهم؛ فقد كانوا قومًا غلاظ الأكباد غُلْفَ القلوب، يتهالكون على اللذات، ويتجاهرون بالمنكرات، ويستبيحون المحرمات؛ قد فشا فيهم الربا والخمر والميسر، وشاع بينهم السلب والنهب وحب الانتقام. ولم يكن لهم وازع من خلق ولا دين يكبح جماحهم، ويردهم عما يرتعون فيه من غى وضلال. بل كانوا يعبدون الأصنام، ويؤمنون بالخرافات والأوهام، ويقدسون العادات والتقاليد، مهما تنافت مع العقل أو تعارضت مع الفضيلة.

عصمة الله

وقد عصم الله رسوله ﷺ من هذه الموبقات، وطهره من هذه الأرجاس، فلم يسجد قَط لصنم من الأصنام، ولم يعبد قط وَثنا من الأوثان، ولم يشارك القوم قط فيما كانوا يقومون به لهذه الآلهة الكاذبة، من تقديم القرابين، وإقامة الصلوات، وإحياء المواسم والحفلات، ولم ينحرف قط فى شىء مما كانوا ينحرفون فيه عن سَنَن الحق والعدل.

عن ابن عباس قال: «حدثتنى أم أيمن قالت: كان «بُوَانةُ» صنما تحضُره قريش تعظمه؛ تَنْسُك له النسائك[1]، ويَحلِقون رءوسهم عنده، ويعكُفون عنده يومًا إلى الليل - وذلك يومًا فى السنة - وكان أبو طالب يحضره مع قومه؛ وكان يكلِّم رسولَ الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذلك؛ حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عمّاته غضبْن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا..! وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدًا، ولا تكثّر لهم جمعًا..! (قالت): فلم يزالوا به حتى ذهب؛

(١) النسائك: مظاهر العبادة والتقديس.

فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوبًا فزعًا؛ فقلن له عماته : ما دهاك؟ قال : «إنى أخشى أن يكون بى لَمم[1]».
فقلن : ما كان الله لِيَبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك؛ فما الذى رأيت؟ قال : «إنى كلما دنوت من صنم منها، تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد، لا تمسه.. !» (قالت) : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ[2]».

وعن زيد بن حارثة، رضى الله عنه. قال : «كان صنم من نُحاس يقال له «أُسافٌ ونائلة» يتمسح به المشركون إذا طافوا بالكعبة؛ فطاف رسول الله يومًا وطفت معه. فلما مررت بالصنم مسحت به؛ فقال، صلى الله عليه وسلم، : «لا تمسه.. !» (قال زيد) : ثم طفنا فقلت فى نفسى : لأَمَسَّنَّه حتى أنظر ماذا يكون. فمسحته، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «ألم تُنْهَ»؟ (قال زيد) : فو الذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب، ما استلم صنمًا قط، حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه !»

---

(١) لمم : مس من الجن.
(٢) تنبأ : حتى صار نبيًا.

كان يشارك فى معالى الأمور

ومع أن رسول الله ﷺ كان يخالف قومه فى كثير من عاداتهم وأخلاقهم، فإنه كان يعيش بينهم كواحد منهم، يألفهم ويألفونه، ويحبهم ويحبونه، ولم تكن أخلاقهم تلك الجافية، ولا عاداتهم المرذولة، تجعله يشذ فى معاملتهم، أو يتأفف من معاشرتهم؛ ولم تكن مخالفته لهم فى الطبع تمنعه أن يشاركهم فيما لا ينافى الفضيلة من أعمالهم وتقاليدهم.

شارك فى حرب الفجار

فقد حضر مع قومه «حرب الفِجّار»، وهى حرب قامت بين قريش وهوّازن؛ وكان سببها أن رجلا من قريش غدر برجل من هوازن، فقتله فى الأشهر الحرم، وهى الأشهر التى حُرّم فيها القتال. وكان العرب يقدسونها ويمتنعون فيها عن القتال. وقد ساهم فيها رسول الله ﷺ مع قومه، وهو بين الخامسة عشرة والعشرين؛ فكان أحيانًا يجمع السهام التى يرمى بها الأعداء، ويردها على أعمامه ليصيبوا بها أعداءهم، وأحيانًا كان يرمى السهام معهم كما يرمون. وقد دامت هذه الحرب أربع سنين، فلم تنته إلا بعد أن تصالحت قريش وهوازن على أن يعُدوا

القتلى من كلا الفريقين، ثم يدفع الفريق الأقل عددًا فى القتلى دِيَة العدد الذى يزيد على قتلاه.

وقد حدَّث، صلى الله عليه وسلم، أصحابه عن حرب الفجار. فقال: «قد حضرته مع أعمامى، ورميت فيه بسهم، وما أُحبُّ أنى لم أكن فعلت».. وفى رواية أخرى يقول: «كنت أُنَبِّل على أعمامى»؛ أى أرد عليهم نَبل عدوهم إذا رَمَوْهم بها.

وشارك فى حلف الفضول

وشهد رسول الله «حِلْفَ الفُضُول» وهو فى سن العشرين. وهو حلف تداعت فيه قريش إلى نُصرة المظلوم؛ فاجتمع رجال بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى أسد وبنى زهرة وبنى تَيْم، فى دار رجل من أشرافهم يقال له عبد الله بن جُدْعان، فتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا إلا نصروه وكانوا معه، حتى يُرد إليه حقُّه؛ فكان هذا الحلف أكرمَ حلف وأشرفَه سُمع به فى العرب وقد حدّث، صلى الله عليه وسلم، أصحابه عن ذلك الحلف فقال: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أُحبُّ أن لى به حُمْرَ النَّعَم[1]، ولو دُعيت به فى الإسلام لأَجَبت».

---

(١) حمر النعم: نوع من الإبل ممتاز، كان يضرب به المثل فى الجودة والقيمة، كأنه أحسن شىء يقتنى عند العرب.

وشارك فى بناء الكعبة

وشارك رسول الله ﷺ قومه فى بناء الكعبة، وهو فى الخامسة والثلاثين. وكانوا أرادوا أن يجددوا بناءها، حين أصابها السيل فصدّع جوانبها وهدّم أركانها، فاشترك فى ذلك رجالهم ونساؤهم، فكان، صلى الله عليه وسلم، يزامل عمه العباس فى نقل الحجارة.. فلما بلغوا موضع الركن - وهو الحجر الأسود - أرادوا أن يضعوه فى مكانه، فاختلفوا: أيهم ينال ذلك الشرف العظيم؟ وكان للحجر الأسود فى نفوسهم منزلة من الإجلال والتقديس لا تدانيها منزلة؛ واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يتحاربوا، لولا أن رجلا حازمًا منهم دعاهم إلى أن يحكموا بينهم فى هذا الأمر، أول من يدخل عليهم من باب المسجد؛ فارتَضوا ذلك الرأى واتفقوا عليه، ووقفوا ينظرون أولَ داخل عليهم من ذلك الباب، فكان هو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ففرحوا جميعًا واستراحوا لرؤيته، وقالوا: «هذا الأمين.. رضينا».. !

وكان، صلى الله عليه وسلم، قد عرف بينهم بسداد الرأى وصواب الحكم، فقصّوا عليه قصتهم وأخبروه بما كان من أمرهم فقال صلى الله عليه وسلم: «هَلُمُّوا إلَىَّ ثَوْبا»[1]. فجاءوه

(١) هلموا: احضروا لى ثوبًا.

بالثوب، فأخذ الثوب فبسطه على الأرض، ثم أخذ الحجر فوضعه فى وسط الثوب، ثم قال: «لتأخذْ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا».. فوضعه بيده فى مكانه ثم بنى عليه.

حدّث ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت.. قال: «... وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال تنقل الحجارة، والنساء تنقل الشيّد[1]. (قال): فكنت أنا وابن أخى، وكنا نحمل على رقابنا وأُزُرُنا تحت الحجارة، فإذا غشيَنا الناسُ ائتزرْنا، فبينما أنا أمشى ومحمد أمامى، خَرَّ وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حجرى، وهو ينظر إلى السماء. فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره وقال: «إنى نُهيت أن أمشى عريانًا». (قال العباس): وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا: مجنون».

وشارك فى أعمال التجارة

وكان، صلى الله عليه وسلم، يشارك قومه فى غير ذلك من الشئون، ويعمل كواحد منهم فى كل ما تمليه ظروف الحياة وطبيعة البيئة.

---

(١) الشيد: المونة.

وكانت التجارة مهنة شائعة فى مكة، يشتغل بها كثير من أهلها؛ فاشتغل رسول الله ﷺ بالتجارة، كما يشتغل غيره من الأحرار، وكان له فيها شريك يسمى السائب بن أبى السائب. وكان صلى الله عليه وسلم، يستريح إليه ويُثنى على أخلاقه، ويضربه لأصحابه مثلا للرفيق الصالح والشريك السمح، فيقول: «نِعْم الشريكُ السائبُ، لا يُشارى ولا يمارى!»...

وجاءه السائب يوم فتح مكة، فأكرمه وأحسن استقباله، وعرف له مكانته، وتلقّاه فرحًا به وهو يقول: «مرحبًا بأخى وشريكى! كان لا يدارِى ولا يمارى»[1].

ومازال، صلى الله عليه وسلم، يشتغل بالتجارة وغيرها من شئون الحياة، حتى أكرمه الله بكرامته، واختاره من بين قومه ليرسله إلى الناس شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

---

(١) لا يمارى: لا يجادل ولا يخاصم.

خديجة

مكانة خديجة

كان محمد مثلا عاليًا بين أهل مكة، ترنو إليه عيونهم، وتهفو إليه قلوبهم، ويقع منهم جميعًا موقع الإكبار والإعجاب والحب؛ فقد عرف بين شباب مكة بالرزانة والجد والاستقامة، وعرف بين رجالها بالحزم وعلو الهمة وسداد الرأى؛ وكان فوق ذلك جَمَّ التواضع، لطيف العشرة، حلو الحديث؛ يحادث الصغار ويتودد إليهم، ويجالس الكبار ويتواضع لهم، ويخالط المساكين ويعطف عليهم؛ فلم يكن أحد فى مكة، إلا ويُكْبر محمدًا ويحبه ويُعجَب به.

وكانت خديجة بنت خُوَيْلِد مثلا بين نساء مكة، فى الجمال والشرف وطهارة النفس؛ وكانت كثيرة المال وافرة الثراء، لها تجارة واسعة ترسلها إلى الأسواق مع ما ترسله قريش من قوافلها؛ وكانت قافلتها أحيانًا تَعْدِل قوافل قريش بأجمعها. وكانت تستأجر الرجال من أهل مكة ليتجروا لها، فتختار لذلك

من تثق به وتطمئن إليه، على نصيب معيّن من الأجر تدفعه لهم.

رغبتها فى محمد

وكانت خديجة تعرف محمدًا وتلاحظه منذ نشأته، لأنه من بنى عمومتها، يلتقى نسبهما معًا فى قُصىّ بن كلاب؛ وكان قلبها يهفو إليه، وعينها تتبعه كلما مر غاديًا أو رائحًا؛ وكان يروقها منه خلُقه القوى، وطبعه الرضىّ، وَسَمْته المعجِب. فلما اكتمل شبابه واستوى عوده، رغبت إليه فى أن يخرج فى مالها تاجرًا، فقبل منها ذلك، وأخذ يتجر لها فى أسواق مكة وما حواليها، وكان يشاركه فى ذلك رجل آخر - لعله هو السائب بن أبى السائب - وكانت خديجة تكرمهما وتَبرُّهما، وتُتحفهما بألطافها كلما حضرا إليها.

روى مَعْمَرٌ عن الزُّهرِىّ قال: «لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغ أشُدَّه، وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حُباشة - وهو سوق بِتهامَة - واستأجرت معه رجلا آخر من قريش.... قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، :"ما رأيت من صاحبة أجير خيرًا من خديجة.. ما كنا نرجع أنا وصاحبى إلا وجدنا عندها تُحفةً من طعام تُخبِّئه لنا"».

وروى حزامُ بن حكيم أنه رأى رسول الله ﷺ وهو يتجر فى سوق حُباشة، واشترى منه بَزًّا[1] من بَرِّتهامة.

كانت تجزل له العطاء

ولا شك أن خديجة ارتاحت إلى رسول الله ﷺ، ولمست فيه ما كان يبلغها عنه من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم خلقه؛ فنزل من نفسها منزلة الإعجاب والرضا، ورغبت فى أن تدوم بينه وبينها هذه العلاقة، فجعلتْ تُجزل له الأجر وتُضْعفه، إبقاءً على مودته وحسن صحبته. وكان، صلى الله عليه وسلم، قانعًا، متجملا بالحياء والرضا على كل حال، ولكنه مع ذلك كان يسره إرضاءُ عمه أبى طالب. وكانت خديجة يسرها كذلك أن ترضيه.

روى عن عبد الله بن محمد عن عُقَيْل: «أن أبا طالب قال لرسول الله يومًا: يا ابن أخى، قد بلغنى أن خديجة استأجرت فلانًا ببَكْرَين[2]، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن نكلمها؟ قال: «ما أحببت». فخرج إليها أبو طالب فقال: قد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببكرين، ولسنا

(١) البز: نوع من الثياب.
(٢) البكر: الفتى من الإبل، والأنثى بكرة.

نرضى لمحمد دون أربع أبكار. (قال) فقالت خديجة : لـو سـألت ذلك لبغيض بعيد فَعَلْنا، فكيف وقد سألت لحبيـب قـريب؟ . . (قالوا) فرجع أبو طالب راضيًا يقـول لابـن أخيـه : هــذا رزق ساقه الله إليك».

السفر إلى الشام

وحين بلغ، صلى الله عليه وسلم، خمسًا وعشريـن سـنة، رغبت خديجة فى أن يكون هو الذى يسافر بتجارتها إلى الشـام؛ ولكنها كانت تعلم أن عمه أبا طالب حريص أشـد الحـرص على ألا يبعد به كثيرًا عن نطاق مكة، ضنين به على كل سفر يُطوِّح به فى البعد عن هذا البلد الأمين.

فأخذت تتلطف وتحتال، حتى أقنعت أبا طالب بـأن يـأذن لابن أخيه فى الـرحلة إلى الشـام، مع غـلامها مَيْسَرة؛ على أن تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومه. وكانـت سِنُونَ مجـدبة، وأزمةٌ شديدة، فلم يلبث أبو طالب أن اسـتجاب، وعـرض على ابن أخيه أن يذهب فى تجارة خديجة إلى الشام؛ فقبل صلى الله عليه وسلم، ما عرضه عليه عمه، وخرج فى مـالها ذاك، وخـرج معه غلامها ميسرة، وأعمامه يوصون به ويبالغون فى التوصية.

وانطلقت القافلة تسـير فى الصـحراء المتراميـة، وتمعـن فى

دروبها الوعْرة، والشمس ترسل أشعتها شُواظًا من نار، يَشوى الوجوه ويُلهب الأجسام، وكلما أعياها السير وأجهدها الحر نزلت منزلا لتستريح؛ حتى إذا كانت فى أحد المنازل مرة، نزل، صلى الله عليه وسلم، فى ظل شجرة، قريبًا من صَوْمَعَة راهب، فاطَّلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى.

وحين وصلت القافلة إلى الشام باع، صلى الله عليه وسلم، سلعته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة. فلما قدم على خديجة باعت ما جاء به، فربحت ضعف ما كانت تربح، وأضعفت لرسول الله ضعفَ ما سَمَّت له.

إرهاصات النبوة

وحدَّث ميسرة سيدته بما رأى من إرهاصات النبوَّة، وبما رأى من محمد أثناء رحلته من كرم الخلق، وصدق الوفاء، وحسن الصحبة، وعظم الأمانة، وبما لم ير مثله من صاحب قط فى أثناء رحلته.

وكانت خديجة امرأة شريفة لبيبة، حازمة جَلْدَة[1]، تحسن تصريف الأمور فى إحكام ورَوِيَّة وصبر؛ وكانت أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالا؛ وكان أشراف قومها يحرصون على زواجها، ويبذلون فى ذلك الأموال، ويَعِدُون الوعود، ويُمَنّون الأمانى؛ ولكن خديجة كانت تردهم جميعًا، وتأبى عليهم ما يريدون من ذلك.

وكأن الله، سبحانه قد كتب لها الكرامة وأراد بها الخير، فألق فى نفسها أُمنية كريمة، وبعث فى قلبها عاطفة شريفة، أحست بها نحو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به ذهبت إلى ابن عمها وَرَقة بن نَوْفل، تسأله فيما أخبرها به ميسرة. وكان ورقة بن نوفل قد قرأ كتب النصرانية، وعلم مما قرأ فيها أن نبيًّا سيظهر فى أرض العرب قد آن أوانُه، وأن إرْهاصَات النبوة[2] توشك أن تظهر بين يَدَىْ[3] هذا النبى. وأدرك ورقة أن ما عليه محمد من سمُوّ الصفات، وما يبدو فيه من جلائل الآيات، جدير بأن يجعله أهلا لهذه النبوة؛ فأوحى إلى خديجة بأن محمدًا يوشك أن يكون هو هذا

(١) الجلد : القوى الذى لا يضعف أمام الشدائد.

(٢) إرهاصات : مقدماتها وبوادرها.

(٣) قبيل ظهوره.

النبي، فزاده ذلك فى نفسها مكانة إلى مكانته، وتحدث قلبها برغبة مُلِحَّة فى أن تكون زوجًا له.

قالت نُفَيْسَة بنت مُنْية : «فأرسلتنى دسيسًا إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام، فقلت : يا محمد، ما يمنعك من أن تتزوج؟ فقال : «ما بيدى ما أتزوج به». فقلت : فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال : «فمن هى»؟ قلت : خديجة. قال : «ومن لى بذلك»؟ قلت : علىّ : قال : «فأنا أفعل». فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا».

وقد روى أنه ذهب إليها، فقالت له : «يابن العم، لقد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِك[1] فى قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك». ثم عرضت نفسها عليه. فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ سرّ به، وذكره لأعمامه فسروا به كذلك. وأرسلت خديجة إلى عمها عَمْرِو بن أسد ليزوجها، فحضر، ودخل رسول الله ﷺ فى عمومته، فزوجه أحدهم.

وقيل : إن الذى زوجه عمه أبو طالب، وإنه خطب فى ذلك خطبة فقال : «الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم

---

(١) سطتك : مكانتك.

وزرع إسماعيل.. ! وجعلنا حَضَنَةَ بيته وسُوَّاسَ حرمه[1]، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا حكام الناس. ثم إن ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله، لايُوزَن به رجلٌ شرفًا ونبلا وفضلا، وإنْ كان في المال قُلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستَرَدَّة[2]. وهو - والله - بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ! وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصَّداق[3] كذا وكذا».

فأجابه عمرو بن أسد بقوله : «هذا البُضعُ لا يُجدَعُ أنفه».. ومعناها في اصطلاح العرب، أن محمدًا قطعة منهم وليس غريبًا عنهم، وأنه كفء كريم لا يمكن أن يُرَدّ أو يهان.

زوجان سعيدان

وتزوجها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصْدقها عشرين بَكْرة، فولدت له القاسم - وبه كان يُكَنَّى أبا القاسم - ثم ولدت له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم - وكان ذلك قبل النبوة - ثم ولدت له في الإسلام عبد الله، فسُمى الطيبَ والطاهر.

---

(١) سواس الحرم : سدنة البيت وخدام الحرم.

(٢) يعني أن المال لا يبقى على حال، بل يتنقل من شخص إلى آخر.

(٣) الصدق : المهر.

وكان عمْر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمسًا وعشرين سنة؛ وكان عمرها أربعين، وقيل خمسًا وثلاثين، وقيل خمسًا وعشرين؛ وروى عن ابن عباس أنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تتجاوزها.

ومهما يكن من شيء فقد كان زواجًا موفقًا سعيدًا، كان فيه محمد نِعْم الزوج، وكانت خديجة نعمت الزوجة، وعاشا معًا زوجين هانئين؛ حتى إذا أكرم الله محمدًا برسالته، كانت خديجة له رِدْءًا وعونًا، وحصنًا يعتصم به من عوادى الدهر؛ يستلهم منها الأمن عند الخوف، ويستمد منها القوة عند الضعف، ويجد فيها السكينة عند القلق والاضطراب.. صدَّقته حين كذبه الناس، وآمنت به حين كفر الناس، وأغنته بمالها، وغمرته بإخلاصها، وملأت نفسه عزمًا وقوة، وملأت قلبه طمأنينة ورضًا، وملأت حياته هدوءاً وسكينة؛ فاندفع فى طريقه الوَعْر[1]، يقاوم أعداء الحق، ويجاهد أنصار الباطل، ويكشف ظلمات الكفر والطغيان، حتى ظهر نور الحق، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

---

(١) الوعر: الشاق.

صدق الوفاء

من أجل ذلك كان، صلى الله عليه وسلم، بعد وفاة خديجة، دائم الذكر لها والحنين إليها، يترحَّم عليها، ويتحدث بأيامها، ويَبرُّ صَوَاحبها[1]، ويتهللُ لمن يراه من أهلها؛ حتى إن عائشة، رضى الله عنها، كانت تغار منها بعد وفاتها، وتغضب حين يذكرها النبى أو يُثنى عليها.

روى مسلم عن عائشة قالت: «ما غِرْت على نساء النبى، صلى الله عليه وسلم، إلا على خديجة، وإنى لم أدركها. (قالت): وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا ذبح الشاة... فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة». (قالت): فأغضبته يومًا فقلت: خديجة!.. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إنى رزُقت حبها"».

وكذلك روى البخارى عنها قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبى، صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها. ولكن النبى، صلى الله عليه وسلم، يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صدائق خديجة؛ فربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا إلا خديجة!...

---

(١) يبرُّ: يعطى أصدقاءها ويصلهم.

فيقول: "إنها كانت... وكانت.. وكان لى منها ولد!"»

وروى البخارى ومسلم عن عائشة، قالت: «استأذنتْ هالَة بنت خُوَيْلد - أخت خديجة - على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فعرَف استئذانَ خديجة، فارتاع - أوفارتاح - لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد...!» فغرت؛ فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشّدْقين[1]، هَلَكَت فى الدهر فأبدلك الله خيرًا منها؟»

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: «كان النبى، صلى الله عليه وسلم، إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء. (قالت): فغرت يومًا فقلت: ما أكثر ما تذكرها..! حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيرًا منها..! قال: "ما أبدلنى الله خيرًا منها، وقد آمنت بى إذ كفر بى الناس، وصدَّقتنى إذ كذبنى الناس، وآستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء..!"».

* * *

لقد تركت خديجة فى حياة النبى، صلى الله عليه وسلم، أعظم الأثر؛ فلم يكن عجبًا أن يمتلئ بحبها هذا الامتلاء، وأن يفى لذكراها هذا الوفاء، وأن تفيض عواطفه كلما ذكرها بالحمد

(١) حمراء الشدقين: كناية عن سقوط أسنانها.

والثناء. ولقد عرف الله، عز وجل، لخديجة قدرها، فحيَّاها من فوق سبع سماواته، وبشرها على لسان جبريل ببيت من لؤلؤ فى الجنة، يسوده الهدوء والسكينة، وتغشاه السعادة والطمأنينة، جزاء ما أسبغت على حياة رسوله ﷺ من راحة ونعيم، وما أمدته به من أسباب العزم والقوة، حتى استطاع أن يبلغ الرسالة، ويؤدى الأمانة، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: «أتى جبريل النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شراب - فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب[1]، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ».

(١) من قصب: من لؤلؤ.

بشائر النُّبُوّة

الرسول الخاتم

أشارت الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله وأنبيائه؛ إلى رسول يكون آخر الرسل وخاتم الأنبياء، يرسله الله إلى الناس كافة، ليجمعهم على دين واحد وشريعة واحدة، إذ أن كل رسول قبله كان يرسل إلى قومه خاصّة، ليعالج ما فسد من أمورهم، بالطريقة التى تلائم حالها، وتناسب استعدادهم.

فقد بُعث نوح إلى قومه خاصة، وبعث إبراهيم إلى قومه خاصة، وبعث لوط إلى قومه خاصة، وبعث هود إلى عاد، وبعث صالح إلى ثمود، وبعث شعيب إلى أصحاب الأيْكَة[1]؛ وكلما فسدت أحوال قوم وضلوا عن طريق الحق، أرسل الله إليهم رسولاً منهم يهديهم إلى الطريق، فإذا لجوا فى الضلال، وتمادَوْا فى العصيان، أرسل إليهم رسولا بعد رسول، كما صنع

(١) الأيكة : المكان الذى يكثر فيه الشجر.

مع بنى إسرائيل، إذ أرسل إليهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

فلما نضج العقل البشرى، وارتقى العلم بالشعوب، وارتبطت الأمم بعضها ببعض.. أراد -سبحانه- أن يرسل إلى الناس كافة رسولا يختم به رسله، ويكمل به دينه، ويُتمّ به نعمته على عباده؛ ليكون الناس فى جميع الأمم والشعوب، وفى جميع الأمكنة والأزمنة، أمة واحدة، يدينون بدين واحد، ويسيرون على منهاج واحد، ويعيشون فى ظل هذه الوحدة إخوانًا متآلفين، يسودهم الأمن والسلام، ويجمعهم الحب والتراحم.

وكان الأنبياء والمرسلون جميعًا، يعلمون بأمر هذا الرسول، ويبشرون به قومهم، ويأخذون العهود والمواثيق عليهم، أن يؤمنوا به وينصروه إذا أدركهم زمانه. ويقول بعض المفسرين: إن الله، سبحانه وتعالى، قد أشار إلى هذا الرسول فى قوله، عز وجل، من سورة آل عمران: ﴿وإذْ أخذ الله مِيثاقَ النبيين لَمَا آتَيْتُكُم من كتاب وحِكْمة، ثم جاءَكم رسولٌ مُصدِّقٌ لِمَا معَكم، لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّه. قال: أأقْرَرْتم وأخَذتم على ذلِكُم إصْرِى[1]؟ قالوا: أقْرَرْنا؛ قال: فاشْهَدُوا وأنا معكم من الشاهِدين﴾[2].

(١) الإصر: العهد والثقل، وهو هنا بمعنى العهد.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨١.

صفته فى الكتب السماوية

وقد جاء فى التوارة التى أنزلت على موسى، وفى الإنجيل الذى أنزل على عيسى، وصْفُ هذا النبى ووصف أصحابه، ووصف المبادئ السامية التى جاء بها؛ وقد ذكر الله ذلك فى القرآن الكريم، حيث يقول فى سورة الأعراف : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ، الذى يَجِدونه مكتوبًا عندهم فى التَّوراةِ والإنجيل، يأمُرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن المُنكَر، ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ ويحرِّم عليهم الخبائثَ، ويَضَعُ عنهم إصْرَهم[1] والأغلالَ التى كانت عليهم؛ فالذين آمنوا به وعزَّرُوه ونَصَرُوه واتبعوا النُّورَ الذى أُنزل معه أُولئك هم المُفْلِحون * قل : يٰأَيُّها النَّاسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعًا، الذى له مُلْكُ السَّموات والأرضِ، لا إلٰهَ إلاَّ هو يُحيِى ويُميت؛ فآمِنوا بالله ورسُولِه النَّبِيِّ الأُمِّى الذى يُؤْمِنُ بالله وكَلِماتِه، واتبعوه لعلَّكم تهتدون﴾[2].

وحيث يقول، سبحانه، فى سورة الفتح : ﴿محمدٌ رسولُ الله، والَّذين معه أَشدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهم، تَراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُون فَضْلًا من الله ورِضْوانًا، سِيماهم فى وُجُوههم من

---

(١) ما أثقلهم من التكاليف.

(٢) سورة الأعراف آيتا ١٥٧، ١٥٨.

أثر السُّجود ذلك مَثَلُهم فى التوارةِ ومثلُهم فى الإنجيل كزَرْعٍ أخرَجَ شَطْأَهَ فآزَرَه[1]، فاسْتغْلَظَ فاستَوى على سُوقِه، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ليغيظَ بهم الكُفَّارَ وعَدَ الله الذِين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ منهم مغْفِرةً وأجرًا عظيمًا﴾[2].

هو محمد بن عبد الله

وكانت هناك دلائلُ كثيرة، تدل على أن هذا الرسول الكريم، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن قُصىّ. . . الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام.

فقد دعا به إبراهيم، عليه السلام، لأهل مكة، إذ قال وهو يرفع القواعد من البيت : ﴿ربَّنا وابْعَثْ فيهم رسولاً منهم، يَتْلُو عليهم آياتِك ويُعلِّمهُم الكتابَ والحكمَةَ ويُزَكيهم، إنك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾[3]. وبشر به عيسى بن مريم وعيَّنه بالاسم إذ قال : ﴿يا بنى إسرائيلَ إنى رسولُ الله إليكم، مُصَدقًا لما بَيْنَ يَدَىَّ من التوارة، ومُبَشِّرًا برسول يأتى مِن بَعدِى اسمه أحْمَد﴾[4].

---

(١) الشطء : ما يخرجه الزرع من أولاده وفراخه ليتقوى بها ويتكاثر.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٩.

(٤) سورة الصف الآية ٦.

وكان من أسمائه، صلى الله عليه وسلم، محمد وأحمد فقد سماه جده «محمدًا» وكانت أمه تدعوه «أحمد». وفى ذلك يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنا دَعْوة أبى إبراهيم، وبَشَّرَ بى عيسى بن مريم.. أنا محمد وأحمد، أنا رسول الرحمة.. وأنا الماحي يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يُحشَر الناس على قَدَمىَّ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى».

وقد وصفت التوراةُ والإنجيل بلادَ العرب بأنها أرض النبى المنتظر؛ ولعل هذا كان من الأسباب التى دعت اليهود والنصارى إلى أن يستوطنوا أرض الجزيرة العربية.

وكانت هناك إرهاصاتٌ ومقدّمات تدل على قرب زمانه. وقد استفاضت بذلك الأخبار، حتى إن بعض الحُنفَاء[1] الذين صَفَتْ أرواحهم واستنارت بصائرهم، طَمعَ فى أن يكون هو هذا النبى، وحتى إن بعض العرب سمى ولده «محمدًا»، طمعًا فى أن يكون هو النبى المنتظر؛ وطائفة لاحت قلوبهم للإيمان بالحق، فانطلقوا سائحين فى الأرض، يبحثون عن هذا النبى ويتلمَّسون مكانه.

---

(١) الحنفاء: هم الذين كانوا يبحثون عن الحنيفية دين إبراهيم.

أحاديث الأحبار والرهبان عنه

وكان الأحبار من اليهود والرهبانُ من النصارى، يتحدثون بأمر رسول الله قُبَيْل مَبْعَثه، لما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه؛ حتى إن يهود المدينة - وهى يثرب - كانوا يعتقدون أنه منهم، ويتوعدون به أهلها من العرب، لما كان بينهم وبينهم من حَزازات[1] ومنافسات.

روى ابن إسحاق عنْ عاصم بنْ عُمر بن قَتَادَة الأنصارى، عن رجال من قومه قالوا: «إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه لنا - أنْ كنا نسمع من يهود؛ وكنا أهل شِرْك وأوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: "إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نقتلكم معه قَتْل عادٍ وإرَم". فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بُعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادَرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به.. ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ولمَّا جاءهم كتابٌ من

---

(١) حزازات: ضغائن.

عِندِ الله مصدّقٌ لما معهم، وكانوا من قبلُ يَسْتَفْتِحُون على الذين كفروا، فلمّا جاءهم ما عـرفوا كفـروا بـه، فلعنـةُ الله على الكافرين﴾[1] ».

وروى كذلك عن ابن عباس : أن يهود كانـوا يسـتفتحون[2] على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثـه؛ فلما بعثـه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه..

وذكر أبو بكر الخرائطى عن أبى سَوِيَّة عـن أبيـه خليفـة، قال : سألت محمد بن ربيعة بن سواة بـن خَثْعَـم بـن سـعد، فقلت : كيف سَمّاك أبـوك « محمـدًا »؟ فقـال : سـألت أبى عما سألتنى عنه، فقال : خرجت رابعَ أربعة من بنى تميم، أنا منهم، وسفيان بن مُجَاشع بن دارم، وأسامة بن مالك بـن جنُدُبُ بـن العقيد، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن، ونحـن نريد ابن جفنة ملك غسان. فلما شارفنا الشام نـزلنا على غـدير عليه شجيرات، فتحدثنا فسمع كلامنـا راهـب، فـأشرف علينـا فقال : إن هذه لغة ما هى بلغة هذه البلاد. فقلنا : نعم، نحن قوم من مُضَر. فقال : من أى المضريين؟ قلنـا : مـن خِنْـدِف.

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٩.

(٢) يستفتحون : يستنصرون به عليهم.

قال : أما إنه سَيُبْعَث وشيكاً[1] نبي خاتم النبيين، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه تَرْشُدوا فقلنا له : ما اسمه؟ قال : « محمد ». (قال) : فرجعنا من عند ابن جفنة، فوُلِد لكل منا ابن، فسماه « محمدًا ».. يعنى أن كل واحد منهم طمع فى أن يكون هذا النبي المبشر به ولدَه.

قصة سلمان الفارسي

وذكر ابن إسحاق قصة إسلام « سَلْمان الفارسي » رضى الله عنه، فقال : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى، عن محمود بن لَبِيد، عن عبد الله بن عباس قال :

« حدثنى سلمان الفارسي من فيه قال : كنت رجلاً فارسيًا من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها « جَيّ » وكان أبى دِهْقان قريته[2]، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يَزَل حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية. واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قَطَن النار[3] الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة.

(قال) : وكانت لأبى ضيعة عظيمة، فشُغل فى بنيان له يومًا

---

(١) وشيكاً : قريبًا.

(٢) دهقان القرية : رئيسها وحاكمها.

(٣) قطن النار : خادمها. والمجوسية : دين المجوس؛ وكانوا يعبدون النار.

فقال لى : يا بنى، إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى، فاذهب إليها فاطَّلِعها، وأمرنى فيها ببعض ما يريد، ثم قال لى : ولا تحتبس[1] عنى، فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى، وشغلتنى على كل شىء من أمرى.

(قال) : فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون؛ وكنت لا أدرى ما أمرُ الناس، لحبس أبى إيَّاى فى بيته. فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم، ورغبت فى أمرهم، وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه! فوالله ما بَرِحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبى فلم آتها. ثم قلت لهم : أين أهل هذا الدين؟ قالوا : بالشام. فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن أمره كله. فلما جئت قال : أى بنى، أين كنت؟ ألم أعهَد إليك ما عَهِدته؟ قلت : يا أبَهْ، مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال : أى بنى، ليس فى ذلك الدين خير؛ دينُك ودين آبائك خير منه. قلت : كلا، والله إنه

---

(١) لا تحتبس : لا تتأخر ولا تغب.

لخير من ديننا ! فخافنى[1]، فجعل فى رجلىّ قيدًا، ثم حبسنى فى بيته.

(قال) : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم رَكب من الشام فأخبرونى بهم. فقدم عليهم ركب من الشام، فجاءنى النصارى فأخبرونى بهم، فقلت : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذِنونى[2]، فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم؛ فألقيت الحديد من رجلىّ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها قلت : مَن أفضلُ أهل هذا الدين علمًا؟ قالوا : الأسقُفُ فى الكنيسة. فجئته فقلت له : إنى رغبت فى هذا الدين، وأحببت أن أكون معك، وأخدمك فى كنيستك، وأتعلم منك فأصلى معك. قال : ادخل : فدخلت معه.. فكان رجل سَوْء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئًا كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين؛ حتى جمع سبع قلال[3] من ذهب ووَرِق[4].

---

(١) أى : أخاف أن أهرب.

(٢) آذنونى : أخبرونى.

(٣) جمع قلة، وهى الجرة.

(٤) الورق : الدراهم المضروبة من الفضة.

(قال) : وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع.. ثم مات، واجتمعت له النصارى ليدفنوه؛ فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوْء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا، فقالوا : وما عِلْمك بذلك؟ فقلت لهم : أنا أدلكم على كنزه. قالوا : فلدنا. فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا؛ فلما رأوها قالوا : لا ندفنه أبدًا ! فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر.. (قال سلمان) : فما رأيت رجلًا لا يصلى الخمس[1] أرى أنه كان أفضل منه، ولا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه؛ فأحببته حبًّا لم أحب شيئًا قبله مثله. فأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له : إنى قد كنت معك، وأحببتك حبًّا لم أحبه شيئًا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى؛ فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال : أى بنى، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه ! لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه. إلا رجلًا بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحقْ به.

---

(١) أى : من غير المسلمين الذين يؤمنون برسالة محمد.

(قال) : فلما مات وغُيّب[1] لحقت بصاحب الموصل، فقلت : يا فلان، إن فلانًا أوصانى قبل موته أن ألحق بك، وأخبرنى أنك على أمره. فقال لى : أقم عندى. فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه.. فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان : إن فلانًا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى. فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال : يا بنى، والله ما أعلم رجلًا على ما كنا عليه إلا رجلًا بنصيبين[2] وهو فلان، فالحق به. فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحباى، فقال : أقم عندى. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل.. فوالله ما لبثت أن نزل به الموت. فلما حُضِر[3] قلت له : يا فلان إنّ فلانًا كان أوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال : والله يا بنى ما أعلمه بقى أحد على أمرنا أن تأتيه إلا رجل بعَمُّورِية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحب، فإن أحببت

---

(١) غيب : دفن فى قبره.

(٢) الموصل ونصيبين : مدينتان من مدن العراق، تقع الأولى على طرف نهر دجلة، وتقع الأخرى على طريق القوافل إلى الشام، وبينها وبين الموصل ستة أيام بسير الإبل.

(٣) حُضِر : حضره الموت.

فائتِه فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عَمورية، فـأخبرته خـبرى. فقال: أقم عندى. فأقمت على خير رجـل على هـذى أصـحابه وأمرهم.. (قال) واكتسبت حتى صارت لى بقرات وغُنيْمـة[1].. ثم نزل به أمر الله. فلما حُضر قلت له: يـا فـلان، إنى كنـت مع فلان فأوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فـإلى مـن توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال: والله ما أعلمه اليوم أصبح أحـد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تـأتيه؛ ولـكنه قـد أظل[2] زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم، يخـرج بـأرض العـرب، مُهاجَرُه أرض بين حَرَّتين[3] بينهما نخل؛ بـه عـلامات لا تخـفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خـاتم النبـوة.. فـإن استطعت أن تلحق بتلك البـلاد فـافعل. (قـال): ثم مـات وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث..

ثم مر بى نَفرٌ من بنى كلب تُجار، فقلت لهم: احملـونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغُنيمتى هذه. قالوا: نعـم،

(١) غنيمة: قليل من الغنم.

(٢) أظل: قرب.

(٣) الحرة: أى مكان هجرته ارض بين جبلين أسودين، يعنى المدينة.

فأعطيتهموها وحملونى معهم، حتى إذا بلغوا «وادى القرى»[1] ظلمونى، فباعونى من رجل يهودى عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى، ولم يحق فى نفسى[2].. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة، فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى لها؛ فأقمت بها.

وبُعِث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأقام بمكة، ما أقام ولا أسمع له بذكر، مما أنا فيه من شغل الرّق. ثم هاجر إلى المدينة. فوالله إنى لفى رأس عِذْق[3] لسيدى أعمل فيه بعض العمل، وسيدى جالس تحتى، إذ أقبل ابن عمّ له حتى وقف عليه، فقال : يا فلان، قاتل الله بنى قَيْلة[4]! والله إنهم لمجتمعون الآن فى «قُبَاء»[5]، على رجُلٍ قَدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبِىٌ.

(قال سلمان) : فلما سمعتها أخذتنى الرّعدة، حتى ظننت أنى

---

(١) واد بين المدينة والشام كثير القرى.

(٢) أى : لم استيقن من انه هو.

(٣) عذق : نخلة.

(٤) بنو قيلة : هم العرب الأنصار من الأوس والخزرج.

(٥) قباء : موضع على فرسخين من المدينة فى ناحية الجنوب، وهى من ضواحيها.

ساقط على سيدى. فنزلت من النخلة فجعلت أقول لابن عمه : ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدى، فلكمنى لكمة شديدة؛ ثم قال : مالك وهذا؟ أقبل على عملك! فقلت : لا شيء.. إنما أردت أن أستثبته عما قال..

(قال) : وقد كان عندى شيء قد جمعته[1]. فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندى للصدقة، فرأيتكم أحق من غيركم. (قال) : فقربته إليه. فقال، صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «كلوا».. وأمسك بيده فلم يأكل؛ فقلت فى نفسى : هذه واحدة. ثم انصرفت فجمعت شيئًا، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. (قال) : فأكل، ﷺ، منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان. (قال) : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغَرْقَد[2]، قد تتبع جنازة رجل من أصحابه، وعليه شَملتان وهو جالس فى أصحابه؛ فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره : هل أرى

(١) أى : شيء من الطعام.

(٢) بقيع الغرقد : جبانة أهل المدينة.

الخاتم الذى وصف لى صاحبى؟ فلما رآنى، ﷺ، استدبرته، عرف أنى أستثبت فى شيء وُصف لى؛ فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته؛ فأكببت عليه أقبّله وأبكى.. فقال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «تحول».. فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شُغل سلمانُ بالرق حتى فاته مع رسول الله «بَدْرٌ» و«أُحد». (قال سلمان): ثم قال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كاتب[1] يا سلمان». فكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة أحييها له بالفقير[2]، وأربعين أوقية. فقال صلى الله عليه وسلم، لأصحابه: «أعينوا أخاكم»؛ فأعانونى فى النخيل.. الرجل بثلاثين ودية[3]، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل عشرة، يُعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لى ثلثمائة ودية؛ فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم، : «اذهب يا سلمان فَفقِّرْ لها؛ فإذا فرغت أكن أنا أضعها بيدى»

---

(١) المكاتبة: أن يتفق العبد مع سيده على أن يشترى حريته منه بمبلغ من المال يدفعه إليه.

(٢) الفقير: الحفر فى الأرض.

(٣) الودية: النخلة حين تغرس وهى صغيرة.

(قال) : ففقرت وأعاننى أصحابى؛ حتى إذا فرغت جئته فأخبرته. فخرج رسول الله ﷺ معى إليها، فجعلنا نقرّب إليها الوَدِىّ، ويضعه، صلى الله عليه وسلم، بيده؛ حتى إذا فرغنا فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة! فأديت النخل وبقى المال .. فأتى رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال : «ما فعل الفارسى المكاتب؟».

(قال) : فدُعيت له. فقال : «خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان». قلت : وأين تقع هذه مما علىّ يا رسول الله؟ قال : «خذها، فإن الله سيؤدى بها عنك». قال : فأخذتها، فوزنت لهم منها - والذى نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعُتِق سلمان.. ! فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًّا، ثم لم يفتنى مشهد».

أحاديث الكهان

ولم يكن العلم بمبعث هذا الرسول مقصورًا على الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى، بل كان الكهان من العرب يعرفون كذلك شيئًا منه؛ إذ كان أتباعهم من شياطين الجن يذهبون إلى السماء، فيتخذون منها مقاعد للسمع، يسّمعون إلى

الملأ الأعلى، فيعرفون بعض أخبار السماء، ثم يعودون بها إلى أوليائهم من الكهان؛ فيشعوذون بها على الناس، ويخلطون الحق بالباطل. فلما ولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حُجبت الشياطين عن السمع، وملئت السماء بالشهب، فلم يكن شيطان يستطيع بعد ذلك أن يقترب منها.

وفى ذلك يقول ابن إسحاق: «وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، ﷺ، ولا يُلْق العرب لذلك بالاً، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون، فعرفوها. فلما تقارب زمان مبعثه ﷺ، حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعدها لاستراق السمع فيها، فرُموا بالنجوم، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عز وجل. (قال): وفى ذلك أنزل الله على رسوله سورة الجن..»

وفى هذه السورة يقول الله، عز وجل، على لسانهم: ﴿وأنَّا لَمَسنَا السماءَ فوجدناها مُلئت حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا * وأنا كنَّا نَقْعُدُ منها مَقاعدَ للسَّمْع، فمن يَستمع الآن يَجِدْ له شهابًا رَصَدًا

﴿ وأنا لا نَدرِى أشرٌّ أُرِيدَ بِمَن فى الأرض أم أراد بهم رَبهم رَشدًا﴾[1].

* * *

وأود أن أختم هذا الفصل بخبر طريق ذكرته كتب السيرة، لأنه فوق ما فيه من الطرافة لا يتعارض مع الحقائق التى سجلها القرآن الكريم، ولأنه من جهة أخرى يصور ناحية من نواحى العقيدة العربية كان لها فى حياة العرب أثر عظيم، حين كان العرب غارقين فى ظلمات الجاهلية الأولى، وقبل أن يسطع عليهم نور الإسلام فيكشف عنهم هذه الظلمات..

قصة سواد بن قارب

روى الحافظ أبو يَعْلَى المَوْصلىّ، عن محمد بن كعب القُرَظىّ قال: «بينما عمر بن الخطاب ذات يوم جالس، إذ مر به رجل، فقيل: يا أمير المؤمنين، أتعرف هذا المارّ؟ قال: ومن هذا؟ قالوا: هذا سَوَاد بن قارب، الذى أتاه رَئِيُّه[2] بظهور رسول الله، صلى الله عليه وسلم. (قال): فأرسل عمر إليه فقال له: أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم. قال: فأنت على ما كنت

(١) سورة الجن الآية ٨ - ١٠.

(٢) رئيه: تابعه من الجن. أى شيطانه الذى يناجيه بأخبار الغيب.

عليه من كَهانتك؟ فغضب وقال: ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين! فقال عمر: يا سبحان الله! ما كنا عليه من الشرك أعظمُ مما كنت عليه من كهانتك. فأخبرنى ما أنباك رَئِيُّك بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: نعم يا أمير المؤمنين..

بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتانى رَئِيِّى فضربنى برجله وقال: قم يا سوادُ بن قارب، واسمع مقالتى، واعقِلْ إن كنت تعقل.. إنه قد بُعث رسول من لؤىّ ابن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته. ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ للجنِّ وتَطْلابِها وشَدِّها العِيسَ بأَقْتابِها[1]
تَهوِى إلى مكةَ تبغِى الهدى ما صادقُ الجنِّ كَكَذَّابِها
فارحلْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشم ليس قُداماها كأَذْنابِها[2]

قلت: دعنى أنام، فإنى أمسيت ناعسًا...

فلما كنت فى الليلة الثانية، أتانى فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتى، واعقل إن كنت تعقل.. إنه

(١) تطلابها: اجتهادها فى البحث عن الحق، وأقتابها: إعدادها الإبل للرحيل.

(٢) يعنى رسول الله. ومجمل المعنى فى هذا الشعر أن الخيرين من الجن يبحثون عن الدين الحق، ويتلمسونه كما يتلمسه الخيرون من الإنس، يشدون الرحال إلى مكة من أجل ذلك، وأن هذا الدين قد جاء به رسول من صفوة بنى هاشم. فاذهب إليه.

قد بعث رسول من لؤى بن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته.
ثم أنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتجيارها ... وشدها العيسَ بأكْوارِها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين رَوَابيها وأحجارها

قلت : دعنى أنام، فإنى أمسيت ناعسًا..

فلما كانت الليلة الثالثة، أتانى فضربنى برجله وقال : قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتى، واعقل إن كنت تعقل.. ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتَحْساسِها ... وشدها العيس بأحْلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما خيِّر الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... واسْمُ بعينيك إلى رأسها

(قال) : فقمت فقلت : قد امتحن الله قلبى. فرَحلْت[1] ناقتى ثم أتيت المدينة - يعنى مكة - فإذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى أصحابه. فدنوت فقلت : اسمع مقالتى يا رسول الله، قال : «هات». فأنشأت أقول :

---

(١) فرحلت : أعددتها للرحيل.

أتانى نَجِىّ بعد هَدْء ورَقْدَة[1] ... ولم أكُ فيما قد تلوتُ بكاذب

ثلاثَ ليال قولُه كلَّ ليلة : ... أتاك رسولٌ من لؤى بن غالب

فشمَّرت عن ذيلى الإزارَ ووسَّطتْ ... بى الد عْلُبُ الوَجْناءُ عَبْرَ السَّباسِب[2]

فأشهد أن الله لا ربَّ غيرُه ... وأنك مأمونٌ على كل غائب[3]

فُرْنا بما يأتيك ياخيرَ مرسَل ... وإن كان فيما جئتَ شَيْبُ الذوائب[4]

وكن لى شفيعًا يوم لا ذو قرابة ... بمُغْنٍ فَتيلا عن سوادِ بن قارِب

(قال) : ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتى فرحًا شديدًا، حتى رئى الفرحُ فى وجوههم. (قال) : فوثب إليه عمر ابن الخطاب فالتزمه[5]، وقال : قد كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك؛ فهل يأتيك رَئِيُّك اليوم؟ قال : أما منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العِوض كتابُ الله من الجن!..».

---

(١) يعنى أن شيطانه أتاه وهو متاهب للنوم.

(٢) يعنى أنه أخذ أهبته للسفر، وركب ناقته وأخذ يقطع بها الصحراء، محتملا كل مشقاتها.

(٣) أشهد أنك صادق فيما تأتى به من اخبار السماء.

(٤) مهما كان فيه من مشقة وهول.

(٥) التزمه : احتضنه.

قبل البَعثة

ظهر الفساد فى البر والبحر

كانت حالة الناس قبل مبعث النبي محمد ﷺ قد وصلت من الفساد إلى النهاية، وبلغت البشرية الدرْك الأسفل من الانحطاط، وغشَّت العالم كله ظلمات كثيفة من الكفر والجهل والفجور، وغيَّر الناس وبدَّلوا فى الدين، وحرَّفوا كثيرًا مما أنزل الله على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهةً شتى..

فالبُوذيون كانوا يعبدون بُوذا، والهِندُوس كانوا يعبدون البقر، والمجوس كانوا يعبدون النار؛ وكانت أمم تعبد الملائكة والجن، وأمم تعبد الصور والتماثيل، وأمم تعبد أرواح الموتى وآثارهم؛ وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقدسها، منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الكواكب والنجوم، ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الحجارة. ﴿وقالت اليهودُ: عُزَيْرٌ ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابنُ الله﴾[1]؛ وتفرق أهل كل دين مذاهبَ وشيَعًا،

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

واشتد بينهم الخلاف والجدَل، حتى غدا الدين الواحد خليطًا من المذاهب المتناقضة.. وسادت الخرافات والأهام، وشاعت الإباحية والفوضى، وارتكبت الفواحش باسم الدين، و ﴿ظهر الفسادُ فى البرِّ والبحر بما كَسَبَتْ أيدِى الناس ليُذيقَهم بعضَ الذى عَملوا لعَلَّهم يرجعون﴾[1].

كان العرب أسوأ الناس حالا

وكان العرب أسوأ الناس حالا، وأشدهم إمعانًا فى الجهالة والضلالة؛ فقد أشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا، وعبدوا كل ما هبَّ ودبّ من الأصنام والأوثان، والأنصاب والتماثيل، والأشجار وكُثْبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر، والكواكب والنجوم والحجارة، تتصرف فى أمورهم وفى مستقبل حياتهم. وكان إيمانهم بالله إيمانًا مشوَّشًا مضطربًا؛ يعتقدون أنه الإله الأكبر، الذى يخلق ويرزق ويحيى ويميت، ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهةً أخرى تخَلّى لها، سبحانه، عن بعض التصرفات: كشفاء المرضى، ومنح الذّرّية، وإنزال الغيث، وتصريف الرياح، وإبعاد المجاعة، وكشف الضر، وجلب الخير؛ وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله، يتوسلون بهم

(١) سورة الروم الآية ٤١.

إليه فى طلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم ويستشفعون بهم لديه فى التجاوز عن ذنوبهم والعفو عنهم.

أغرقوا فى عبادة الأصنام

وبالغوا فى عبادة الأصنام حتى ملئوا بها الكعبة - البيت الحرام - وهى أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله وحده، فكان فى الكعبة ستون وثلثمائة صنم، وكان « هُبَلُ » و « اللاَّتُ » و « العُزَّى » رؤساءَ هذه الآلهة؛ هذا عدا ما هنالك من الأصنام المتفرقة فى القبائل، إذ كان لكل قبيلة صنم خاص بها، ولكل بيت صنم خاص بأهله؛ بل كان الرجل منهم إذا سافر، حمل معه صنمًا يتبرك به ويستبشر بصحبته. وكانوا يقدسون هذه الأصنام ويعبدونها، ويقرّبون لها القرابين ويذبحون الذبائح، ويستخبرونها فى أمور دنياهم، ويجعلون لها نصيبًا من أنعامهم وثمارهم.

ذكر ابن هشام أن الهَدْى والذبائح كانت تذبح عند صَنَمَىْ « أُسافَ » و « نائلة » قرْبَ الكعبة، وأن العرب كانوا إذا أرادوا أن يَختنوا غلامًا أو يعقدوا زواجًا، أو شكوا فى نسب أحدهم، أو أرادوا سفرًا أو تجارة، أو استخارة فى نازلة أو خلاف

أو مقصد.. ذهبوا إلى هُبَل - وكان صنمًا فى جوف الكعبة - فأعطوْا صاحب القِداح مائة درهم وجَزُورًا[1]، وطلبوا منه أن يضرب لهم بالقداح على الأمر الذى أرادوا أو اختلفوا فيه؛ وكان على القداح كلماتُ أمر ونْهى و «نعم» و «لا».

استقسموا بالأزلام

وذكر الخازن عند تفسير قوله تعالى: ﴿وأن تَسْتَقْسِمُوا بالأزْلام﴾[2] أنه كان لهم سبعة قداح، مكتوب على أحدها: «أمرنى ربى»، وعلى ثانيها: «نهانى ربى»، وعلى ثالثها: «منكم»، وعلى رابعها: «من غيركم»، وعلى خامسها: «مُلْصَق»، وعلى سادسها: «العَقْل»[3]، وسابعها: غُفْل لا كتابة عليه. فكانوا إذا أرادوا سفرًا أو تجارة، أو اختلفوا فى نسب أو قتيل أو حمل دية أو نحو ذلك، جاءوا إلى هبل - وكان أعظم أصنام قريش - وأعطوْا مائة درهم إلى صاحب القداح، فأجالها - أى خلطها - ثم استخرج واحدًا منها؛ فإن خرج «أمرنى ربى» فعلوا الأمر الذى استخاروا فيه، وإن خرج «نهانى ربى» لم يفعلوه؛ وإن كانت الاستخارة فى نسب وخرج

---

(١) جزورًا: ناقة أو جملا.

(٢) سورة المائدة الآية ٣.

(٣) العَقل هنا بمعنى الدية التى تدفع عوضًا عن القتيل.

« منكم » ألحقوه بهم، وإن خرج « من غيركم » أخرجوه منهم، وإن خرج « ملصَق » كان النسب المدَّعَى به افتراءً؛ وإن كانت الاستخارة فى الدية وخرج « العقل » تحمَّلوه.

وذكر ابن كثير فى تفسيره أنها عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب « افعل »، وعلى الآخر: « لا تفعل » والثالث غُفْل ليس عليه شيء.. فإذا أجالها بطلع سهم الأمر فعله، أو النهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاده.

ولعل ما كتبه المستشرق الفرنسى إميل درْمنْغمْ فى كتابه « حياة محمد »[1] يعطى عن الأزلام وطريقة استعمالها فكرة أكثر وضوحًا وتفصيلا، وذلك حيث يقول: « وعند هبل كان يُستقسَمُ بالأزلام، أى يُضرب بالقداح السبعة المكتوب على كل واحد منها واحدة من الكلمات: « أمرنى ربى. نهانى ربى. منكم. من غيركم. ملصَق. العقل. غُفْل ». فإذا أرادوا الوقوف على الأمر الذى تصدَّوْا له، ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر، استقسم لهم أمين القداح بقِدْحى الأمر والنهى؛ فإن خرج قِدْح الأمر ائتمروا، وباشروا ما تصدَّوْا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء، أو نحو ذلك مما يتفق لهم؛ وإن خرج قدح النهى أخروا

(١) ترجمة الأستاذ عادل زعيتر.

ذلك العمل إلى سنة، فإذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى.. وإذا وقعت منازعة فى نسب أحد منهم، استقسم لهم أمين القداح بالأزلام الموسومة «منكم. ومن غيركم. وملصق»؛ فإن ظهر «منكم» أعزُّوا ذلك الذى اشتبهوا فى نسبه، وإن ظهر «من غيركم» نفروا منه وتجنبوه، وإن ظهر «ملصق» بقى مجهول النسب عندهم على ما كان عليه من قبل.. وإذا تنازعوا فى العقل - وهى دية المقتول - بأن اشتبه عليهم القاتل، أحضروا من اتهموا بالقتل واستقسم لهم الأمين بالقدحين الموسومين «بالعقل والغفل»، فمن خرج عليه العقل تحمل الدية، وإن خرج الغفل أجالوا ثانيًا حتى يخرج المكتوب عليه».

ومهما يكن من اختلاف الروايات فقد كانت «الأزلام» هى وسيلتهم التى يستخدمونها فى استخارة أصنامهم، يطلبون بها بيان ما قُسم لهم فى ضمير الغيب، وما يكون فيه البركة والخير لهم، وحين تظهر النتيجة يعتبرونها حكم الآلهة، فلا يَحيدون عنه ولا يخرجون عليه. ومن هنا كانت الأزلام شديدة التأثير فى حياتهم، فلا يُبرمون أمرًا ولا يَنقُضونه إلا بوحيٍ منها، لأن حكمها - فى زعمهم - إنما هو حكم الآلهة. فالبرىء عندهم متهم إذا هى حكمت باتهامه، والمتهم برىء إذا هى حكمت ببراءته؛ والصواب خطأ إذا هى حكمت بخطئه، والخطأ صواب

إذا حكمت بإصابته. وهكذا كانت أحكامهم فى كثير من شئونهم قائمة على الظن والتخمين، لا على الحق واليقين.

أشركوا الأصنام فى حرثهم وأنعامهم

وكانوا يجعلون من زرعهم وأنعامهم نصيبًا لله ونصيبًا لآلهتهم؛ فيصرفون ما يجعلونه لله على الضيوف والفقراء، وينفقون ما يجعلونه للآلهة على الأوثان وخدمتها؛ فإن سقط شيء مما جعلوه لله فى نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غنى عنه، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إليه وقالوا إنها فى حاجة إليه؛ وإذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك شيء مما جعلوه للأوثان عوضوه مما جعلوه لله؛ وإذا رأوا ما جعلوه لله ناميًا زاكيًا جعلوه للأوثان، وبادلوا بينه وبين ما كان لله. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وجعَلوا لله مما ذَرأ[1] من الحرْث[2] والأنعام نصيبًا، فقالوا: هذا لله - بزعمِهم - وهذا لشُركائنا، فما كان لشركائهم فلا يَصلُ إلى الله، وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم، ساء ما يحكمون!﴾[3].

---

(١) ذرأ: خلق.

(٢) الحرث: الزرع.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٣٦.

جعلوا الملائكة بنات الله

وكانوا يؤمنون بأن الملائكة بنات الله، وأنه - سبحانه - أصهر إلى الجن، أى تزوج منهم، فأنجب منهم الملائكة؛ فكانوا يعبدون الملائكة على أنهم بنات الله، ويعبدون الجن على أنهم أصهاره. وكانوا يخافون الجن خوفًا شديدًا، ويعتقدون أنهم أرواح شريرة، لا عمل لها إلا الشر والأذى، فكانوا يتقون أذاها بالتعاويذ والرُّقَى والتمائم؛ وإذا نزل الواحد منهم بواد موحش ظن أنه مسكن الجن، فيقول: «أعوذ بسيد هذا الوادى»! معتقدًا أنه متى استعاذ بسيد الجن من شرهم فلن يضروه بشىء. وكانوا يعتقدون أن الجنون من مس الجن، وأن لكل كاهن رَئيًّا من الجن يمده بأخبار الغيب، وأن لكل شاعر شيطانًا يمده بما يقول من الشعر.

آمنوا بالخرافة

وكانوا يؤمنون بالفَأل والطِّيَرَة، وبالكهانة والعِرَافة؛ فإذا خرجوا إلى سفر أو عزموا على أمر، ثم مر بهم طائر عن يمينهم، تفاءلوا واستبشروا وأتموا سفرهم أو عزمهم وإذا مر عن شمالهم تشاءموا وتطيَّروا وعدلوا عما عزموا، عليه، وإذا أهمهم

أمر أو اختلفوا فيه ذهبوا إلى كاهن أو عَرَّاف، فعرضوا عليه أمرهم، واستمعوا لحكمه مهما كان خطأ أو صوابًا. وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تتقمّص جسم طائر يسمى «الهامّة»، وتظل حول قبره تنادى: «اسقونى... ! اسقونى.. !» حتى يأخذ أهله بثأره؛ فإذا أخذوا بثأره سكتت الهامة وانصرفت.

وكانت لهم فوق ذلك خرافات عجيبة فى أنعامهم
وزروعهم، يحرمون منه
يقولون: هذا الجمل
لا تُركب ولا تُحلب ولا
لا تذبح ولا تحبس؛
ولا يأخذون منه؛ وها
لا يُذكر اسم الله عل
سبحانه: ﴿وقالوا:
إلا من نشاءُ - بزَعْ
لا يذكرون اسم الله
يفتّرون ﴾ وقالوا: ما فى بطونِ هذه الانعام خالصة لذكورنا

(١) حجر: أى محجوزة ومحرمة.

ومُحَرَّمٌ على أزواجِنا، وإنْ يَكُنْ مَيْتَةً فهم فيه شركاء سيجزِيهم وَصْفَهم إنه حَكيمٌ عَليمٌ﴾[1].

قامت حياتهم على الظلم

أما نظام حياتهم فكان قائماً على ظلم القوى للضعيف، وتحكم القادر فى العاجز، وكان اعتمادهم فى انتزاع الحق على القوة وحدها، فكانت الإغارة والسلب والنهب، والأخذ بالثأر وحب الانتقام، هى العلاقة التى تربط بين القبائل بعضها وبعض، حتى صارت الحروب نظامَهم المألوف وحياتهم المعتادة؛ وكانَت مناقشةٌ تافهة تكفى لإشعال حرب طاحنة، وثارات يتوارثها الخلَف عن السلف؛ وكان القتال إذا اشتعلت ناره دام عدة سنين، وقد يدوم عدة أجيال، حتى غدا تاريخهم فى الجاهلية سلسلة من الحروب الداخلية لا تكاد تنتهى. ولم يكن لهم نظام جامع ولا حكومة موحَّدة، بل كانوا قبائل متفرقة، كل قبيلة تؤلف وَحدة قائمة بذاتها، مستقلة فى نظامها وتقاليدها وأحكامها.

(1) سورة الأنعام آيتا ١٣٨، ١٣٩.

جعلوا المرأة نوعًا من المتاع

ومن مظاهر الظلم فى حياتهم أن المرأة كانت فى نظرهم نوعًا من المتاع، فلم يكن لها نصيب من الميراث، بل كانت هى نفسها تورَث مع التركة؛ وكان للوارث فيها مطلق التصرف، فإن شاء تزوجها، وإن شاء زوجها من غيره. ولم يكن للزواج عندهم حدود ولا للطلاق قيود؛ فللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء، وله أن يطلّق المرأة متى شاء ويراجعها متى شاء، دون أن يكون لها فى ذلك رأى؛ وله أن يعلّقها بين الزواج والطلاق، فلا هى زوجة لها ما للزوجة من حقوق، ولا هى مطلقة تملك أمرها وحريتها... إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال. وبعض الجوارى كن يُرغَمْن على كسب المال بأعراضهن إرضاء لسادتهن.

وكانت الأنثى على العموم مَجلبة الحزن ومظنّة العار، فكان العربى يحزن أشد الحزن إذا ولدت له أنثى، وبعضهم كان يئد البنات[1] مخافة العار والفقر؛ وكان الاتفاق يجرى عند عقد العقد أحيانًا على قتل السُّلالة من البنات. وفى ذلك يقول الله تعالى:

---

(١) يئد: يدفنهن أحياء.

﴿وإذا بُشِّر أحدهُم بالأنثى ظَلّ وَجهه مُسْودًّا وهو كظَيم * يتَوارَى من القومِ من سُوءِ ما بُشر به، أيُمْسِكُهُ على هُون أمْ يَدُسُّه فى التراب ألا ساءَ ما يحكمون﴾[1].

كانت الدنيا همهم

وكان الربا والخمر والميسر من ضرورات حياتهم؛ وكان السكر والعَرْبَدَة وانتهاك الأعراض من المفاخر التى يتغنون بها فى أشعارهم ومجالسهم؛ وكانت اللذة والمتاع أسمى ما تصبو إليه نفوسهم. فكان همهم الطعام والشراب وانتهاب الملذات قبل أن يدركهم الموت؛ أما ما وراء الموت فلم يكن فى حسبانهم قط، إذ كانوا يعتقدون أن الحياة هى الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، أما البعث بعد الموت فكانوا يظنونه أمرًا مستحيلا، ﴿وكانوا يقولون أئِذامِتْنا وكنّا ترابًا وعِظامًا أئِنّا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون﴾[2]. فليس من الممكن - فى زعمهم - أن يحيا الإنسان مرة أخرى، بعد أن يموت ويبلى ويصير ترابًا؛ بل كانوا يعُدّون الكلام فى ذلك ضَرْبًا من الجنون، ﴿وقال الذين كفروا : هل ندُلُّكُمْ على رجُلٍ يُنَبِّئُكم إذا مُزِّقتُمْ كل مُمزق إنكم لَفِى خَلْقٍ

---

(١) سورة النحل آيتا ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة الواقعة آيتا ٤٧، ٤٨.

جديد * أَفْتَرَى على الله كَذِبًا أم بـه جِنَّـة * بـل الـذين لا يُؤْمِنُون بالآخرةِ فى العذابِ والضلالِ البعيدِ﴾[1].

العنصر العربى

« نعم، كان فى العرب فضائلُ عنصرية وطباع كريمة، وسجايا ذات وزن كبير فى مقياس الرقى الإنسانى، من ذكاء ونبل شجاعة ووفاء وصدق وجود.. إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة المشهورة فى الأمة العربية؛ ولكن لم تكن كل مزاياها المعروفة لتمنع من أن تكون حياتها حياةً جاهلية صَمَّاء، وخاصة فى عقليتها ودينها وعاداتها؛ لأن تلك المواهب العنصرية الكامنة فيها لم تكن موجهة توجيها صالحا، بل لم يكن لها موجه أصلا يسيطر على قوتها وفاعليتها، ويبنى بها الحياة الصالحة، ويخرج منها أطيب الثمرات »[2].

وكثيرًا ما كانت الهمجية تسيطر على تلك الشيم فتفسدها، وتخرجها من جوّ الفضيلة إلى جو الرذيلة. على أنها مع ذلك كانت فضائل شخصية، وصنائع فردية لا أثر لها فى بناء المجتمع؛ فكانت الأمة العربية بذلك أشبه بالأرض الطيبة التى

---

(١) سورة سبأ آيتا ٧، ٨.

(٢) من مقال للأستاذ مصطفى الزرقا فى السنة الأولى من مجلة لواء الإسلام - بتصرف.

أُهملت زراعتها، فامتلأت بالحشائش والنبات الشطآنى، مما قد يكون منه بعض الزهر والثمر، ولكنه شيء لا يسمن ولا يغنى من جوع.

لذلك لم تغن عنهم شيئًا هذه الصفات الجميلة، ولم تَحُلْ بينهم وبين ما كانوا يفعلون من المنكرات، فغطت رذائلُهم، فضائلهم، ومحت سيئاتُهم حسناتهم.

أين دين الحق؟

هذا الجهل الذى أفسد دينهم وزلزل عقائدهم، وهذه الخرافة التى سيطرت على عقولهم وقلوبهم، وهذه الفوضى التى سادت نُظُمَهم وتقاليدهم، وهذه البهيميَّة التى صبغت حياتهم، وهذه العداوة التى مزقت وحدتهم، وهذه الحروب التى أنهكت قواهم... هذه الجهالة الجهْلاء والضلالة العمياء، التى جعلت نفرًا من حكمائهم يفكرون فى أمر دينهم، ويتساءلون فيما بينهم: أهذا هو الدين الذى يرضاه الله لعباده؟ أهذه هى الحياة التى تليق بالإنسان؟ ألم يُخلق الإنسان إلا ليأكل ويشرب ويقضى مآربه وشهواته؟ ما الفرق بينه إذن وبين الحيوان الأعجم؟...

وجعلوا يتلفتون حولهم لينظروا أى دين هو أهدى إلى الصواب وأقرب إلى الحق!... أهو دين النصارى؟ أم هو دين

اليهود؟ أم هو دين المجوس؟... أما المجوس فهم والعرب سواء فى الضلال، وأما اليهود والنصارى فقد غيروا وبدلوا وتفرقوا واختلفوا، ﴿وقالت اليهودُ: لَيْسَت النصارَى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهودُ على شيء، وهم يَتْلُون الكتاب﴾[1]، و﴿اتَّخذوا أحْبارَهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله﴾[2]، وسارعوا كما يسارع غيرهم فى الإثم والعدوان وأكل الحرام وافتراء الكذب... فليس اليهود والنصارى إذن على شيء وليس الدين الذى يدينون به على ما أنزل الله... فأين الدين الذى يرضاه الله لعباده؟.

العقلاء يبحثون عن دين إبراهيم

كانت هذه الحيرة تشغل بال المفكرين من حكماء العرب وعقلائهم، فداروا يبحثون عن الحنيفية السَّمْحة: ﴿مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ومَا كَانَ مِنَ المشركين﴾[3]... فإبراهيم أبو العرب، وهو الذى بنى أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله وحده، فهم أولى الناس بأن يَدينُوا بدينه ويتبعوا ملته؛ فليس فى غير ملة إبراهيم مخرج من هذا الضلال.

(١) سورة البقرة الآية ١١٣.
(٢) سورة التوبة الآية ٣١.
(٣) سورة النحل الآية ١٢٣.

وهكذا جعلوا يتلمسون ملة إبراهيم فى كل دين، فمنهم من حَسبها فى اليهودية فتَهوَّد، ومنهم من حسبها فى النصرانية فتنصّر، ومنهم من دار يبحث عنها فى نواحى الأرض، ومنهم من تَوهمها توهمًا وظنها ظنًا، فجعل يعبد الله على نحو ما هداه وهمه وظنه.

ذكر ابن إسحاق أن قريشًا اجتمعت يومًا فى عيد لهم، عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، وينحرون له ويطوفون به؛ فخلَص منهم أربعةُ نفرٍ يتناجَوْن، وهم: وَرَقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحوَيْرِث، وزيد بن عمرو ابن نُفَيْل... فقال بعضهم لبعض: «اعلموا - والله - ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم!... ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟.. يا قوم، التمسوا لأنفسكم دينًا غير هذا الدين، فإنكم - والله - ما أنتم على شيء!...» فتفرقوا فى البُلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية[1] واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علمًا من أهل الكتاب؛ وأما عبد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًا؛ وأما عثمان

---

(١) استحكم: توغل فيها وأمعن.

ابن الحويرث فقدم على «قيصر» ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده؛ وأما زيد بن عمرو بن نفيل فطوّف فى الشام والعراق ثم عاد، فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميْتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبدُ رب إبراهيم؛ ونادى قومه بعيب ما هم عليه.

قالت أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنهما: لقد رأيت زيد ابن عمرو بن نفيل شيخًا كبيرًا، مُسندًا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: «يا معشر قريش، والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى!» ثم يقول: «اللهم لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكنى لا أعلمه!» ثم يسجد على راحته.

ويقال: إن له فى ذلك شعرًا يقول منه:

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب أدينُ[1]، إذا تقسمت الأمور
عزَلت[2] اللاتَ والعزى جميعًا كذلك يفعل الجلْد[3] الصبور
ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الربُّ الغفور

(١) أدين: أعبد.

(٢) عزلت: هجرت.

(٣) الجلد: الحازم العاقل.

وكان من هؤلاء الذين سئموا دين الجاهلية وعبادة الأوثان؛ أبو قَيْس بن الأسْلَت فى المدينة؛ فقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن ابن إسحاق، وسعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه، قالا : إن أبا قيس هذا كان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسُوح وفارق الأوثان... وهمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له فاتخذه مسجدًا، لا يدخل عليه فيه حائض ولا جُنُب، وقال : أعبد إله إبراهيم. حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم فحسُن إسلامه.

* * *

وهكذا كانت حالة العرب، وكانت حالة العالم كله، فى أشد الحاجة إلى رسول من عند الله، ينقذ الناس من هذا الضلال، ﴿ويخرجُهم من الظُّلمات إلى النُّور بإذنه، ويهْديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾[1].

(١) سورة المائدة الآية ١٦.

ليلة القدر

هموم العظيم

غَنِيَ رسول الله ﷺ بعد زواجه بالسيدة خديجة، وتوفرت له أسباب الراحة والغنى وطمأنينة النفس؛ فقد كفاه الله مئونة السعي المُمِضّ[1] في سبيل العيش، وأغناه عن الأجر القليل الذى كان يتقاضاه من رعاية الغنم لأهل مكة، بما أفاض عليه من الخير في تجارة زوجه خديجة. وأسلمت له خديجة زمامها إسلام الواثق المطمئن، وفوضت إليه الأمر في تجارتها، يتصرف فيها تصرف المالك، وينتقل بها بين البلاد في نشاط وأمانة وحذق: يذهب أحيانًا إلى الشمال وأحيانًا إلى الجنوب، وأحيانًا إلى الشرق وأحيانًا إلى الغرب.

وبارك الله لهما في تجارتهما فأدرَّت عليهما المال الوفير والخير الكثير، وأتم عليهما نعمة الوفاق والإخلاص والحب، فعاشا زوجين هانئين. وفي ظل هذه السعادة السابغة أنجبت خديجة

(١) الممض: المجهد الشاق.

البنين والبنات، فامتلأ البيت بهجة، وفاض جوه بالأنس والمرح، وبات محمد فى مكة مثلا يُضْرَبُ للرجل السعيد.. حب ووفاق، ومال وبنون، وخُلُق وجمال، وحسب ونسب، وثقة وطمأنينة، وهدوء بال وسعادة حال!.. ماذا يَنْشُدُ المرء بعد ذلك من أسباب السعادة؟

لكن محمدًا برغم ذلك كله كان دائم التفكير كثير الصمت، ميالا إلى العزلة والانقباض عن الناس، كأنما يحمل فوق ظهره حملا ثقيلا من الهم، لا يستطيع النهوض به ولا الفكاك منه. ماذا كان يَحزُنه؟ لم يكن فى بيته سبب من أسباب الحزن حتى يحزن ويكتئب، اللهم إلا أن طفلا أو طفلين من أولاده ماتا؛ ولكن هذا ليس بالشيء الذى يرهق الرجل العظيم ويَئُوده[1]، فالأولاد كثيرًا ما يموتون، فيحزن الآباء والأمهات لموتهم حينًا من الدهر، ثم تمر الأيام فتُنْسى من أمرهم كل شيء، وتعود الحياة إلى ما كانت عليه من النشاط والبهجة.

ماذا كان يحزن هذا الرجل العظيم إذن؟ وما الذى كان يباعد بينه وبين الناس، ويحبّب إليه الخلوة والانفراد؟ وفيم كان تفكيره الدائم وصمته الطويل؟ لا شك أنه شيء عظيم ذلك

(١) يئوده : يشق عليه احتماله.

الذى كانَ يشغل باله ويقلق راحته؛ فقد عُرف، صلى الله عليه وسلم، بالجدّ والتطلع دائمًا إلى معالى الأمور.

كان يحزنه حال قومه

نعم، كان يحزنه حال قومه العرب، إذ كانوا على حال من الفساد تزعج كل ذى ضمير حىّ؛ فقد فسدت عقائدهم وسيطرت عليهم الخرافات والأوهام، وانحدروا مع شهواتهم انحدار البهائم، وتناحروا فيما بينهم تناحر الوحوش، حتى غدوا أحط الأمم شأنًا وأشدها فوضى، وطمع فيهم عدوهم من الفرس والروم والأحباش فانتقصوا بلادهم من أطرافها، وهم فى غفلة ساهون عن مصيرهم، ﴿يَتَمتعُون ويأكُلُون كَما تأكُل الأنعام﴾[1]، ويتفاخرون بالآباء والأجداد، ويتكاثرون بالأموال والأولاد.

كان، صلى الله عليه وسلم، ينظر فى أحوالهم، فيَهُوله ما هم عليه من الجهل والفساد، ويحزنه ما هم فيه من الغفلة والضلال، ويقلقه مصيرهم الذى يصيرون إليه؛ فيفكر ويطيل التفكير فى أمرهم، ويتمنى أن لو صلَحَ حالهم، وانكشفت عن أبصارهم هذه الغشاوة، فأبصروا الطريق وساروا على الجادّة. ولكن كيف السبيل إلى صلاحهم وقد جمدت عقولهم وعميت

(١) سورة محمد الآية ١٢.

بصائرهم، وتحكمت فيهم التقاليد والعادات تحكما لا أمل فى الخلاص منه.

أين الطريق؟

من أجل هذا كان، صلى الله عليه وسلم، كثير الهم والتفكير، دائم التأمل والصمت، يقلب وجوه الرأى فيا يرى من سوء الحال فى قومه، ويلتمس الوسيلة للخلاص منه... يرى إمعانهم فى الضلال وإغراقهم فى الجهالة، فيسوءه ذلك غاية الإساءة، ويحزنه غاية الحزن، ويتلمس وجه الصواب فى هدايتهم إلى الطريق فلا يعرف أين الطريق...! بمن يستعين فى هذه الحيرة؟ وبمن يسترشد فى هذا الضلال؟ وبأى دين تصلح هذه النفوس الجامدة، وتحيا هذه القلوب الخامدة؟

ها هم أولاء أهل الدين من اليهود والنصارى، لا يقلون فى أحوالهم فسادًا عن العرب؛ فهناك شَوْب من الشرك يشوب عقائدهم، وكثير من السيئات تدنس أعمالهم، ﴿وَتَرى كثيرًا منهم يُسارعون فى الإِثْمِ والعُدْوَان وأكْلِهِم السُّحْت، لَبِئْسَ ما كانوا يعملون * لَوْلا يَنْهاهُم الرَّبَّانِيُّونَ والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾[1] بل ﴿إن كثيرًا

---

(١) المائدة آيتا ٦٢، ٦٣.

من الأحبارِ والرُّهْبَان ليأكلُون أمْوَال النَّاسِ بِالْباطلِ وَيَصُدُّون عن سَبِيل الله﴾[1]...

ليس هؤلاء - إذن - بأرشدَ من أولئك، فكيف السبيل إلى إصلاح هؤلاء وهؤلاء؟ وما العمل لتقويم هذه العقائد الباطلة، وإيقاظ هذه القلوب الغافلة؟ ما أشدَّها حيرةً على الصِّدِّيقين!.. وما أعظمها ظُلمة تغشِّى طريق السالكين المخلصين!.. وما أثقله حملا تنوء به الجبال، وتعيا به همم الرجال!...

كان هذا الهم الثقيل هو الذى شغَل به رسول الله ﷺ باله، وأقْلق من أجله راحته؛ وكانت هذه الحيرة الشديدة هى التى يضيق بها صدره، وتنقبض لها نفسه، فكان يفرّ بهمِّه إلى الخلوات ويأوى إلى الجبال والغيرانِ[2]؛ وهنالك يخلو إلى نفسه فى عزلة من الناس، يتفكر ويتأمل، ويتوجه بقلبه وجوارحه إلى الله بارئ السموات والأرض، أن يشرح له صدره بنور الحق، وأن يخرجه من هذه الحيرة، ويهديه سواء السبيل.

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

(٢) الغيران: الكهوف.

غار حراء

واختار، صلى الله عليه وسلم، «غار حراء» فاتخذه مكانًا لخلوته؛ وهو كهف صغير بأعلى جبل حراء، فى الشمال الشرقى من مكة، على نحو ثلاثة أميال، فى مكان منقطع عن العمران، خال من النبات والزرع؛ يمشى السائر إليه نحو ساعتين ويصعد نحو ساعة، حتى إذا وصل إليه وجده كهفًا موحشًا رهيبًا، يزيد فى وحشته ظلامه الشديد، وبُعده النائى، وعزلته عن الناس، ووعورة الطريق إليه، إذ هو يقع على مقربة من القِمة، خلف صخرتين عظيمتين تقومان عند مدخله، لا يخلُص الداخل منهما - مهما كان نحيفًا - إلا بعد مشقة وجَهد، لشدة ما بينهما من تقارب واتصال، فإذا تخطّاهما وجد الغار من ورائهما داخلا فى الجبل، محجوبًا عن كل ما حوله بالصخور الضخمة، ووجده أشد من كل ما فى الجبل عزلة ورهبة؛ يسوده الظلام الحالك، ولا يتسع لأكثر من شخص واحد، ينام فيه نومًا جافيًا خشنًا.

فكان، صلى الله عليه وسلم، يأوى إلى هذا الغار، فيعتكف فيه أيامًا وليالى، يتعبد ويَتحنّف[1] على نحو ما كانت قريش تفعل

(١) التحنف : من الحنيفية دين إبراهيم، وهى عبادة الله وحده. وقد كان بعض رجال قريش يفعلون ذلك.

فى الجاهلية، ويتزوّد لذلك بما يكفيه من الطعام والشراب. ويقول الرواة: إنه، صلى الله عليه وسلم، كان يجاور فى ذلك الغار شهرًا من كل سنة، فإذا قضَى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به أن يقصد إلى الكعبة، فيطوف بها ما شاء الله أن يطوف، ثم يرجع إلى بيته.

على أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن فى ذلك مقلِّدًا لغيره ممن عاصروه أو سبقوه من حنفاء العرب، بل كان ذلك إلهامًا من الله، وتهيئة لإشراق نور النبوة على نفسه الطاهرة الزكية؛ فقد «حُبِبَ إليه الخلاءُ» كما قالت عائشة، رضى الله عنها، وأولعت به نفسه ولعًا شديدًا، فلم يكن شىء أحبَّ إليه من أن يخلو وحده، وأن ينفرد بنفسه فى ذلك المكان النائى، بعيدًا عن الناس وعن ضوضاء الحياة؛ يقلب بصره فيما حوله من مظاهر الكون، و يُجيل بصيرته فيما شاء الله من ملكوت السموات والأرض، ويقضى نهاره صائمًا وليله قائمًا، متطلعًا إلى مشارق النور الإلهى الذى تهيأت له نفسه، واستشعرته بصيرته، واستشرف له فؤاده، وتفتحت له روحه. فكانت الرؤيا الصادقة أول ما أشرق عليه من نور النبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح؛ وكان إذا خلا وحده رأى ضوءًا وسمع صوتًا، حتى خشى على نفسه أن يكون قد أصابه ضرّ؛ فكان يفضى إلى

زوجه خديجة بمخاوفه. ويقول لها: «إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء، وقد خشيت - والله - أن يكون لهذا أمر!..» فتطمئنه خديجة وتقول له: «معاذ الله! ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم وتصدق الحديث».

ليلة القدر

وما زالت إشراقات النور الإلهى تتوالى عليه وهو فى خَلَواته تلك، حتى كانت تلك الليلة المباركة، «ليلة القدر» التى هى خير من ألف شهر، إذ تفتحت فيها بركات السماء على الأرض، وظهرت فيها بشائر رحمة الله لعباده، فنزل فيها الرُّوحُ الأمين «جِبريل» بوحى الله سبحانه، على رسوله محمد، ﷺ.

فكانت فاتحة عهد جديد، وبدءَ مرحلة حاسمة فى تاريخ الناس كافة، تغير بها وجه التاريخ كله، وتطورت حياة العرب تطورًا عجيبًا، واتجهت البشرية فى عقائدها وعباداتها وأخلاقها نحو الصواب؛ وكان ما أنزل الله من الوحى على رسوله فتحًا مبينًا فى حياته، صلى الله عليه وسلم، شرح الله به صدره، ورفع له ذكره، وبدل عسره يسرًا، ووضع عنه ما أنقض ظهره من أوزار

القلق والحيرة[1]، وهداه إلى الدين الذى ينقذ قومه من الهلاك، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور.

اقرأ باسم ربك

كان ذلك فى شهر رمضان سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح، عليه السلام، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره؛ وكان قد خرج فى ذلك الشهر إلى جواره فى غار حراء، كما كان يخرج فى كل سنة؛ وكان الوقت ليلاً، والسكون شاملاً، ورسول الله ﷺ قد فرغ من عبادته واستسلم للنوم؛ وبينما هو نائم جاءه جبريل بأمر الله تعالى..

وفى ذلك يقول، صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عُبيد بن عُمير: «فجاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج[2] فيه كتاب، فقال: اقرأ.. قلت: ما أقرأ.. (قال): فغتنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ.. قلت: ما أقرأ.. (قال): فغتنى[3] حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى[4] فقال: اقرأ!.. قلت: ما أقرأ!.. (قال): فغتنى حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى،

(١) أنقض ظهره: أثقله. والأوزار: الأحمال.
(٢) الديباج: الحرير.
(٣) غتنى (بالتاء والطاء): ضغطنى وعصرنى.
(٤) أرسلنى: تركنى.

فقال : اقرأ !.. قلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى، فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].. (قال) : فقرأتها.. ثم انتهى فانصرف عنى، وهَبَبْت من نومى فكأنما كُتبت فى قلبى كتابًا..

«قال : فخرجت، حتى إذا كنت فى وسط الجبل، سمعت صوتًا من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٌ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. (قال) : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى فى آفاق السماء، فلا أنظر فى ناحية إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى، حتى بعثت خديجة رسُلها فى طلبى، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك.. ثم انصرف عنى، وانصرفت راجعًا إلى أهلى».

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥.

خديجة تبشر الرسول وتثبته

ورجع، صلى الله عليه وسلم، يَرجُف فؤاده من الروع[1]؛ فلما انتهى إلى زوجه خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه. فأفزعها ذلك، فقامت إليه فجعلت تمسح عن وجهه وتقول: «لعلك لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم!».. فقال: «يا خديجة، أرأيت الذى كنت أرى فى المنام، والصوت الذى كنت أسمع فى اليقظة وأهال منه[2]؟.. فإنه جبريل قد استعلن لى وكلمنى، وأقرأنى كلامًا فزِعت منه، ثم عاد فأخبرنى أنى نبى هذه الأمة!..» قالت خديجة: «أبشر يا بن عمّ واثبت!.. فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة!..».

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل.. فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع. فقال ورقة: «قدوس! قدوس!.. والذى نفسُ ورقة بيده لئن كنتِ صدقتِنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس[3] الأكبر، الذى

(١) الروع: الفزع.

(٢) أهال: أرعب.

(٣) الناموس: الوحى.

كان يأتى موسى، وإنه لنبى هــذه الأمـــة.. فقــولى لـــه: فليثبُت!..» فـرجعت خـديجة إلى رسـول الله، صلى الله عليـه وسلم، فأخبرته بقول ورقة بنْ نوفل.

ثم التقى رسول الله ﷺ وهو يـطوف بـالكعبة بـورقة بـن نوفل، فقال له: يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت. فـأخبره رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقـال ورقـة: «والـذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقـد جـاءك النـاموس الأكبر الـذى جاء موسى، ولـئن أدركنى يـومك لأنصرن الله نصرًا يعلمـه!.. ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك!..» فقـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «أو مخرجى هم؟..» قال: «نعم، لم يـأت أحـد بمثل ما أتيت به إلا عُودِى!..» ثم لم يلبـث ورقـة أن تُـوفى، وفتر الوحى عن رسول الله ﷺ، وانقطع عنـه جـبريل فـلم يعـد يواصله بوحى السماء كما كان يتوقع، واستمر على ذلك مدة.

فترة الوحى

لم يكن رسول الله ﷺ يتوقع أن يفـتُر عنـه الـوحى، بعــد الذى سمعه من جبريل، وبعد الذى سمعه من ورقة بـن نـوفل، فلما فتر عنه الوحى حزن حزنًا شـديدًا، وذهبـت بــه الــظنون

مذاهب شتى، وجعل يتردد على غار حراء فيعتكف فيه كما كان يعتكف، ويخرج إلى رءوس الجبال فيتطلع منها فى نواحى السماء، لعله يرى جبريل أو يسمعه، ولكن جبريل لم يظهر له ولم يخاطبه بشىء.

وكان أخشى ما يخشاه أن يكون ما سمعه فى الغار ليس بوحى، وما رآه فى الأفق ليس بملك، وأنه قد خُيل له ما يُخيل للكهان من شياطينهم؛ فكان إذا مرّ بذهنه هذا الخاطر انقبض له صدره، وضاقت به نفسه، وذهب إلى خديجة يُفضى إليها بهمه وحزنه، ويشكو لها ما يخامره من هذه الهواجس، ويقول لها : «يا خديجة، والله ما أبغضت بُغض هذه الأصنام شيئًا قط، ولا الكهان ! . . وإنى لأخشى أن أكون كاهنًا ! . . » فتطمئنه خديجة وتزيل عنه مخاوفه، وتقول فيما تقول : «كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا ! . . إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف[1]، وتحمل الكَلّ[2]، وتكسب المعدوم[3]، وتُعين على نوائب الحق[4]، وإن فيك من صفات الخير ما لا يجعل للشيطان سبيلاً إلى نفسك ! . . ».

---

(١) تقرى الضيف : تكرمه.

(٢) تحمل الكل : تنهض بالأمر المهم وتحمل العبء العظيم.

(٣) تكسب المعدوم : تعطى الفقير والمحتاج.

(٤) تعين : تسعى فى الخير وتعين عليه.

لكن فترة الوحى طالت واسترسلت، حتى ظن رسول الله ﷺ أن ربه قد تركه وقلاه[1]، وكره منه ما بدا عليه من الرعب عند رؤية الملك أول مرة، وأنه لم يَعُدْ أهلاً لأن يتحمل تبعة الوحى وأثقاله. واشتد به الحزن حتى كاد يقضى عليه، وكثر تردده على الجبال وتطلعه إلى السماء تلهفًا على عودة الوحى، وتشوقًا إلى رؤية جبريل عليه السلام، لعله يعود إليه فيُسمعه من هذه الآيات البينات ما يعيد إلى نفسه الطمأنينة والثقة.

يا لها من فترة شديدة شاقة، كانت تمر أويقاتها بطيئة ثقيلة مرهقة، تكاد اللحظة فيها تكون شهرًا، وتكاد الساعة تكون دهرًا!.. ألا قَبَس من ذلك النور الإلهى الذى أضاءت له جوانب نفسه، يمحو عنه ظلمة اليأس التى كادت تودى به فتهلكه؟..

وحين أوشك اليأس أن يحطم قلبه، أدركه الله برحمته، فأرسل إليه أمينهُ جبريل، يحيى فى نفسه ما فقدته من الأمل، ويعيد إليها الثقة والطمأنينة والحياة!.. فهذا جبريل، عليه السلام، قد ظهر له مرة أخرى، وتراءى له فى أفق السماء، يناديه بصوته العظيم: «يا محمد، أنت رسول الله حقًّا، وأنا جبريل»!.. ولكن رسول الله يُرْعَب منه كما رُعب فى أول

(1) قلاه: أبغضه.

مرة، فيهوى إلى الأرض من شدة الهول!.. ثم يذهب إلى أهله مقرورًا[1] يقول: «زملونى..! زملونى..!».

رحمة الله برسوله

والحق أن وطأة الوحى شيء فوق طاقة البشر العادى أن يحتمله؛ ومع أن رسول الله ﷺ قد أمد بالقوة الكافية، وأعد لاحتمال هذه الوطأة الشديدة، فإنه «كان يعانى من التنزيل شدة، وكان إذا نزل عليه الوحى كُرِب له وتربد وجهه[2]، وتحدر منه العرق فى اليوم الشديد البرد»*. وقد كانت الهزة الأولى من هزات الوحى عنيفة قاسية، وكانت رؤية الملك لأول مرة قد تركت فى كيانه أثرًا شديدًا؛ فكان من رحمة الله برسوله ﷺ أن يفتر عنه الوحى فترة، حتى يستجمع شتات نفسه الثائرة، وجسمه المضطرب، وقلبه الواجف، ويستعد لما وراء ذلك من أثقال الوحى وتبعاته الجسام.

كانت فترة الوحى إذن شيئًا ضروريًا، وكانت رحمة من الله برسوله، ونعمةً من نعمه الكثيرة التى أنعم بها عليه. والمتأمل فى «سورة الضحى» التى نزلت فى أعقاب هذه الفترة، يرى

(1) مقرورًا: مرتعد الأوصال كمن به حمى.

(2) تربد: المتغير لونه.

* من أحاديث عائشة، رضى الله عنها.

هذا المعنى واضحًا كل الوضوح؛ إذ يقسم له ربه فيها بأنه ما هجره ولا تركه، ولا قطع عنه الوحى كُرْهًا ولا قِلًى!..
وكيف وقد تولاه بالرعاية منذ نشأ، ولم يتخل عنه لحظة من لحظات حياته؟.. فآواه وهو يتيم قد فَقَد أباه وأمه، وأغناه وهو فقير يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وهداه وهو ضالٌّ حائر لا يدرى كيف يصلح قومه، واصطفاه من دون قومه ليكون رسوله إليهم وإلى الناس كافة..! فهذه النعم الجليلة المترادفة دليل على أنه لم يتخل عنه، وأنه سيظل يرعاه ويحوطه، وسوف يعطيه ثم يعطيه من فيض رحمته، حتى يطمئن ويرضى، وحتى تكون أُخراه خيرًا له من أولاه..!.

كانت فترة الوحى - إذن - نعمة من أنعم الله على رسوله، أراد بها تثبيته، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه من الوحى، حتى تتم به حكمة الله تعالى فى إرساله إلى الخلق.
وحين استجم، صلى الله عليه وسلم، وأخذ جسمه كفايته من الراحة، وأخذت نفسه حظها من الهدوء، أرسل الله تعالى إليه جبريل، يباديه بالوحى مرة أخرى، ثم يواليه بعد ذلك بما شاء الله منه، حتى أتم الله نعمته على خلقه، وأكمل لهم دينهم، ورضى لهم الإسلام دينًا.
ويحدّث رسول الله ﷺ عن فترة الوحى - فيما يرويه جابر

ابن عبد الله - فيقول : « .. فبينما أنا أمشى سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصرى قبل السماء، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئيت فرَقًا منه حتى هويت إلى الأرض؛ فجئت أهلى فقلت : زملونى ! .. زملونى ! .. فأنزل الله : ﴿يا أيها المدَّثر * قُمْ فأنْذِرْ * وربَّك فكبِّرْ * وثيابكَ فَطهِّرْ * والرُّجْزَ فاهْجرْ * ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر * ولربك فاصبِرْ﴾[1] .. ثم حَمِى الوحى وتتابع؛ فقرت بذلك عينُه، ورَبَطَ جأشه، واطمأن قلبه، وأيقن أنه رسول الله حقًّا.

ومنذ تلك الحين بدأت مرحلة جديدة فى حياته، صلى الله عليه وسلم، هى اضطلاعهُ بعبْء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة.

(١) سورة المدثر الآيات ١ - ٧.

مطلع الفجر

المهمة الثقيلة

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿والضُّحى * والليل إذا سَجَى * ما وَدَّعَك رَبُّك وما قَلَى * ولَلآخرةُ خيرٌ لك من الأولَى * ولَسَوْفَ يُعْطيك رَبُّك فترضى * أَلَمْ يَجِدك يتيمًا فآوَى * ووجدك ضالاً فَهَدَى * ووَجدك عائلاً فأغنى * فأمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ * وأما السائلَ فلا تَنْهَرْ * وأما بِنعمةِ ربك فحدِّثْ﴾.

كان نزول الوحى بعد فترته، بسورة «الضحى» بردًا وسلامًا على نفس النبى ﷺ، بعد أن عراه ما عراه من الهم والقلق طوال هذه الفترة، وبعد أن داخله ما داخله خلالها من الهواجس والظنون. وكان ما تضمنته آياتها من معانى التثبيت والتأييد، بَلْسَمًا شافيًا لكل ما مادَت به نفسه من نوازع اليأس والخوف؛ فانجابت بها مخاوفه، وأشرقت نفسه من جديد، وشعر بروْح الأمل يسرى فى كيانه، وأخذ كل شىء فيه يسترد نشاطه،

ويستعد بكل ما فيه من أسباب القوة، لاحتمال العبء العظيم الذى ألق على عاتقه.

لقد جاءه الحق الذى كان يتلمسه ويبحث عنه، وتحقق له الأمل الذى كان يَنْشُده ويتطلع إليه، وألق عليه الوحى أثقل مهمة تُلقَى على بشر، وأهاب به أن يقوم لينذر الناس، ويدعوهم إلى عبادة الله العلى الأكبر، وهجر ما هم عليه من عبادة الأوثان، ومن ارتكاب الإثم والعدوان؛ وأمره أن يكون قدوة صالحة للناس فى ظاهر أمره وباطنه، وأن يُخلص وجهه ونفسه لله، وأن يصبر على ما يلاقيه فى سبيل دعوته إلى الله من مشقة وأذى.

كيف يدعو قريشًا إلى الحق؟

فكيف يدعو قريشًا إلى الحق، وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم؟ وأى طريق يسلك لإقناعهم بأن ما هم فيه هو الباطل، وأن ما جاءهم به هو الحق؟ وكيف وهذا الحق يُبطِل عقائدهم، ويهدم تقاليدهم، ويهدد كل ما يتطاولون به على الناس من جاه وسلطان، وما يستمتعون به فى الحياة من لذة ومتاع؟

لا شك أنهم ضلوا السبيل وبعدُوا عن الحق، فتركوا الإله الأكبر الذى يَخلُقُ ويرزُق ويحى ويميت، وإليه المرجع والمصير،

﴿واتخذوا من دُونِه آلهةً لا يَخلُقــون شــيئًا وهــم يُخلَقــون، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا يَملِكون مَـوْتًا ولا حيـاةً ولا نُشورًا﴾[1]، وأيقنوا أن الحياة هى الحيـاة الـدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأن هذه الفترة القصـيرة مـن العمـر، هـى الفرصة التى ليس وراءها فرصة لانتهاب اللذائذ والمتع؛ فـأطلقوا العنان لشهواتهم، واستمتعوا بكل ما يشتهون من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيـل المسَـوَّمة والأنعـام والحرث، وفَرِحوا بالحياةِ الدُّنيا واطمأنُّوا بها، ولم يُدر بخَلَدهم قط أن هناك حياةً أخرى بعد هذه الحياة، وأنهـا حيـاة أدْوَم وأبـق، فيها النعيم المقيم لمن أحسن فى حياته الأولى، وفيها العذاب الأليم لمن أسا فيها.

ولكن الحق الذى يـدعو إليـه، لا يمـكن أن يقـوم إلا على تقويض هذه العقائد الباطلة التى يعتقدونها، وهـدم هـذه الحيـاة التافهة التى يحيونها، والاعتقــاد بــأنه لا إلــه إلا الله وحـــده لا شريك له، وأن ما يعبدون من دونه من هذه الأوثـان، إنمـا هى آلهة زائفة، لا تغنى عنهـم مـن الله شـيئًا، ولا تملك لهـم نفعًا ولا ضرًّا؛ وأن وراء الموت بعثـًا وحسـابًا، وحياة أخـرى يجازَى الناس فيها على ما عملوا فى الحياة الدنيا، ﴿فَمَنْ يَعْمَـلْ

(١) سورة الفرقان الآية ٣.

مِثقالَ ذرَّةٍ خيرًا يَرَه ❋ ومَن يعملْ مثقالَ ذَرَّة شرًّا يَرَه﴾[1].

فهل يمكن أن تقتنع قريش بأن آلهتها من الأصنام لا تنفع ولا تضر؟ وكيف وقد نشأوا يعبدونها كما يعبدها آباؤهم، ويعتمدون عليها فى معايشهم؟ فهم أهل الحرم وسدَنَة البيت وخُدَّام الآلهة، والعرب من أجل ذلك يَدِينون لهم بالسيادة، ويعترفون لهم بالفضل، ويمدونهم بمدد عظيم من الأموال والأنعام والأرزاق، حين يَقْدَمون عليهم فى مواسم الحج، وحين يقدمون فى غير هذه المواسم للتجارة فى أسواق مكة، أو لزيارة البيت الحرام، أو لاستخارة الآلهة فى أمورهم ومشاكلهم، وهى أمور ومشاكل لا تكاد تنتهى.. فكيف يمكن أن يتركوا هذه الأصنام وهى التى تجلب لهم كل هذا الخير، وتمنع عنهم كثيرًا من أذى الأعراب الذين يسكنون فى البادية، ويقطعون الطريق على القوافل الغادية والرائحة، إلا قوافل قريش، فهى تغدو وتروح آمنة لأنها قوافل أهل الحرم؟ وكيف يمكن أن يُضَحُّوا بهذا المدد الذى لا ينقطع من الأموال والأرزاق، وبهذه المنزلة التى وضعتهم فوق هامات العرب، وجعلت لهم السيادة والسلطان على قلوبهم وأرواحهم؟ إنهم سدَنَة البيت وخُدام الآلهة..! فهل بعد هذه منزلة يطمح إليها طامح فى العرب جميعًا؟.

---

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧، ٨.

وهل يمكن أن تصدّق قريش بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى، فيها الحساب وفيها الجزاء على ما قدم الإنسان فى الحياة الدنيا؟ وما عسى أن تكون هذه الحياة؟ وكيف يمكن أن تكون بعد الموت، وهم يروْن الأجسام تَبْلَى وتأكلها القبور، فلا يبقى من آثارها إلا العظام النَّخِرة، والتراب الذى تَذروه الرياح، فيذهب بَدَدًا فى نواحى الأرض؟ فهل يمكن إقناعهم بأن تلك الحياة شىء ممكن، وأنها شىء على الله يسير، وأنها هى الحياة الحقة التى ينبغى أن يُعِدّوا لها أنفسهم، وأن الحياة الدنيا إذا قيست إليها، إنما هى لعب ولهو ومتاع قليل وعرَض زائل؛ وأن السعادة فيها ليست بما يتكاثر به الناس من مال وبنين، ولا بما يطاولون به من جاه وسلطان، ولكن بمقدار ما تنطوى نفوسهم من معانى الرحمة والعدل والإحسان والحب والإيثار؛ وأن هذه المعانى الكريمة هى التى خُلق من أجلها الإنسان، وهى التى تليق بشرف منزلته علو مكانته، وهى التى تميزه عن الحيوان الأعجم، وتؤهله لأن يكون خليفة الله فى الأرض، ينشر فيها مبادئ الحق والخير والسلام، ويقاوم روح الشر والإثم والعدوان؟..

كيف يمكن إقناعهم بهذه المبادئ السامية، وإعدادهم لإدراك هذه المعانى الكبيرة؟.. إنها لَمعضِلة صعبة ومشكلة معقدة، وإنها

لتحتاج إلى مدد من القوة والعَوْن الإلهى.. ولكن ما دام الله القوىُّ هو الذى أوحى إليه أن ينهض لهذا الأمر العظيم، فلينهض، وليتوكل على الله فهو حسبه، وهو نعم المولى ونعم النصير.. !

البدء بالدعوة

وجعل، صلى الله عليه وسلم، يفكر ويقلب وجوه الرأى، ليجد المدخل السهل الذى يدخل منه إلى قلوب هؤلاء السادرين فى ضلالهم، الجامدين على تقاليدهم وأوهامهم؛ فأخذ يتلمس أصحاب القلوب اللينة، والنفوس المستعدة للهداية وقبول الحق؛ وبدأ من هؤلاء بخلطائه وصحبه ممن يثق بهم ويطمئن إليهم، فجعل يدعوهم إلى الإسلام سرًّا، إذْ كان يحرص كل الحرص على ألا ينكشف أمر الدعوة فى بدايتها للسادة من قريش، مخافة أن يهُبُّوا للقضاء عليها وهى لا تزال فى المهد. فقد كان يعلم أن قريشًا لا تحارب أحدًا كما تحارب من ينحرف عن دينها، ولا تقاوم شيئًا كما تقاوم الخروج على تقاليدها وعاداتها؛ وكان أفظعَ شيء يهيجها ويُثير حَمِيَّتها أن تُمَسَّ سيادتها وسلطانها على الناس أىَّ مساس، إذ كانت سيادتها وسلطانها مصدرَ رفاهيتها ونعمتها.

وكانت المبادئ التى تضمنتها دعوة الإسلام، من الإيمان بإله

واحد، ومن الإيمان بالبعث بعد الموت، وبالدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، وبأن الناس جميعًا إخوة سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن للفقير حقًّا معلومًا فى مال الغنى.. هذه المبادئ وأمثالها مما تضمنته الدعوة كانت أشد المبادئ خطرًا على دين قريش؛ ودينُ قريش هو مصدرُ سيادتها وسلطانها على العرب، ومصدرُ ما تستمتع به من رزق واسع وثَراء عريض. فكان من الحكمة أن تتسرب هذه المبادئ إلى قريش فى هدوء، وألا يستعلن أمرُها إلا بعد رسوخها فى قلوب الذين يتقبلونها ويستجيبون لها؛ حتى إذا آمنوا بها واستيقنتها أنفسهم، كانوا هم القواعد التى يقوم عليها البناء، والبذور التى توضع فى الأرض لتؤتى ثمرَها بإذن الله.

الرعيل الأول

من أجل ذلك أخذ رسول الله ﷺ يعمل فى تكتم وحزم ويدعو إلى دينه سرًّا كل من يثق به ويطمئن إليه من أهله ومن خلصائه؛ فآمنت به خديجة، وصدَّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، فكانت له نعم المعين، تثبته وتَشحذ من عزيمته، وتخفف عنه كل ما يُلِمّ به من هم، وتهوّن عليه أمر الناس وما يلقاه من ردهم وتكذيبهم؛ ففرج الله بها عنه وشد من أزْرِه.

وآمن به عليّ بن أبي طالب، وكانت سِنُّه إذ ذاك حول العاشرة؛ وكان يعيش مع النبي في بيته، إذ كان أبوه أبو طالب كثير العيال، وكان قد مرت به أزمة شديدة، فأراد رسول الله ﷺ أن يخفف عنه، فأخذ منه «عليًّا»، وأخذ عمه العباس «جعفرًا»؛ فنشأ عليّ في بيت رسول الله ﷺ كأنه ولده. فلما بُعث، صلى الله عليه وسلم، بدين الإسلام دخل عليه عليّ وهو يصلي مع خديجة، فوقف ينظر إليهما حتى أتما صلاتهما؛ ثم سأل رسول الله عن هذا الذي رآه، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وبَعث به رسله؛ فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعُزَّى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم؛ فلست بقاض أمرًا حتى أحدِّث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يُفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا علي، إذا لم تُسلم فاكتم عليّ هذا الأمر ولا تحدِّث به أحدًا»!.. فمكث عليّ تلك الليلة يفكر فيما رأى وما سمع من رسول الله، فأوقع الله في قلبه الإسلام، فأصبح غاديًا على رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت عليّ يا محمد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «تشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد

والشركاء». ففعل علىّ كما علمه رسول ﷺ وكتم إسلامه فلم يظهره. ومكث يأتى رسول الله على خوف من أبى طالب.

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيًا من أبيه ومن جميع قومه، فيصليان فى تلك الشعاب حتى إذا أمسيا رجعا؛ فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.. ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان؛ فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يابن أخى، ما هذا الدين الذى أراك تَدين به؟» قال: «يا عمّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثنى الله به رسولا إلى العباد. وأنت - ياعم - أحقُّ من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه»! - فقال أبو طالب: «يا بن أخى، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه؛ ولكنْ، والله لا يخلُصُ إليك شىء تكرهه ما بقيت..» ثم قال لعلى: «أىْ بنى، إنه لم يدعُك إلا إلى الخير، فالزمْه»..

وكما آمنت خديجة وعلىّ من بيت النبى، صلى الله عليه وسلم، آمن غلامه وخادمه زيد بن حارثة.

وكان أبو بكر، رضى الله عنه، رجلا محبَّبًا فى قريش، يألَف الناس ويألفونه، ويجتمعون عنده فيستمعون إلى حديثه

ومجلسه، وكان عالما بأنساب قريش وأيامها، مُلِمًّا بأخبار الناس وحوادث الدهر، وكان رجلا تاجرًا يطوف بتجارته فى الآفاق، فزادته التجارة والسياحة فى البُلدان علمًا وتجربة، ومعرفة بأحوال القبائل وعادات الأمم، فكان مجلسه مجلس أنس وعلم وتسلية؛ وكان إلى كل ذلك لطيف المَعْشَر حلو الحديث رَضِيّ الخلق، وكان ذا جاه ومنزلة وثروة فى قريش. وكان يحب رسول الله حبًّا شديدًا، وكانت تجمعه به جامعة قوية من الثقة والإخلاص وصدق الصحبة. فما كاد رسول الله يعرض عليه الإسلام حتى أسلم؛ وكان إسلامه إسلام الواثق المطمئن إلى صدق ما جاء به صاحبه، فجعل يدعو إلى الإسلام سرًّا من كان يثق به من أصدقائه وأحبائه؛ فآمن بدعوته عثمان بن عفان والزُّبَير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن الزبير. فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصدقوا بالله ورسوله.

وكان هؤلاء النفر أول السابقين إلى الإيمان بالله ورسوله، فكانوا هم اللبِنات الأولى فى بناء الإسلام، وهم الأساس الذى قام عليه صرحه الشامخ، والدعائم التى استحكم عليها بناؤه، حتى تم تمامُه ورسخت قواعدة بإذن الله.

سادة قريش

المجتمع المكى

كان المجتمع المكىّ ثلاث طبقات متميزة، يختلف بعضها عن بعض فى المكانة والمنزلة، ويختلف تبعًا لذلك ما تتركه كل طبقة منها من أثر فى ذلك المجتمع : طبقة السادة من الأغنياء والزعماء؛ وطبقة الرقيق من العبيد والإماء ومَن فى حُكمهم من الدَّهماءِ والعامّة؛ وطبقة الأحلاف من العرب وغير العرب ممن كانوا يعيشون فى مكة وليسوا من أهلها، ولكن تربطهم بالسادة من أغنيائها وزعمائها روابط الحلف والجوار. وذلك أن العرب كان فى طبيعتهم نزعة التعصب للجار والحليف وحمايته من كل ما يسوء، كما يتعصبون فى ذلك لأهلهم وعشيرتهم، فكان الغُرباء والدُّخلاء - ممن يفِدون على مكة من العرب والعجم ويريدون أن يقيموا بها - يتحالفون مع بعض سادتها على أن يعيشوا فى حمايتهم؛ فيأمن الحليف بذلك كل اعتداء عليه، ويصبح كواحد من أسْرة السيد الذى حالفه، يحارب من حاربهم

ويسالم من سالمهم، وله فيما عدا ذلك أن يكون حرًّا فى شئونه الخاصة، وأن يتخذ من أسباب الرزق ما يكفل له ولأهله العيش السعيد.

سيادة قريش على العرب

وكانت قريش على اختلاف بطونها وعشائرها، هم - فى اعتقاد العرب - أهل الحرم، وكان للحرم مكانته فى نفوس العرب جميعًا؛ ومن أجل ذلك كان العرب يعظمون قريشًا، ويَدينون لهم بالسيادة عليهم، ويعتقدون أنهم أولو الأمر وأصحاب الحل والعقد فى كل ما يتصل بشئون الدين. وكانت قريش تستفيد من ذلك أيما فائدة؛ فكانتهم مكانة مرموقة، وسيادتهم سيادة مطلقة، وحياتهم فى ظل هذه العقيدة حياة آمنة مطمئنة؛ قد أمنوا فيها على أموالهم وأنفسهم، واستمتعوا فيها بحرية واسعة وجاه عريض؛ والعرب مع ذلك يسعَوْن إليهم فى كل موسم من مواسم الحج، بما يحملون من الأموال والمتاع، وبما يقدِّمون إلى البيت من أنواع الهدْى، وبما يحملون فوق ذلك إلى الأصنام من نذور وقرابين. وكان هنالك نوع آخر من هذا الدخل المستمر، يتمثل فى شكل ضرائب يضربونها على الداخلين فى أرض الحرم؛ والعرب يتقبلونها منهم بحكم العقيدة الدينية، غير باخلين بها ولا متأففين منها.

العبيد والإماء

وكان الرقيق من العبيد والإماء كذلك مَوردًا آخر من موارد الرزق، وسببًا من أسباب النعمة التى يستمتع بها السادة من قريش، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من السادة فى جميع الأمم والشعوب؛ إذْ كان الرق نظامًا سائدًا فى تلك العهود، وكان الرقيق يباعون ويُشْتَرَوْن كما تباع الأنعام وتشترى، ويُستخدمون كما تستخدم الأنعام أيضًا، يعملون لسادتهم ما يريدونهم عليه من الأعمال، دون أن يتقاضَوْا على ذلك أجرًا، ودون أن يكون لهم شىء من الحرية فيما يأخذون وما يتركون، ودون أن يكون لهم رأى بعد رأى سادتهم فى شأن من الشئون؛ فهم يعملون كآلات مسخرة، تنتج الزرع والضرع والخير الكثير، وتنتج فوق ذلك ما شاء الله من البنين والبنات، فيصبحون بحكم هذا الرق عبيدًا وإماءً لسادتهم، يعملون - كما يعمل آباؤهم وأمهاتهم - مسخرين بلا أجر ولا جزاء، اللهم إلا رضاء سادتهم عنهم إذا هم أحسنوا العمل، أو غضبهم عليهم إذا هم أساءوا، فإذا ما رضى عنهم السادة فقد يجازونهم ببَسْمة كبرياء عابرة يرسمونها على شفاههم، أو كلمة عطفٍ ساخرة يستنزفون بها جُهدهم ويستنهضون بها قواهم. وقد يبالغون فى الرضا عنهم، فيبيعون

لهم حريتهم بما يفترضون عليهم من الثمن، وربما مَنُّوا بها منًّا عليهم، فيخرجون بذلك من ضيق العبودية إلى فرج الحرية؛ ولكنهم يظلون على كل حال أسرى الوَلاء لسادتهم حتى يموتوا. أما إذا غضب عليهم السادة، فالويل كل الويل لهم مما يلاقون من ضروب الإيذاء وألوان العذاب.

كان هؤلاء الرقيق بابًا آخر من أبواب الثروة التي ينعَم بها السادة من قريش، لا يقل في أهميته عما ينعمون به من الأموال والأنعام والثمار وعروض التجارة، بل ربما كان عندهم أكثرها أهمية، لأن الرقيق هم الأيدي العاملة التي تعمل فتنتج في كل ناحية من نواحي الإنتاج، وهم فوق ذلك مظهر من مظاهر الأُبهة والسلطان، يحرص عليه السادة كل الحرص، ويتنافسون فيه أشد التنافس.

* * *

قضت مكة دهرًا طويلاً وهي تعيش في ظل هذا النظام، حتى أصبح عقيدةً راسخة في أهلها أن السادة لهم السيادة المطلقة، وأن العبيد لهم العبودية المطلقة، وأن الأحلاف لهم الأمن والحماية ما داموا حلفاء للسادة، فإذا ما تقطعت بهم أسباب هذا الحِلْف فهم معرَّضون للأذى في أموالهم وأنفسهم وأهليهم. وقد اصطبغت هذه العقيدة بصبغة الدين، حتى أصبح

لها ما للدين من قداسة واحترام؛ ذلك أنها تتصل فى بعض أوضاعها بالبيت الذى يحجون إليه، وبالآلهة التى يعبدونها ويقدسونها.

المساواة فى الإسلام

وكانت مبادئ الإسلام التى جاء بها محمد بن عبد الله تأبى هذا النظام وتعارضه كل المعارضة؛ فقد جاء الإسلام يسوّى بين السيد والعبد، وبين القوى والضعيف، وبين الغنى والفقير وجعل الإيمان والعمل الصالح مقياس التفاضل بين الناس؛ فالناس أمام الإسلام إخوة سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ودماؤهم وأموالهم وأعراضهم حرام بينهم؛ فلا يحل للمسلم دم أخيه ولا ماله ولا عرضه إلا بالحق: ﴿إنما المؤمنون إخوَة﴾، ﴿إنّ أكرمَكم عندَ الله أتْقاكم﴾. فكان هذا المبدأ - مبدأ المساواة بين السادة والعبيد - صدمة عنيفة للسادة فى سيادتهم، وكان أول من أصيب بهذه الصدمة سادة قريش فى مكة..

الإيمان بالآخرة

وكان الإيمان بالدار الآخرة صدمة أخرى لهؤلاء السادة، لا تقل فى عنفها عن الصدمة الأولى؛ فقد كانوا يعيشون فى

حرية مطلقة، لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود، يخضون ويلعبون، ويرتعون فى الشهوات كما يشاءون، ظانين أن الحياة هى الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأنه لا رقيب هناك ولا حسيب. فجاء الإسلام ينقض هذه العقيدة الخاطئة، يبين لهم أن الإنسان لن يُترك سُدًى فى هذه الحياة، يرتع فيها كما ترتع السائمة، بل هو مسئول عن كل ما يعمل، محاسَب عليه ومجزِى عنه فى حياة أخرى بعد هذه الحياة؛ وما الموت إلا الانتقال من هذه الحياة الفانية إلى تلك الحياة الباقية، ليَسعد فى نعيمها من أحسن العمل فى الحياة الأولى، ويَشقَى، فى جحيمها من أساء العمل فيها: ﴿فأمَّا الذين شَقُوا ففى النار، لهم فيها زفيرٌ وشَهِيق * خالدين فيها مادامت السمٰواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّك، إن ربَّك فعَّال لما يُريد * وأما الذين سُعِدوا ففى الجنَّة، خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّك، عَطاءً غيرَ مجذُوذ﴾[1].

عقيدة التوحيد

وكانت أعنف الصدمات، وأشدها خطرًا عليهم عقيدة التوحيد، التى جعلها الإسلام أساسه الأول، وهى الإيمان بأن

---

(١) سورة هود الآيتا ١٠٦ - ١٠٨.

الله وحده هو الإله الحق، وأن كل ما عداه من الآلهة زَيْفٌ باطل، وأنه هو وحده مالك الملك، وواهب الرزق، ومقدّر الأجل، وإليه المرجع والمصير؛ وأن ما يدْعُون من دونه من الآلهة ﴿لا يملكون مِثْقَال ذَرَّة فى السموات ولا فى الأرض، وما لهم فيهما مِنْ شِرْكٍ، وما له منهم من ظَهِير﴾[1]... فقد هدمت هذه العقيدة دينهم، وقوضت عقائدهم وكشفت لهم عن حقيقة هذه الأوثان التى يعبدونها، والتى يعيشون فى ظلها سادة على العرب؛ فإذا هى وهمٌ من الأوهام لا قيمة له ولا غناءَ فيه.

خطر الإسلام على سيادة قريش

إذَنْ فهذا الدين خطرٌ عظيم يهدد سيادتهم، ويُقلق أمنهم وراحتهم، ويَقلب الأوضاع التى تعارفوا عليها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل.. إن هذا الدين يسوِّى بين العبيد والسادة، فكيف يكونون هم وعبيدهم بمنزلة سواء؟ وكيف يمكن أن يكون العبيد إخوة للسادة، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؟ وكيف يمكن تسخير هؤلاء العبيد إذا ما أحسّوا بأنهم أكفاءٌ لسادتهم فى منازل الشرف والكرامة؟ ومن يدرى، فلعلهم أن يكونوا أكرم عند الله من سادتهم!.. وكيف تستقيم أمورهم

(1) سورة سبأ الآية ٢٢.

بعد ذلك فى تجارتهم وزراعتهم، وفى رعاية أنعامهم وخدمة بيوتهم، وفى كل ما يسخر له هؤلاء العبيد من شئون حياتهم ؟ إنه الفوضى والاضطراب إذن ! .. بل هو الفساد الشامل يدعو إليه محمد وينشره بين الرقيق والدهماء، فيغريهم بسادتهم ويفسدهم عليهم ! ..

وإنه كذلك ينذرهم عذاب الآخرة، ويخوفهم عاقبة هذه الحرية الواسعة التى يستمتعون بها؛ وذلك كَبْتٌ للشعور، وتضييق للحرية، ومبالغة فى الحرمان، وانحدار بهم إلى منزلة العبيد؛ وإلا فماذا يكون الفرق بينهم وبين عبيدهم، إذا هم حوسبوا على الصغيرة والكبيرة كما يحاسب العبيد ؟ ..

ثم هو فوق هذا وذاك يدعوهم إلى إله واحد، فيقضى بذلك على مكانة هذه الأوثان التى كانوا يَسُودون بها على العرب. فبأى شىء يسودون إذا زالت عن الآلهة قداستها وانحطت مكانتها، وأدرك العرب أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تغنى عنهم من الله شيئًا ؟ ..

ماذا بقى لهم بعد ذلك من أسباب السيادة والمجد إن نجحت هذه الدعوة ؟ .. لا شىء ! .. فكان لا بد لهم أن يقاوموها، وأن يحولوا بينها وبين الظهور والانتشار، وأن يَقْبُروها قبل أن

يتفاقم خطرها ويتطاير شررها، فيأتي على كل ما يستعزُّون به من عزة ونعيم.

وهكذا عقدوا العزم على مقاومتها، محاولين بذلك أن يصرفوا الناس عنها، ويحولوا بينهم وبين الإيمان بمبادئها الخطيرة..

﴿يريدون أن يُطْفِئُوا نُـورَ الله بـأَفْوَاهِهِم، ويَـأْبَى الله إلا أن يُتم نوره ولو كَرِه الكافرون﴾[1].

(1) سورة التوبة الآية ٣٢.

الجهر بالدعوة

الحذر من قريش

استمر رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام سرًّا، وأصحابه من حوله يدعون بدعوته، فيستجيب لهذه الدعوة من أراد الله له الهداية من رجال مكة ونسائها، فيزداد عدد المؤمنين بها يومًا بعد يوم. ولكنها كانت زيادة ضئيلة متباطئة، تطَّرد فى تعثر وتمشى على استحياء؛ إذ كان الناس فى مكة يخشون بأس قريش وسلطانها، فكان الذين يُسلمون منهم يسلمون فى حذر وخوف.

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يُسِرُّ إلى أصحابه تعاليمه، ويحذرهم أن يستعلنوا بصلاتهم ودعوتهم، مخافة أن تتسرب أنباؤها إلى قريش، فتقضى عليها وهى لا تزال قليلة الأنصار ضعيفة الشوكة، فكان أصحاب الرسول إذا أرادوا أن يصلوا، خرجوا إلى ظواهر مكة، وأمعنوا فى شعاب الجبال، فصلوا هنالك فى منعطفاتها المنعزلة، مستخفين بصلاتهم من عيون القوم خشية أن تراهم.

لكن أنباء الدعوة على رغم ذلك تسربت إلى قريش، فأخذوا يراقبون محمدًا وصحبه ليعلموا علمهم، وليعرفوا حقيقة ذلك الأمر الذى يجتمعون له، ويتخافتون به، ويعتزلون القوم من أجله. فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فى شِعْب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْى[1] بعير فشج به رأسه؛ فكان هذا أول دم أريق فى الإسلام، وكانت هذه أول معركة بين المسلمين والمشركين فى مكة.

دار الأرقم

وقد حرص رسول الله ﷺ على أن يتجنب مواقف الاصطدام بينه وبين قومه، فاختار له ولأصحابه مكانًا منعزلاً عن الناس، هو دار الأرقم بن أبى الأرقم، وهو سيد من سادات قريش الذين سابقوا إلى الإسلام، وكانت داره تلك على مقربة من الصفا، فكان رسول الله يجتمع فيها بأصحابه، يعظهم ويرشدهم ويصلى بهم، ويتلو عليهم ما أوحى إليه من آيات

(١) اللحى : عظم من عظام الفك.

القرآن الكريم، ويعلمهم كيف يطبّقون مبادئها فى حياتهم؛ فكانت تلك الدار لهم مسجدًا للعبادة، ومدرسة للتعلم والتهذيب، وندوة للشورى وتدبير الأمور. واستمرت الحال على ذلك نحو ثلاث سنين، وعدد المسلمين يزداد شيئًا فشيئًا، حتى بلغ من أسلموا من الرجال والنساء نحو الأربعين، أكثرهم من المستضعفين والفقراء، وأقلهم من الأشراف والسادة.

دعوة العشيرة

ثم أوحى الله إلى رسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، وأنزل عليه فى ذلك قوله سبحانه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقرَبين * واخفِض جنَاحك لِمَن اتّبَعَك من المؤمنين * فإنْ عَصَوْكَ فقلْ إنى بَرِىءٌ مما تَعْمَلون﴾[1]. وكان فيهم عمه عبد العُزى بن عبد المطلب، وكان يدعى «أبا لهب»، لأن وجهه - فيما يقال - كان مشرقًا حسنًا، تتلهب وجنتاه بالحمرة كما تتلهب النار. وكان سَرِيًّا من سراة قريش، كثير المال مسموع الكلمة؛ وكان شديد التعصب لدين قريش وتقاليدها، حريصًا أشد الحرص على أن يظل هذا الدين مرعى الجانب موفور الكرامة. وكانت فيه حدة وسفاهة واندفاع مع الغضب إلى غير

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٤ - ١٢٦.

حد. وكان أشد ما يسوءه أن تُمس قداسةُ الآلهة أو تُمتهن كرامةُ الآباء، فيثور لذلك أعظم الثورة، ولا يبالى أن يعادِى فى ذلك أقرب المقربين إليه.

أبو لهب

وكان رسول الله ﷺ يعرف منه ذلك، ويخشى أن يفسد عليه أمره بما فيه من حمق وجهالة؛ فجعل يفكر فى الوسيلة التى يستطيع بها أن يدعو عشيرته إلى الإسلام، بحيث يتقى شر هذا العم الجهول، ويأمن أثر نفوذه القوى على بنى هاشم؛ فصنع لهم طعامًا ودعاهم إليه فحضروا، وكانوا نحو الأربعين رجلًا. فلما انتهوا من طعامهم تأهب الرسول لعرض دعوته عليهم، فبادره أبو لهب بقوله: «هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم ودع الصبأة ![1].. فلا تخرج على دين قومك، ولا تعرّضهم لغضب العرب؛ فإن قومك لا يستطيعون مقاومة العرب قاطبة، وليس لهم بحربهم طاقة !.. وقد علم قومك بما تريد أن تُبدع فى دينهم، ولم يخف عليهم أمرك وما تدعو إليه من الصبأة والخروج على تقاليد الآباء !.. فاربع[2] على نفسك وعلى بنى أبيك، واعلم

(١) الصبأة: هى الخروج على دين الآباء وتقاليدهم.
(٢) اربع: احذر واحترس.

أن العرب لن يتركوك، ولن يَشُق عليهم أن يثبوا بك فيقتلوك !.. فارجع إلى دين آبائك وأجدادك خير لك، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك الذى أنت فيه، وحتى نحول بين العرب وبينك.. فنحن أولى بتأديبك حتى يَثُوب إليك رشدُك وتبرأ من علتك.. فإن بنى أبيك أولى بتأديبك، وأحق من أخذك فحبْسُك، إن أقمت على ما أنت عليه، فهذا أيسر عليك وعليهم من أن تثِبَ بك بطونُ قريش وتمدّها العرب.. فما رأيت أحدًا جاء على بنى أبيه بشرّ مما جئتهم به.. !»[1].

وكان ثائرًا مهتاجًا، يُلقى بالكلام فى عنف وشدة، كأنما يلقى بالقذائف والحُمَم، ويشير بيديه مهددًا متوعدًا، وقد جَحَظت عيناه وانتفخت أوداجهُ، واصطبغ وجهه بحمرة قانية كأنما يتفجر بالدم، فلما سكت لم يسكت عنه الغضب، فجعل جسمه ينتفض كأنه محموم، وجعلت عيناه ترسلان الشرر فى كل ناحية، حتى لتكاد تُحرق من تقع عليه من القوم. ونظر رسول الله ﷺ فإذا القوم سكوت، وإذا الجوّ كله وجوم وكآبة؛ فعلم أن الفرصة لم تَحِنْ بعد، وأن الجو غير ملائم للكلام، فسكت ولم يتكلم فى ذلك المجلس.

---

(١) تصرفت فى هذه العبارة بمقدار ما يشرح غوامضها ويوضح أغراضها فقط.

وتلبَّث رسول الله ﷺ أيامًا، ثم دعاهم إلى وليمة أخرى.

وتقول الرواية التاريخية: إن بعض عمّات الرسول أشرْن عليه ألا يدعو عمه أبا لهب؛ ولعله كان راغبًا فى ألا يدعوه كذلك، ثم رأى أن يدعوه اتقاء لشره، أو أملاً فى أن يكتب الله له الهداية فيهتدى. ومهما يكن من شىء فقد حضر أبو لهب هذه الدعوة، كما حضر التى قبلها.. فما إن فرغ القوم من طعامهم حتى بادرهم رسول الله قائلاً: «الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له.. أما بعد، فإن الرائد[1] لا يَكْذِبُ أهله، ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم.. والله الذى لا إلـه إلا هو، إنى لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة!.. وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه فقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾؛ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين فى الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله!.. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزونَّ بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا..! يا بنى عبد المطلب، والله ما أعلم شابًا جاء قومه

---

(١) الرائد: الذى يرسل فى طلب الكلأ. وهو الطليعة التى يستطلع للقوم فيما يهمهم.

بأفضل مما جئتكم.. إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة.. فمن يجيبنى إلى هذا الأمر، ويؤازرنى على القيام به؟»[1]

موقف أبى طالب

فتكلم عمه أبو طالب كلامًا لينًا، واعتذر اعتذارًا لطيفًا، فقال: «ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك[2]. غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب».

أما أبو لهب فقد ثار ثائره، وانتفخ سحره، وعاد إليه حمقه وجهله، فصاح كما يصيح الأسد الهائج: «هذا والله السّوْأة[3].. ! خذوا على يديه[4] قبل أن يأخذ على يده غيركم؛ فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم»!.. ويقولون: إن أخته صفية - إحدى عمات الرسول، صلى الله عليه وسلم،

---

(١) لاءمت بين الروايات المختلفة فى سرد هذه النصوص ولم أخرج بها فى جملتها عن نص كلامه صلى الله عليه وسلم، ولا عن المناسبة التى قيل فيها.

(٢) أمنعك: أحميك.

(٣) السوأة: العار.

(٤) خذوا على يده: امنعوه مما يريد.

- حاولت أن تهدّئ من ثورته فقالت له : « أيحسنُ بك خِذْلان ابن أخيك ؟. ألا يسرك أن يخرج من ضِئْضِئِ[1] عبد المطلب نبيّ .. ؟ » فصاح بها ثائرًا : « هذا - والله - الباطل والخيال، وكلام النساء فى الحجال[2] ! .. فإذا قامت بطون قريش وقامت العرب معها، فما قوتنا بهم ؟ .. فما نحن إلا أكلة رأس[3] ! » .. فقال أبو طالب : « والله لنمنعنه ما بقينا ! .. » .

ونظر القوم إلى أبى طالب فإذا هو مصمم يعنى ما يقول؛ فرأوا أن من العار أن يتخلوا عن ابن أخيهم، فانحازوا إلى أبى طالب. وخرج أبو لهب خَزْيانَ مخذولاً، يُنذر ويتوعد، ويقسم باللات والعزى : لَيبذُلَنَّ دمه وماله فى حرب هذه الدعوة، ولَيحولن بين هذا الصابئ وبين ما يريد من تبديل دين قريش ! ..

ومنذ ذلك اليوم دبت العداوة بين أبى لهب وبين بنى هاشم؛ فوقفوا كلهم صفًّا وراء رسول الله ﷺ يحوطونه ويمنعونه، ووقف هو من دونهم صفًّا يحارب رسول الله ﷺ

---

(١) ضئضئ المرء : أصله.

(٢) فى بعض الروايات : وكلام ربات الحجال. وهو يعنى أن هذا ليس من شأن النساء، إنما شأنهن أن يتزين بالخلاخيل وغيرها.

(٣) كناية عن قلة عددهم، يعنى أن رأسًا واحدًا من الغنم تكفى لإشباعهم جميعًا.

ويناوئه، ويحاول جهده أن يصرف الناس عن دينه. ﴿والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

عداوة أبي لهب

واندفع أبو لهب في عداوته إلى غير حد، فلم يراع في ذلك رَحِمًا ولا قُرْبَى، ولم يقدّر أن ذلك الذى يعاديه هو ابن أخيه وصِهْرُه وجارُه الأدنى وأعماه الغضب والتعصب عن كل ذلك فلم يأبه بشيء، وانساق مع نزعة البغض انسياقًا عنيفًا، حتى صار أعدى عدو للنبي، صلى الله عليه وسلم، وحتى أنزل الله فيه سورة عنيفة حادة، تعيِّنه بالاسم، وتنذره هو وزوجته بالويل وسوء المصير في الدنيا وفي الآخرة؛ فقد كانت هي الأخرى عنيفة العداوة للرسول، وكانت ترتكب من الحماقة في عداوتها ما لايتفق مع مكانتها في قريش، وتأتي من الأمور ما يهبط بها إلى دَرْك السفلة الأوغاد.

كان النبي، صلى الله عليه وسلم، جارًا ملاصقًا لعمه أبي لهب، وكان مع ذلك يمُتّ إليه بصلة المصاهرة؛ إذ كانت ابنتاه - رُقية وأم كلثوم - زوجتين لعُتبة وعُتيبة ابني أبي لهب. ولكن هذه الصلات جميعًا لم تكن لتخفف شيئًا من حدة العداوة

---

(١) سورة يوسف الآية ٢١.

والحقد فى نفسه؛ بل كانت عداوته للرسول تزداد يومًا بعد يوم.
ولعل مما كان يَشِبّ فى نارها ويزيد فى اسِتعارها، أن زوجه أم جميل بنت حرب، هى أخت أبى سفيان بن حرب زعيم بنى أمية؛ ذلك الذى ظل على عداوته للإسلام ورسوله، حتى فتح الله عليه مكة، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا؛ فدخل فيه مع الداخلين..

وامرأته حمالة الحطب

لقد كانت أم جميل تحمل فى صدرها من الضغن على رسول الله أضعاف ما كان يحمل زوجها؛ وكان دأبها أن تثير الفتن بينه وبين عشيرته، وأن تسعى لدى القوم بالنميمة لتفسد عليه قلوبهم؛ حتى وصفها الله أشنع وصف، فسماها ﴿حمالة الحطب﴾، وهى صفة النمامة الواشية، التى تُشعل نار الفتن بين الناس، فتُحرق ما بينهم من صلات الود والتراحم، وهبط بها إلى أسفل دَرْك حين صورها فى صورة الحطابة، التى لا تكاد تمشى إلا و﴿فى جيدها حبل من مَسَد﴾[1]، تلم فيه الحطب من هنا ومن هناك، ثم تحمله إلى كوخها لتشعل به نارها.

والحق أن أم جميل كانت أشد عداوة للرسول ﷺ من

---

(١) سورة المسد.

زوجها أبى لهب، فلم يكن يكفيها ما تثيره من الفتن بينه وبين قومه؛ بل كانت تعمل دائبة على تحقيره وامتهانه، وكانت تعيره بالفقر حينًا وبموت البنين حينًا، وحينًا تضع فى طريقه الشوك والقَذَر، وحينًا تقرض فى ذمه الشعر وتتغنى به فى مجالسها. وقد بلغ من عداوتها وحقدها على الرسول أنها لم تكن تنطق باسمه قط، ولم تكن تدعوه إلا «مُذَمَّمًا». ومما أثر عنها فى ذلك قولها :

«مُذَمَّمًا قَلَيْنَا[1] ودينه أبينا[2] وأمره عصينا!»

وكان صلى الله عليه وسلم. يضحك من ذلك ويقول : «يا عباد الله، انظروا كيف يصرف الله عنى شتمهم ولَعْنهم... ؟ يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً وأنا محمد!...».

ولعل أم جميل كانت مدفوعة إلى هذه العداوة القاسية، بعاطفة العداوة القديمة بين بنى هاشم رهْطِ[3] رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبين رهطها بنى أمَيَّةَ بن عبد شمس؛ فقد كان بين الرهطين نزاع دائم، وتنافس على مناصب الشرف والزعامة فى قريش، منذ عهد قصَىّ بن كلاب، وقد ظلت الأجيال

(١) قليناه : كرهناه وأبغضناه.

(٢) أبينا : أبينا الدخول فى دينه.

(٣) رهطه : قومه وعشيرته.

تتوارث هذه العداوة جيلا بعد جيل، فكان لها فى الجاهلية وفى الإسلام تاريخ طويل، خُضِبَت صفحاته بالدماء الغزيرة، وامتلأت بالخطوب الجسام.

ولعلها كذلك كانت مدفوعة إلى هذه العداوة، بعاطفة البغض الطبيعى بين الحماة وزوجة الابن؛ فقد كانت حماة لابنَتَى الرسول رقية وأم كلثوم؛ فوجدت فى دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام، وفى خروجه على دين قومه، فرصة للتنفيس عن نفسها، والجهر بما تُكِنّ فى صدرها من الحقد والكراهية للرسول وآل بيته. وقد بلغ من حقدها وكراهتها أن أثَّرت عداوتها فى نفس وَلَدَيْها عتبة وعتيبة فطلقا زوجتيهما، نكاية فى رسول الله ﷺ وحقدًا عليه.

ولعل زوجها أبا لهب كان فى استمرار عداوته للرسول مدفوعًا بتأثيرها أيضًا، فلم يكن يسرها أن تهدأ العداوة بينه وبين عمه؛ وكلما رأت منه جنوحًا إلى الصفاء، نفثت فيه سموم البغض فعاد إلى عداوته وضغنه. فقد كانت - فيما يُظَنّ - امرأة جريئة وقحة، سليطة اللسان، قوية التأثير فيمن حولها؛ فإن ما وصفها به القرآن من شنيع الوصف، وما توعَّدها به من شديد العذاب، يدل دلالة واضحة على أنها كانت قوية التأثير فيمن يحيطون بها، من الأهل والجيران والرفقاء.

ومهما يكن من شيء فقد كانت هي وزوجها أبو لهب من أشد الناس عداوة للرسول ودعوته، وكان همها الشديد وحزنها البالغ أن تظهر هذه الدعوة، وأن ينجح هذا الرسول في تحويل الناس عن دين قريش؛ فجعلا شغلهما الشاغل أن يفسدا على الرسول أمره، وأن يصرفا الناس عن دعوته، وأن يبذلا في ذلك كل ما يستطيعان من جُهد ووقت وراحة ومال.

الجهر بالدعوة

على أن ذلك لم يمنع رسول الله ﷺ أن يجهر بدعوته وأن ينادي بها قريشًا، حين أوحى الله إليه أن يَصدع بأمره، وأن يُعرض عن المشركين ولا يبالي بهم. فلم يلبث أن ذهب إلى الصفا فصعد عليه، وجعل يصيح: «يا صَباحاه!.. يا صباحاه!...» - جريًا على عادة العرب حين يتداعَوْن لأمر مهم، وحين يستصرخون لدفع خَطْب مُلِم - حتى اجتمعت إليه بطون قريش؛ فلما اجتمعوا إليه قال لهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا وراء هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟..» قالوا: نعم. أنت عندنا غير مُتَّهم، وما جربنا عليك كذبًا قط. قال: «فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد!... يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زُهرة، يا بني تَيْم، يا بني مخزوم، يا بني أسد... إن الله أمرني

أن أنذر عشيرتى الأقربين، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا، إلا أن تقولوا : لا إلــه إلا الله. . . يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئاً. . . إن مَثَلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهلــه أن يسبقوه إليهم، فجعــل يهتِف : يا صَباحاه ! . . يا صَباحاه ! . . أُتيتم، أُتيتم[1] ! . . »

فقاطعه أبو لهب بقوله : « تبًا لك سائرَ اليوم ! . . . ألهذا جمعتنا. . . ؟ » وكان هو أول من رد عليه فكذّبه وآذاه، وصرف الناس عنه؛ فأنزل الله فى ذلك قوله سبحانه : ﴿تَبَّتْ يَدا أبى لَهبٍ وتَبَّ[2]* ما أغْنَى عنه ماله وما كَسَب* سَيَصْلَى نارًا ذات لهب* وامرأتُه حَمَّالَةَ الحطَب* فى جِيدِها حَبلٌ مِنْ مَسَدٍ[3] ! . . .﴾.

صيحة الصفا وأثرها فى قريش

على أن هذه الصيحة لم تذهب سُدى؛ فقد شاع حديث الدعوة فى مكة منذ ذلك اليوم، وتحدث الناس به فى مجالسهم

---

(١) أتيتم : دهمكم العدو.

(٢) التب والتباب : الهلاك.

(٣) الجيد : العنق. والمسد : الليف.

وأنديتهم. وجعلت نفوس أهل مكة تتهيأ لهذا الأمر؛ فأخذوا يتساءلون فيما بينهم: ما هذا الدين الذى يدعو إليه محمد؟... ﴿فمنهمُ من هَدَى الله، ومنهم مَنْ حَقَّتْ عليه الضَّلالة﴾[1].. فأما الذين كتب الله لهم السعادة، فقد جعلوا يتسللون تباعًا إلى رسول الله ﷺ، يستوضحونه أمرَ هذا الدين الذى يدعو إليه، فيشرحه لهم فيُسلمون. وأما الذين كتب عليهم الشقاء، فقد أعرضوا عن هذه الدعوة، وعَميت بصائرهم أن تستضىء بنورها، وكانوا فى ذلك فريقين: فريق وقف منها موقف الموادعة والمسالة، فلم يقاومها ولم يعرض لها بسوء؛ وفريق وقف منها موقف العداء والمحاربة، فجعلوا وكْدهم أن يقاوموها وأن يقضوا عليها؛ وكان جُلّ هؤلاء، بل كلهم، من الزعماء والسادة، الذين رأوا فى هذه الدعوة قضاء على سيادتهم، وخطرًا على مصالحهم. وكان أشدّهم عداوة وأعنفَهم حربًا للرسول ودعوته، أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، وعُقْبة بن أبى مُعَيْط؛ وقد كان الأخيران جارين للنبى يؤذيانه أشد الأذى. وفى ذلك يقول، صلى الله عليه وسلم، فيما روت عائشة: «كنت بين شرِّ جارين: بين أبى لهب، وعقبة بن أبى معيط... إنْ كانا لَيأتيان بالفَرُوث[2]، فَيطْرَحانها على بابى، حتى إنهم ليأتون ببعض

(١) سورة النحل الآية ٣٦.

(٢) الفروث: ما يخرج من كرش الذبيحة.

ما يطرحون من الأذى[1]، فيطرحونه على بابي ا . . » فيخرج بـه، صلى الله عليه وسلم، فيقول : « يا بنى عبـد منـاف، أىُّ جِـوارٍ هذا ؟ . . . » ثم يلقيه بالطريق.

(١) المراد بالأذى هنا : كل ما يؤذى الإنسان منظره. ولعل المقصود منه هـو البـراز؛ وما يماثله من النجس.

أبو طالب وقريش

أحاديث قريش عن الدعوة

أخذ صوت الإسلام بعد صيحة الصفا يرتفع فى مكة، بعد أن ظل خافتًا نحو ثلاث سنين، وأخذ المسلمون يتحدثون به جهرًا بعد أن كانوا يتهامسون به همسًا، وأخذ الناس يتساءلون عن هذا النبأ العظيم الذى جاءهم به محمد؛ حتى صار ذلك حديث الغادى والرائح فى مكة، وجعل الناس يتحدثون به فى مجالسهم الخاصة والعامة، فى بيوتهم وأنديتهم، وفى أوقات جِدّهم ولهوهم، وشغلهم وفراغهم، وسفرهم وإقامتهم.

وأخذ المستضعفون من العبيد والإماء ومن المساكين والفقراء، ومن الأتباع والموالى، يستمعون إلى أنباء هذه الدعوة، فيتنسّمون منها رَوْح الأمل يهبُّ عليهم، فيُطْمِعهم فى حياة أفضل من هذه الحياة، وفى منزلة أكرم من هذه المنزلة؛ فقد كانوا يعيشون فى غَمرة من الإهمال والظلم، تجعلهم أحط درجة من الحيوان الأعجم، ويقضون أيام الحياة مغمورين مطمورين،

مرغمين على أن يقبلوا عيشة الذل والبؤس حتى يموتوا. فهم يقطعون أيامهم بلا أمل ولا رجاء، ويعيشون ويموتون نَسْيًا منسيًّا، كأنهم سَقَطُ المتاع[1] فى هذا الوجود.

فجاءهم الإسلام بمبادئه القويمة، لينقذهم من ذلك اليأس القاتل، ويفتح لهم باب الأمل فى حياة أخرى بعد هذه الحياة، فيها العدالة المطلقة التى لا ظلم فيها، وفيها الجزاء الحق الذى لا شك فيه، وفيها السعادة الدائمة التى لا انقطاع لها. وهوّن عليهم أمر الحياة الدنيا وما يلاقون فيها من شدة العيش وقسوة الظلم؛ فما هى إلا فترة قصيرة يستطيع المرء أن يحتمل ما يعانيه فيها من المشقة، وأن يصبر على ما يلاقيه فيها من الظلم، حتى يصير إلى الحياة الآمنة المطمئنة، فيستمتع بما فيها من السعادة الدائمة. وكل ما يبذله ثمنًا لهذه السعادة، أن يَعْمُر قلبه بالإيمان بالله، وأن يملأ أيامه بالعمل الصالح.

أما هؤلاء الذين يظلمونهم من الأقوياء والسادة، فليس الله غافلا عنهم، ﴿إنما يُؤخرُهم ليوْمٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار* مُهْطِعِين مُقْنِعى رُءُوسهم لا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هَواءٌ... يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّمٰواتُ، وبَرَزُوا لله

(١) سقط المتاع: ما لا قيمة له ولا غناء فيه من الأشياء.

الوَاحِدِ القهَّار* وتَرَى المجرمين يَوْمئذٍ مُقَرَّنين فى الأصْـفاد * سَرَابيلُهم من قَطِرَانٍ وتَغْشَى وُجوهَهم النارُ * ليَجزىَ الله كلَّ نفسٍ ما كَسَبَتْ، إنّ الله سريعُ الحِساب﴾[1].

إقبال المستضعفين على الإسلام

بعثت هذه المبادئ السَّمْحة الأمل فى نفوس المستضعفين، فأقبلوا يتدافعون إلى الإسلام إقبال الظِّماء على زلال الماء؛ فيتلقاهم رسول الله ﷺ بالبر والتكريم، ويبسط لهم وجهه وقلبه ومجلسه، ويسوِّى بينهم وبين الذين يؤمنون من السادة والأشراف، لا يفرق فى ذلك بين الغنى والفقير، ولا بين القوى والضعيف، ولا بين الحر والرقيق؛ ويقف منهم جميعًا موقف الأخ الشفيق والوالد الرحيم، ﴿يأمرُهم بالمعروف ويَنهاهم عن المنكَر، ويُحَلُّ لهم الطيبات ويُحَرِّمُ عليهم الخبائثَ، ويضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلال التى كانت عليهم﴾[2]، ويضرب لهم المثل الكامل بخُلُقه ودينه؛ وهم يتبعونه ويقلدونه، ويترسَّمون خطاه فيما يقول وما يفعل، ويطيعونه طاعة الإكبار والإخلاص والحب.

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٤٢ - ٥١.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

استهانة قريش بالرسول ودعوته

ولم تكن قريش فى أول الأمر تدرك ما فى هذه الدعوة من خطر على سيادتها ودينها، فكانت تنظر إلى الرسول وصحبه فلا تأبه لهم، ولا تلقى بالا إليهم، ولا ترى فيما يفعلون شيئًا تنكره عليهم؛ وإنما هو رجل اختار لنفسه خُطة فى الحياة ووافقه فيها نفر من الناس، فهو لا يعدو أن يكون واحدًا من ثلاثة... إما كاهن يتوهم الحق توهمًا كما يصوره له تَبِيعه من الجن، ثم يصوغه كلامًا أجوف، فى ألفاظ مسجوعة، وعبارات موضوعة، لها طنين ورنين، ولكن لا تغنى من الحق شيئًا... وإمّا شاعر يهيم فى أودية الخيال، ويسبح فى متاهات الضلال، ويسحر الناس بحُلو لسانه وسحر بيانه، فيتبعه الغاوون الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون... وإما صابئ مجنون، من أولئك الذين تضطرب عقولهم فيخرجون على دين الآباء، فينبذهم المجتمع نبذ النوى، ويضطرهم إلى الفرار منه فيقضون حياتهم فى وحشة وانقباض، وعزلة وانفراد، حتى يأتيهم الموت فيريحهم ويريح منهم.

ويؤكد الله تعالى لهم أن رسوله محمدًا ﷺ ليس واحدًا من أولئك، ويقسم على ذلك فيقول جل شأنه: ﴿فلا أقسمُ

بما تُبصرون * وما لا تبصرون * إنه لَقَول رسول كريم * وما هو بقول شاعر، قليلا ما تُؤمنُون * ولا بقول كاهن، قَليلا ما تَذكَّرون * تنزيلٌ من ربّ العالمين﴾[1]... ولكنهم لا يصدقون. وكلما رأوا رسول الله يهتم بالدَّهماء ويخالطهم، ويُنزلهم منازل الكرامة والاعتبار سخروا منه، وعابوا عليه أن يكون رسولا ثم يهبط بنفسه إلى مستوى الدهماء، أو يرتفع بهم إلى مستواه. ويقولون: هذا دين السفهاء، ﴿لو كان خَيرًا ما سَبَقونا إليه﴾[2]. ويضحكون من المؤمنين كلما رأوهم، ويتفكهون بأخبارهم ويَتندَّرون بما يصنعون معهم. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿إن الذين أجْرَموا كانوا من الذين آمَنوا يضحكون * وإذا مَرُّوا بهم يَتَغامَزُون * وإذا انْقَلَبوا إلى أهلِهم انقلبوا فَكِهين * وإذا رأوْهم قالوا: إن هؤلاء لَضَالون﴾[3].

ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يعبأ بهم ولا يهتم بسُخْرهم واستهزائهم، بل هو ماض فى سبيله يدعو إلى الله على بصيرة، وأتباعه من الضعفاء يكثرون ويتزايدون، وقليل من السادة بين الحين والحين يُسلمون.

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٣٨ - ٤٣.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١١.

(٣) سورة المطففين الآيات ٢٩ - ٣٢.

قريش تحس خطر الدعوة

وانتشر الإسلام فى مكة وذاع نبؤه فى أرجائها، ودخل الناس فيه أرْسالا من الرجال والنساء؛ وبدأ رسول الله يعيب على الكفار دينهم، ويَذْكر آلهتهم بالسوء، ويتوعدهم بما أُعِد لهم من العذاب فى الآخرة؛ فساء الأمر بينه وبينهم، وبدأت العداوة تسرى فى القلوب، وأخذوا يُحسون خطر الإسلام عليهم وعلى دينهم، ويفكرون فى القضاء عليه قبل أنْ يتفاقم خطرُه ويتعاظم ضررُه؛ واجتمعوا يتبادلون الرأى فيما بينهم : كيف يقضون على هذا الدين، ويصرفون الناس عنه ؟.

أما شباب قريش وفتيانها المتحمسون، فقد رأوا أن يَحْسموا الداء من أساسه، ويقطعوا الشجرة من جذورها، ولا يرون ذلك إلا بقتل محمد والخلاص منه. وأما شيوخها وحلماؤها فقد آثروا الحكمة والأناة، ورأوا ألا يَعْرضوا لمحمد بسوء حتى يُعْذروا فيه، وحتى يسمع منهم ويسمعوا منه؛ فلعله أن يعود إلى الرشد فيرجع إلى دين آبائه.

وتغلبت حكمة الشيوخ على حماسة الشباب، فرأوْا أن يقنعوا محمدًا بالحسنى؛ فاجتمع به الملأ من قريش، وحاولوا أن يعودوا به إلى دين قومه، وأن يرجعوه عن هذا الدين الذى فرّق به

شملهم وعاب آلهتهم، وجرّأ سفهاءهم على أشرافهم. فلم يسمع رسول الله ﷺ لهم ولم يقبل منهم، وقال لهم كما علمه الله سبحانه: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبُدُ ما تَعبُدون * ولا أنتم عابدون ما أعبدُ * ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتم * ولا أنتم عابدون ما أعبدُ * لكم دينُكم وليَ دين﴾[1].

قريش تسعى إلى أبى طالب

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش رسول الله لا يُعْتبهُم[2] من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعَيْب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدَب عليه وقام دونه فلم يُسْلمه إليهم.. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب: عُتْبةُ وشَيْبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البَخْتَرِيّ العاصى ابن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل بن هشام، والوليد ابن المغيرة، ونبيه ومُنَبه ابنا الحجاج، والعاصى بن وائل - أو من مشى منهم - فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكُفّه عنا، وإما أن تُخلى بيننا وبينه فنَكْفيكَهُ، فإنك على مِثل

---

(١) سورة الكافرون.

(٢) لا يعتبهم: لا يرضيهم.

ما نحن عليه من خلافه!... فقال لهم أبو طالب قولا جميلا، فانصرفوا عنه؛ ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه...

ثم شَرِيَ[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش من ذكر رسول الله بينها فتَذَامَرُوا[2] فيه، وحض بعضهم بعضًا عليه.

ثم إنهم مشَوْا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استَنْهَيْناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنا. وإنا - والله - لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلِك أحد الفريقين - أو كما قالوا - ثم انصرفوا عنه، فعظُم على أبى طالب فراقُ قومه وعداوتهم؛ ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ولا خذلانه.

العزيمة الصادقة

قال ابن إسحاق.. حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة ابن الأخْنَس: أن قريشًا حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة،

---

(١) شَرِيَ: اشتد.

(٢) تذامروا: اجتمعوا على كراهته وبغضه.

بعث إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا - للذى كانوا قالوا له -. فأبْقِ علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. (قال): فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بُدُوّ، وأنه خاذله ومُسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلِك دُونَه!...» ثم استَعْبَر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام... فلما ولّى ناداه أبوطالب فقال: أقبِلْ يا ابن أخى... فأقبل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلمك لشىء تكرهه أبدًا...

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله وإسلامَه، وإجماعَه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشَوْا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له - فيما بلغنى -: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنْهَدُ فتًى فى قريش وأجملُه؛ فخذْه، فلك عقله ونصره، واتخذْه ولدًا فهو لك... وأسلِم لنا ابن أخيك - هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم -

فنقتله، فإنما هو رجل برجل. قال أبو طالب: والله لَبِئْسَ ما تَسُومونني!.. أتعطونني ابنكم أغْذُوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟... هذا والله لا يكون أبدًا!... (قال): فحَقِب الأمر وحَمِيت الحرب، وتنابذ القوم وبادَى بعضهم بعضًا»

بنو هاشم يتعصبون للرسول

ورأى أبو طالب أن الأمر بينه وبين قريش أصبح جدًّا لا هزل فيه، وأنه غدا أمر كرامة لا بد أن تصان، وعصبية لا بد أن يدافع عنها؛ فجمع بنى هاشم وعرض عليهم ما دار بينه وبين قريش، وما كان من أمره وأمرهم، وتشاور معهم فيما يجب أن يُفعل؛ فاتفق رأيهم جميعًا على أن يَذودوا عن شرفهم، وأن يقفوا صفًّا وراء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإن لم يكونوا على دينه.. إلا أبا لهب، فقد خرج بمفرده على إجماعهم، وآثر أن ينحاز إلى جانب العدو، وإن شذ فى ذلك عن مألوف العرب وتقاليدهم؛ مدفوعًا إلى ذلك بما كان يكُنّ فى صدره من الحقد على رسول الله ﷺ وعلى دعوته.

وهكذا وقفت قريش كلها صفًّا، ووقف بنو هاشم صفًّا وأخذت العداوة بين الفريقين تعمل عملها.. قريش تدافع عن دينها وسيادتها، وبنو هاشم يدافعون عن شرفهم وكرامتهم..

وكان للخصومة القديمة بين بنى هاشم وبنى أمية أثرها فى اشتداد هذه العداوة وقسوتها؛ ولكن بنى هاشم صمدوا لها صُمود الأبطال، ولم تسمح لهم كرامتهم، أن يتخلوا عن رسول الله، وإن كانوا قد احتملوا بسببه أذى كثيرًا.

الاضطهاد والتعذيب

غيظ قريش

أثار موقف أبى طالب ثائرة السادة من قريش، ودفعهم إلى الشّطط فى محاربة الدعوة، فقد عرضوا عليه كل ما يمكن من عروض الترضية، ليتخلى لهم عن ابن أخيه، فلم يظفروا منه بطائل، ووقف من دونه كالطود يحميه ويحوطه، ومن ورائه بنو هاشم يناصرونه ويشدون أزره. واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى دعوته، يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد القهار، ونَبْذ ما يعبدون من دونه مما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ وتتابع نزول القرآن عليه فى تحقير آلهة المشركين، وجعل رسول الله ﷺ كلما نزلت عليه آية تلاها على أصحابه، فيذيعونها فى أرجاء مكة، فيشتد لذلك غضب الملأ من قريش، ويدفعهم الغضب إلى الثورة، ويحفزهم للانتقام من هذا الذى يعرض لآلهتهم بالسوء.. ولكن ماذا ينالون منه وبنو هاشم من حوله يحوطونه ويمنعونه؟..

انتقام قريش

واشتد بهم الغيظ، لم يجدوا متنفسًا لغيظهم إلا أن يثوروا بالضعفاء الذين أسلموا واتبعوا محمدًا، ممن لا سند لهم يمنعهم، ولا ظهر لهم يحميهم، فانقضّت كلُ قبيلة على من فيها من العبيد والإماء، والمساكين والفقراء، والأتباع والموالى، يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم. وافتنوا فى ذلك أفانين، وابتدعوا ضروبًا من الشر، تدل بوحشيتها وقسوتها على ما كانت تغلى به صدروهم من الثورة والغيظ، ومن الحقد الشنيع على دعوة الإسلام، وعلى كل من يؤمن بها، أويتعصب لها، أويدافع عنها.

تعذيب المستضعفين

قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل: «فأما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه؛ فلما رأوا امتناع من له عشيرة، وثَبَتْ كل قبيلة على من فيها من مستضعفى المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورَمضاء مكة والنار، ليفتنوهم عن دينهم.. فمنهم من يُفتَن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب فى دينه ويعصمه الله منهم..

بلال

فمنهم بلال بن رَبَاح الحبشي، وكان أبوه من سَبْي الحبشة وأمه حَمامة سَبِيَّةٌ أيضًا.. فصار بلال لأمية بن خلف الجُمَحيّ، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول: لا والله، لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى!.. فيقول وهو فى ذلك البلاء: «أحَد.. أحد!..» فرآه أبو بكر يعذب فقال لأمية بن خلف ألا تتق الله فى هذا المسكينْ؟.. فقال: أنت أفسدته فأبعدته. فقال له أبو بكر: عندى غلام على دينك أسود أجلَدُ من هذا، أعطيكه به. قال: قبلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا فأعتقه فهاجر وشهد المشاهد[1] كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

آل ياسر

ومنهم عمار بن ياسر. أسلم هو وأبوه وأمه، وأسلم قديمًا ورسول الله ﷺ فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، بعد بضعة

(١) المشاهد: الغزوات.

وثلاثين رجلاً. وكان ياسر حليفًا لبنى مخزوم؛ فكانوا يُخرجون عمارًا وأباه وأمه إلى الأبطح[1] إذا حميت الرمضاء، يعذبونهم بحرّ الرمضاء؛ فمر بهم النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: «صبرًا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة!».. فمات ياسرٌ فى العذاب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل، فطعنها فى قُبُلها بحربة فى يديه فماتت؛ وهى أول شهيدة فى الإسلام. وشددوا العذاب على عمار، بالحر تارة وبوضع الصخر أحمر[2] على صدره تارة، وبالتغريق تارة أخرى؛ وقالوا: لن نتركك حتى تسب محمدًا وتقول فى اللات والعزى خيرًا..! ففعل، فتركوه. فأتى النبىّ، صلى الله عليه وسلم، يبكى. فقال له: «ما وراءك»؟ قال: شر يا رسول الله!.. كان الأمر كذا وكذا. قال: «فكيف تجد قلبك؟..» قال: أجده مطمئنًا بالإيمان. قال: «يا عمار، إن عادوا فعُد».. فأنزل الله تعالى: ﴿إلا مَنْ أُكْرِه وقَلْبُه مُطمئن بالإيمان﴾[3]. فشهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

(١) الأبطح: فضاء واسع يكثر فيه الحصى.

(٢) أحمر: أى حاميًا شديد الحرارة.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٦.

خباب

ومنهم خَبّاب بن الأرتّ.. كان أبوه سوَاديًّا من كسكرَ؛ فسباه قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة. فباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعى، حليف بنى زهرة.. وكان إسلامه قديمًا - قيل: سادس ستة - قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. فأخذه الكفار وعذبوه عذابًا شديدًا، فكانوا يُعرونه ثم يُلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضَف - وهى الحجارة المحاماة بالنار - ولَووا رأسه، فلم يجبهم إلى شىء مما أرادوا منه. وهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

صهيب

ومنهم صُهَيْبُ بن سِنَان الرومى.. ولم يكن روميًّا، وإنما نسب إليهم لأنهم سَبوه وباعوه.. وهو من النمر بن قاسط. كناه رسول الله «أبا يحيى» قبل أن يولد له. وكان ممن يعذّب فى الله فعذب عذابًا شديدًا. ولما أراد الهجرة منعته قريش، فافتدى نفسه منهم بماله أجمع.

عامر بن فهيرة

أما عامر بن فُهَيْرة فهو مولى الطُّفَيْل بن عبد الله الأزدى - وكان الطفيل أخا عائشة لأمها، أم رومان - أسلم قديمًا قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. وكان من المستضعفين، يعذب فى الله فلم يرجع عن دينه. اشتراه أبو بكر وأعتقه، فكان يرعى غنمًا له. وكان يروح بغنم أبى بكر إلى النبى وإلى أبى بكر لما كانا فى الغار؛ وهاجر إلى المدينة يخدمهما، وشهد بدرًا وأحدًا، واستشهد يوم بئر مَعُونة؛ ولما طُعن قال: «فُزْت ورب الكعبة!..».

أبو فكيهة

ومنهم أبو فُكَيْهة.. وكان عبدًا لصفوات بن أمية.. أسلم مع بلال، فأخذه أمية وربط فى رجله حبلًا، وأمر به فجرّ، ثم ألقاه فى الرمضاء، ومرّ به جُعَل[1] فقال له أمية: أليس هذا ربّك؟ قال: الله ربى وربك ورب هذا.. فخنقه خنقًا شديدًا؛ ومعه أخوه أبىّ بن خلف، فيقول: زده عذابًا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره. ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد

---

(١) الجعل: الجعران.

مات؛ ثم أفاق.. فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه. وقيل: إن بني عبد الدار كانوا يعذبونه - وكان مَوْلًى لهم - وكانوا يضعون الصخرة على صدره حتى دَلَع[1] لسانُه، فلم يرجع عن دينه، وهاجر ومات قبل بدر!.

لبينة

ومنهم لُبينة، جارية بني مؤمل بن حبيب.. أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب؛ وكان عمر يعذبها حتى تفتن، ثم يدعها ويقول: إني لم أدعك إلا سآمة. فتقول: كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

زنيرة

ومنهم زنيرة.. وكانت لبني عديّ، وكان عمر يعذبها. وقيل: كانت لبني مخزوم؛ وكان أبو جهل يعذبها حتى عَميت. فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك. فقالت: وما يُدرى اللات والعزى من يعبدهما؟ ولكن هذا أمر السماء، وربي قادر على رد بصري!.. فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها.

---

(١) دلع: خرج.

فقالت قريش : هذا من سحر محمد.. فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

النهدية

ومنهم النُّهدية.. مولاة لبنى نهد، فصارت لامرأة من بنى عبد الدار فأسلمت. وكانت تعذبها وتقول : والله لا أقلعت عنك أو يبتاعك بعض أصحاب محمد!.. فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

أم عنيس

ومنهم أم عُنَيْس.. وهى أمَةٌ لبنى زهرة، فكان الأسود بن عبد يَغُوث يعذبها.. فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

* * *

وهكذا أسرف المشركون فى تعذيب الضعفاء من المسلمين، وأرهقوهم إرهاقًا شديدًا، حتى كان منهم من لا يقوى على احتمال العذاب فيموت فى أيديهم، ومنهم من تضطره قسوة التعذيب إلى مجاراة المشركين، فيرضيهم بظاهر من القول وقلبه مطمئن بالإيمان.

قال ابن إسحاق : «.. حدثنى حكيم بن جُبَيْر عن سعيد

ابن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به عن ترك دينهم؟ قال: نعم والله!.. إن كانوا لَيضربون أحدهم ويُجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوى جالسًا من شدة الضرُّ الذى به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة.. حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم.. حتى إن الجُعَل ليمرُّ بهم فيقولون له: هذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم.. افتداءً منهم مما يبلغون من جهده.

قال ابن إسحاق: وكان أبو جهل الفاسق هو الذى يُغْرى بهم فى رجال من قريش.. إن سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومَنَعة أنّبه وخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك؟ لنُسَفِّهن حِلْمك، ولنفلِّلَنّ رأيك، ولنضعن شرفك!.. وإن كان تاجرًا قال: لنُكسدن تجارتك، ولنُهلكنّ مالك!.. وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به».

الرسول يثبت أصحابه

وكان رسول الله ﷺ يتألم لأصحابه أشد الألم، ولكنه كان يدعوهم إلى الصبر، واحتمال ما يلقون من العذاب والأذى فى

سبيل الله حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده. وكان يهوّن عليهم شدة العذاب بما يذكر لهم من سيَر المؤمنين فى الأمم التى خلت، وما كان من قوة احتمالهم، ورسوخ إيمانهم، وصبرهم على ألوان من العذاب أشنع وأقسى مما يلاقون هم. ويؤكد لهم أن نصر الله آت لا ريب فيه، وأن رحمة الله قريب من المحسنين.

روى البخاريّ عن قيس قال: سمعت خبابًا يقول: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببردِه وهو فى ظل الكعبة - وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: «قد كان من كان قبلكم تُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه!.. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه!.. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون..!»

لم يقتصر التعذيب على الضعفاء

على أن كثيرًا من المسلمين الذين كانت لهم عشيرة تحميهم لم يسلموا كذلك من الأذى.. فقد عُذب عثمان بن عفان وكان

من علية القوم؛ وأوثقه عمه بحبل من مَسَد وجعل يضربه ضربًا مبرّحًا. وكان الزبير بن العوام يُلَفّ فى حصير ويترك ليستنشق الدخان. وشَجّ عمر بن الخطاب أخته فاطمة حتى سال منها الدم، وضرب كذلك زوجها سعيد بن زيد. وقُيِّد أبو جندل بن سُهَيل بن عمرو فى الحديد وحبس، وعذبه أبوه عذابًا شديدًا. وضُرب أبو بكر حتى شُجّ رأسه وسال منه الدم وغُشى عليه، وحتى خرج مهاجرًا إلى الحبشة، لولا أن رده ابن الدغنة سيد الأحابيش وأجاره من أذى قريش.

ولم يسلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الأذى، على رغم ما كان يحوطه من حماية بنى هاشم؛ فقد كانوا يضعون الشوك والقذر فى طريقه، وكانوا يلقوْن على رأسه التراب وهو سائر، ويضعون عليه سَلَى[1] الذبيحة وهو ساجد فى البيت الحرام. وخنقه عُقبة بن أبى مُعيط فى رجال من قريش حتى كادت نفسه تفيض، لولا أن تداركه أبو بكر فخلصه منهم وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟» وسبه أبو جهل سبًّا قبيحًا يوم أسلم عمه حمزة. وسلطت عليه ثقيف سفهاءها وصبيتها يرمونه بالحجارة حتى دَمِيَت قدماه.. وكذبوه وسفّهوه واستهزءوا

(١) السلى: الخلاص، وهو الكيس الذى يكون فيه الجنين وهو فى بطن أمه.

به وسخروا منه، وقالوا: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، وأسمعوه كثيرًا من فحش القول وهُجر الكلام، وائتمروا به ليقتلوه.. ولن كل ذلك لم يَفُتّ فى عضدُه، ولم يمنعه أن ينهض بأمر ربه، حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً.

الهجرة إلى الحبشة

خاف النبي على أصحابه الفتنة

رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن كفار قريش ممعنون فى تعذيب أصحابه، مندفعون فى وحشية قاسية إلى التنكيل بهم، انتقامًا لآلهتهم، وإبقاء على مكانتهم. ورأى أنه غير قادر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، فخشى على أصحابه أن يفتنهم طول العذاب عن دينهم، ورأى أن يختار لهم مكانًا يأمنون فيه على أنفسهم، ويتوارون فيه بعض الوقت عن وجوه أولئك الظَّلمة الجبابرة؛ فأشار عليهم أن يهاجروا إلى الحبشة، وقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صِدق حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه!».

وكانت الحبشة تدين بالنصرانية - دين عيسى ابن مريم - صلى الله عليه وسلم؛ وكان ملكها النجاشي نصرانيًّا صادق النصرانية، فخرج إلى الحبشة أحد عشر رجلًا وأربع نساء، فيهم

عثمان بن عفان وزوجته رُقية بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفيهم الزبير بن العوام ابن عم خديجة، وجعل النبي عليهم عثمان بن مظعون، فكان هذا الفوج أول من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة، وكانت هجرتهم إليها فى شهر رجب من السنة الخامسة للرسالة.

فلما وصلوا إليها أكرم النجاشي مثواهم، وأحسن لقاءهم، ووجدوا عنده من الطمأنينة والأمن ما لم يجدوه فى وطنهم وأهليهم؛ فشجعهم ذلك على أن يبعثوا فى طلب إخوانهم المعذبين فى مكة، فأرسلوا نفرًا منهم ليخبروا رسول الله بما هم فيه من حسن الجوار وطيب العيش فى بلاد النجاشي، ويعرضوا على من شاء من إخوانهم المسلمين أن يهاجروا معهم. فهاجر معهم فى هذه المرة عدد كبير من الصحابة، حتى بلغ عدد الذين هاجروا إلى الحبشة نحو الثمانين رجلًا، عدا من كان معهم من النساء والأطفال؛ فأقاموا هنالك عند النجاشي فى خير مقام. فغاظ ذلك قريشًا، ودعاها إلى التفكير فى أمر هذه الهجرة.

السعى بالمهاجرين عند النجاشي

قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل: «لما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا، وأن النجاشي قد أحسن

صحبتهم، ائتمروا بينهم؛ فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما هدية إليه وإلى أعيان أصحابه فسارا حتى وصلا إلى الحبشة؛ فحملا إلى النجاشي هديته وإلى أصحابه هداياهم، وقالا لهم: إن ناسًا من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم؛ وقد أرسلنا أشرافُ قومهم إلى الملك ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم. وخافا إن سمع النجاشي كلام المسلمين ألا يسلمهم. فوعدهما أصحاب النجاشي المساعدة على ما يريدان.

ثم إنهما حضرا عند النجاشي فأعلماه ما قد قالاه؛ فأشار عليه أصحابه بتسليم المسلمين إليهما، فغضب من ذلك وقال: «لا والله، لاأسلم قومًا جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي.. حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان؛ فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ما يقول هذان، منعتهم وأحسنت جوارهم!».

النجاشي يأبى أن يردهم

. ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم فحضروا، وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره، وكان المتكلم

عنهم جعفرُ بن أبى طالب. فقال لهم النجاشى : « ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من الملل ؟ » فقال جعفر : « أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئًا، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام؛ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم؛ وأمرنا بالصلاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - (قال) : فآمنا به وصدقناه، وحرّمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحلّ لنا؛ فتعدى علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان؛ فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك ».

فقال النجاشى : « هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ » قال : « نعم ». وتلا عليه صدْرًا من « سورة مريم »؛ فبكى النجاشى وأساقفته، وقال النجاشى : « إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ! .. انطلقا؛ فوالله لا أسلمهم

إليكما أبدًا ! . . » فقال عمرو بن العاص للنجاشي : « إن هـؤلاء يقولون فى عيسى ابن مريم قـولاً عـظيمًا ! . . » فسـألهم النجـاشى عن قولهم فى المسيح. فقال جعفر : نقول فيه الـذى جـاءنا بـه نبينا : « هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمتـه ألقـاها إلى مـريم العذراء البَتول » فأخذ النجـاشى عـودًا مـن الأرض وقـال : « ما عدا[1] عيسى ما قلت هذا العـود ! . . » وقـال للمسـلمين : « اذهبوا فأنتم آمنون. . ما أحب أن لى جبلاً مـن ذهـب وأنـى آذيت رجلاً منكم ! . . » ورد هدية قـريش ».. وأقـام المسـلمون بخير دار.

* * *

وطابت الإقامة للمسلمين بأرض الحبشة، ووجدوا من ملكها النجاشى كل رعاية وعناية، فأقاموا بهـا آمنـين، لم يـرجع منهـم أحد إلى مكة إلا عثمان بن عفان، فقد رجع إليها بعد قليل هو وامرأته رقية بنت رسول الله، صلى الله عليـه وسـلم، أمـا بقيـة المهاجرين من أصحاب رسول الله، فقد ظلـوا مقيمـين بـالحبشة نحو أحد عشر عامًا، ولم يرجعوا حين رجعوا منها إلى مكة، بل رجعوا إلى المدينة بعد أن هاجر النبى إليهـا، وبعـد أن تم بينـه وبين قريش صلح الحديبية فى السنة السابعة من الهجرة.

---

(١) ما عدا : يعنى هو كما قلت.

ولم يعش المسلمون فى بلاد الحبشة بمعزل عن الناس، ولا بمنأى عن الحوادث التى كانت تجرى هنالك، بل شاركوا الأحباش فى عواطفهم، ففرحوا لفرحهم وحزنوا لحزنهم، وبذلوا لهم كل عواطف الود والمجاملة. وحين ثار على الحبشة بعض أعدائها، رأى المسلمون من واجبهم أن ينضموا إلى صفوف المجاهدين من الأحباش، حتى انطفأت الثورة وانتصرت الحبشة على أعدائها؛ فضربوا بذلك مثلاً عاليًا فى عرفان الجميل.

النبى يبادل النجاشى عواطفه

وقد كان بين النبى ﷺ وبين النجاشى تراسل ومكاتبات، تدل على ما كان يحمل كل منهما لصاحبه من عواطف الود، فقد كتب إليه رسول الله أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ابن حرب، وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله ابن جحش، فتنصر هناك ومات؛ فرأى رسول الله أن يضمها إليه لتكون فى رعايته وكَنَفه، وأن يجزيها على ما تحملت من مشاق الهجرة فى سبيل الله؛ فزوجه النجاشى إياها، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، فقدم بذلك مكرمة تدل على صدق مودته وإخلاصه. وحين استقر أمر الدعوة بالمدينة، كتب إليه رسول الله أنْ يبعث إليه من بقى من أصحابه ويَحملهم؛ ففعل،

وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى، رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحين بعث النبى ﷺ رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، كان النجاشى أول من أسلم، وأكرم وفادة أصحاب النبى، صلى الله عليه وسلم، وأحسن الرد على كتابه، وبعث إليه وفدًا من أصحابه، وحملهم إلى رسول الله كل عواطف المودة والإخلاص.

وحين قدِم وفد النجاشى على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه؛ فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله. فقال : «إنهم كانوا لأصحابى مكرمين، وإنى أحب أن أكافئهم».. ويوم مات النجاشى نعاه النبى ،صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، فقال لهم : «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»[1].. وخرج بهم إلى المصلى فصفَّ بهم وكبر أربع تكبيرات، فصلى عليه صلاة الغائب وصلى عليه المسلمون معه.

* * *

(١) أصحمة هو اسمه، وأما النجاشى فلقب لكل ملك من ملوك الحبشة.

حزن قريش لإخفاقها فى سعيها

أما قريش فقد كان حزنها بالغًا حين عاد إليه الرسولان خائبين، وحين علمت بما كان من إكرام النجاشي للمسلمين الذين هاجروا إلى بلاده. فلم يكن يسرها قط أن ينال المسلمون خيرًا أينما ذهبوا، وكانت تريد أن تضيق عليهم رحاب الأرض، حتى لا يجدوا مكانًا يلجأون إليه، فيعودوا إليها مرغمين فتذيقهم من ألوان العذاب ما يشفى غليلها، حتى يرجعوا كفارًا إلى دينها، أو يُقضَى عليهم فيموتوا، فيُقضَى بموتهم على دعوة الإسلام التى أقضت مضاجعهم وبلبلت أفكارهم.

كان ذلك هو ما ترمى إليه قريش، ومن أجله بذلت ما بذلت فى هدايا النجاشي وأصحابه من البطارقة، وتكلفت ما تكلفت من المشقة والجهد فى هذا السبيل، وحرصت أشد الحرص على ألا يسمع النجاشي من المسلمين كلامًا، وأوصت رسوليها بذلك أبلغ الوصية، وبالغت فى إتحاف بطارقة النجاشي بالهدايا حتى يساعدوها على تحقيق هذه الرغبة فلقد كانت قريش تعلم أن دعوة الإسلام دعوة حق، وأن النجاشي حين يسمعها لن يتردد فى حماية المؤمنين بها، لما عرف عنه من حب العدل ورعاية الحق، ولكن قريشًا كانت تدافع عن مصالحها قبل كل

شيء.. كانت تدافع عن سيادتها على العرب، وعن مصادر الثروة العظيمة التى تستمتع بها وتعيث فى نعمائها، ومن أجل هذا أرادت أن تموه الأمر على النجاشي، وتخفى عليه حقيقة ما يدعو إليه محمد وصحبه؛ ولكن النجاشى كان أذكى من أن ينخدع بتمويه قريش. وأراد الله بالمسلمين الخير حين دفعه إلى الاستماع منهم، وأراد للكافرين الخزى والخيبة والندامة، ﴿إن الذين كفروا يُنفقون أموالهم لِيَصُدُّوا عن سبيل الله، فسَيُنْفِقونها ثم تكون عليهم حَسْرَةً ثم يُغلَبُون﴾[1].

نتائج هجرة الحبشة

على أن هجرة الحبشة لم تقف نتائجها عند هذا الحد، بل كانت لها نتائج أخرى، كانت كلها خيرًا وبركة على الإسلام وأهله، فقد أشاعت فى مكة جوًّا من الخوف بَلْبَل الأفكار وزلزل القلوب، وترك رجال قريش حيارى لا يدرون ماذا يفعلون.. لقد أحس الملأ من قريش أن الزمام أخذ يفلت منهم، وأن هؤلاء الذين احتموا بأرض الحبشة من المسلمين، سيكونون بلا شك دعاية حسنة لدعوة الإسلام؛ فليس يَبْعدُ أن يتأثر الأحباش بدعوتهم فيسلموا معهم، فتقوم للإسلام دولة فى

(١) سورة الأنفال الآية ٣٦.

بلاد الحبش، ويعود المسلمون أقوياء بهذه الدولة، وقد يغيرون بها على قريش، فيقضون عليها وعلى دينها وسلطانها فإن لم يكن هذا، فسيجعل هؤلاء المهاجرون وكَدْهم[1] أن يطعنوا فى دين قريش، وأن يعيبوا آلهتها عند الأحباش كما كانوا يعيبونها فى مكة، فتتزعزع بذلك مكانة الأصنام فى نفوس الأحباش، وفى نفوس غيرهم من الأمم التى تحيط بهم، والتى تربطها بالعرب روابط المصلحة والجوار. فإن لم يكن هذا ولا ذاك، فلا أقل من أن يحاول هؤلاء أن يزعزعوا مكانة قريش فى نفوس الأحباش ومن إليهم، بما يُشيعون عنها من إشاعات السوء، فتتأثر بذلك تجارتها فى تلك البلاد؛ وربما أصابها من ذلك البوار والكساد.

وعلى أى حال فقد كانت هواجس الخوف تقلق بال قريش، وتزعج أمنها واستقرارها، حتى تركتها فى اضطراب دائم وبلبلة مستمرة، وأغلقت منافذ التفكير على ذوى الرأى فيها، وحرمتهم التوفيق فى كل ما كانوا يأتون ويدّعون من الأمر؛ فكانوا يقدمون على الأمر يظنون أن فيه النيل من رسول الله والصد عن سبيله، فينقلب عملهم خيرًا له وشرًّا عليهم.

---

(١) وكدهم : دأبهم وهمهم.

إسلام حمزة

لقد كانت نفوسهم تغلى بالحقد على رسول الله ﷺ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا به، وقد أحاطته بنو هاشم بسلطانها وقوتها؟ كل ما يستطيعون إذن أن يفعلوا، أن ينالوه ببعض الأذى كلما فارت بهم فورة الحقد.. وفى فورة من هذه الفورات لقى أبو جهل رسول الله ﷺ عند الصفا، فجعل يسبه ويناله بفاحش القول، حتى شفى غليل صدره، ورسول الله معرض عنه لا يرده ولا يصده. ويشاء الله أن يعلم بذلك عمه حمزة بن عبد المطلب وهو راجع من صيده، فتأخذه الحمية لابن أخيه، فينطلق من فوره إلى أبى جهل فيجده جالسًا فى ندىّ القوم، فيَجْبَهُهُ[1] بالقوس الذى فى يده، فيشُجُّه شجة منكرة، ثم يقف أمامه كالأسد الهائج فيقول له: «أتشتمه..؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد علىّ ذلك إن استطعت..!» فيقوم رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فيقول أبو جهل فى استخذاء وجبن: «دعوا أبا عُمارة، فإنى - والله - سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا».

ويذهب حمزة إلى رسول الله ﷺ فيعلن إليه إسلامه، فتقوى

(۱) يجبهه: يضربه فى جبهته.

به شوكة الإسلام، ويعز به المسلمون، وتعلم قريش أن رسول الله قد عز وامتنع، وأن عمه حمزة سيزداد له منعة، فيكفُّون عن بعض ما كانوا ينالون منه..

ولقد كان حمزة بطلاً يُحسَب حسابه ويُخشى بأسه، وكانت غضبته على أبى جهل هذه خيرًا وبركة على الإسلام، إذ انضم بسببها إلى الإسلام أسد قريش، فكانت شجاعته وبأسه وقوته كلها بعد ذلك فى سبيل إعلاء كلمة الله، فسمى من أجل ذلك «أسد الله».

إسلام عمر

وكما ساد مكة بعد هذه الهجرة جو رهيب من الخوف، سادها كذلك جو كئيب من الوحشة فقد كان عدد الذين هاجروا من الكثرة بحيث ترك مكانه فراغًا هائلاً، فشعر بهذا الفراغ ذوو النفوس الحساسة والعواطف المرهفة. وكان من هؤلاء عمر بن الخطاب؛ فقد شعر بهذا الفراغ شعورًا قويًّا، وعرته من أجله حالة شديدة من القلق وانقباض الصدر، وفارقه المرح والانطلاق الذى عُهد منه، فأصبح لا يغدو ولا يروح إلا منقبضًا كئيبًا، وكان عمر فتى أروع[1] من فتيان قريش،

(١) الأروع - كالرائع - من يعجبك بشجاعته، أو بحسنه وجهارة منظره.

عنيفًا شديد البأس، يمتاز بسطوله الفارع وجرأته النادرة؛ وكان كثير الأذى للمسلمين، شديد البطش بهم والغلظة عليهم؛ وكان يُضمر للإسلام ورسوله عداوة لا تقل فى عنفها عن عداوة خال أبى جهل. لكنه مع كل ذلك كان رقيق القلب فوار العاطفة، يَرِقُّ حين يلين حتى يكون كالماء، ويَعْنُف حين يشتد حتى يكون كالعاصفة.

قالت أم عبد الله بنت أبى حثْمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة : «إنا لنرحلُ إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عُمر وهو على شركه حتى وقف علىّ. وكنا نلق منه البلاء أذًى وشدة. فقال : أتنطلقون يا أم عبد الله؟ قلت : نعم! والله لنخرجن فى أرض الله، فقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجًا!.. فقال : صَحبكم الله!.. ورأيت له رقّةً وحزنًا. (قالت) : فلما عاد عامر أخبرته وقلت له : لو رأيت عمرَ ورقته وحزنه علينا؟ قال : أطمعْت فى إسلامه؟ قلت : نعم. فقال : لا يُسلم حتى يسلم حمار الخطاب!.. لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين».

فلما هاجرت كثرة المسلمين إلى الحبشة، شعر عمر لفراقهم بوحشة وانقباض وأحس بالفراغ من حوله إحساسًا قويًا، فثارت ثائرته على محمد بن عبد الله، ذلك الذى فرق أمر قريش،

وعاب دينها، وكان سبب بلائها كلـه؛ فعـزم على أن يقتلـه ليستريح الناس من شره. فخرج ذات يوم متوشحًا سيفه، يـريد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. قال ابن إسـحاق: «فلقيه نُعَيْم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمـر؟ فقـال: أريـد محمدًا هذا الصابئ، الذى فرق أمر قـريش، وسـفّه أحـلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها؛ فأقتله..! فقال له نعيم: والله لقـد غرّتك نفسُك من نفسك يا عمر!.. أتـرى بـنى عبـد منـاف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلـت محمـدًا؟ أفـلا تـرجع إلى أهل بيتك فتقيمَ أمرهم؟.. قال: وأىّ أهـل بيـتى؟.. قـال: خَتَنك[1] وابنُ عمك سعيد بن زيد بـن عمـر، وأختـك فـاطمة بنت الخطاب، فقد - والله - أسـلما وتـابعا محمـدًا على دينـه، فعليك بهما..

(قال): فرجع عمر عامدًا إلى أخته وخَتَنه، وعندهما خبّـاب ابن الأرَتّ معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يُقـرئهما إياها. فلما سمعـوا حِسّ عمر تغيب خباب فى مخدع لهم - أو فى بعض البيـت - وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحـت فخـذها؛ وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل

(١) ختنك: صهرك. وكان زوج أخته.

قال : ما هذه الهينَمة[1] التى سمعت؟ قالا له : ما سمعت شيئًا.
قال : بلى والله !.. ولقد أخبِرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه !.. وبطش بختَنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها..

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك !.. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم، ندم على ما صنع، فارْعوى[2] وقال لأخته : أعطينى هذه الصيحفة التى سمعتكم تقرءون آنفا، أنظرْ ما هذا الذى جاء به محمد.. وكان عمر كاتبًا[3]. فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها قال : لا تخافى. وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها !.. فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه، فقالت له : يا أخى، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه﴾[4]؛ فقرأها. فلما قرأ منها صَدْرًا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !..

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : يا عمر، والله

(١) الهينمة : الصوت الذى يسمع ولا يفهم المراد منه.
(٢) ارعوى : كف وخجل.
(٣) كاتبًا : يقرأ ويكتب.
(٤) فى بعض الروايات : صدر سورة طه، أى أوائلها.

إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكَم بن هشام أو بعمر بن الخطاب!..» فالله الله يا عمر! فقال له عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه[1]، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب. فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنظر من خَلَل الباب، فرآه متوشحًا السيف. فرجع إلى رسول الله وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب بالباب متوشحًا السيف..!

فقال حمزة بن عبد المطلب: فائْذَنْ له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ائذن له». فأذن له الرجل. ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة؛ فأخذ بحُجزته - أو بمجمع ردائه[2] - ثم جبذه جبذةً شديدة وقال: «ما جاء بك

(١) توشحه: لبسه كما يلبس الوشاح.

(٢) الحجزة: هي تكة السراويل ونحوه. ومجمع الرداء: ما يحيط بالعنق من الثياب (الطوق).

يا ابن الخطاب ؟.. فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بـك قارعة !..» فقال عمر: يا رسـول الله، جئتـك لأومـن بـالله وبرسوله وبما جاء من عنـد الله.. (قـال): فـكبَّر رسـول الله تكبيرًا عرف أهل البيت من أصحاب رسـول الله أن عمـر قـد أسلم!.. فتفرق أصحاب رسول الله من مكانهم، وقد عـزُّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعـرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوّهم».

ضربة قاصمة

وكان إسلام عمر ضربة قاصمة لقريش؛ فقد دخل عمـر فى دين الله بالحميَّة التى كان يحاربه بهـا مـن قبـل، وأبى إلا أن يعلن إسلامه على جُمهرَة الملأ من قريش؛ فـاختار لـذلك جميـل ابن مَعْمَر - وكان جميل أكثر رجـال قـريش نقـلا لـلأحاديث وإذاعة للأخبار - فأعلن إليه إسلامه. فلم يكد جميل يسمع النبأ حتى انطلق يذيعه فى قريش، ويدور به عليها فى أنديتها ومجالسها وهو يصيح: «يا معشر قريش، ألا إن عمر بـن الخـطاب قـد صبأ.. !» فيصيح من ورائه عمـر: «كذب!.. ولـكنى قـد أسلمت، وشـهدت أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدًا عبـده ورسوله.. !».

وقد أصيبت قريش بالذهول من هذه المفاجأة، حتى خرج رجالها عن وعيهم؛ فاجتمعوا على عمر يقاتلونه ويقاتلهم، وهم لا يدرون فيم يقاتلونه. وما زالوا يتساورون حتى عَيَّ[1] عمر ابن الخطاب، وقعد على الأرض مُجهَدًا يقول لهم: «افعلوا ما بدا لكم».. فوالله لو قد كنا ثلثمائة رجل لتركناها لكم أو تركتموها لنا!..» وما زال القوم قائمين على رأس عمر حتى مر بهم أحد زعمائهم، وهو العاص بن وائل السهمى، فصرفهم عنه وهو يقول لهم: «رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون منه؟.. أترون بنى عدى بن كعب يُسلِمون لكم صاحبهم هكذا؟.. خَلُّوا عن الرجل..!» فانصرفوا وهم يتحرّقون من الغيظ.

على أن عمر لم يكتف بذلك الإعلان عن إسلامه، بل ذهب إلى خاله أبى جهل، وهو يعلم أنه أعدى أعداء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبره بإسلامه؛ فبُهت أبو جهل لهذا النبأ، وضرب الباب فى وجهه وهو يقول له: «قبّحك الله وقبّح ما جئت به!..»

ولم يرض عمر عن استخفاء المسلمين بصلاتهم فى الشعاب، وأبى إلا أن يذهبوا إلى الكعبة فيصلوا فيها جهارًا، تحت سمع

---

(١) عى: تعب وضعف.

القوم وبصرهم. وكان لهذا المظهر الجرىء شأن أطار أحلام القوم، وعصف بتفكيرهم عصفًا شديدًا.

قال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا وما نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر؛ فلما أسلم عمر قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه. ومازلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر بن الخطاب».

حيرة قريش

أخطأت قريش حقيقة الدعوة

لم تكن قريش تقدّر أن دعوة الإسلام سيكون لها هذا الشأن الخطير، وحسبتها أول الأمر نوعًا من الهوَس الذى يصاب به بعض أهل الشذوذ، فيستولى على عقولهم حينًا من الدهر ثم ينتهى بهم إلى غير شىء؛ أو نوعًا من الدَّجْل الذى يقصد صاحبه به إلى الدعاية والإعلان عن النفس، أو يرمى به إلى تحقيق مطلب يهفو إليه من مال أو جاه أو منصب أو نحو ذلك.

فاستقبلتها فى بدايتها كما تستقبل نوعًا من العبث الذى لا يؤبه له ولا يُلتفَت إليه؛ لأنها ألفت أن ترى شيئًا من هذا الشذوذ فى أمثال ورَقة بن نوفل، وعمرو بن زيد بن نُفَيْل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحوَيْرث، وغيرهم من شُذّاذ العرب.

فلما رأوا رسول الله ﷺ يلتف حول نفر من الناس، جعلوا

يستهزئون بهم ويضحكون منهم، ويتندّرون بما يرَوْن من أمورهم وما يسمعون من أخبارهم. وجعلوا كلما مر بهم رسول الله ﷺ يشيرون إليه متفكهين: «إن غلام بنى عبد المطلب ليُكلَّم من السماء!»..

فلما أخذ، صلى الله عليه وسلم، يعيب دينهم، ويسفه أحلامهم. ويذكر آلهتهم بالسوء، علموا أن هذا عبث خطير لا ينبغى السكوت عليه، ورأوا أن خير طريقة لتأديب هذا العابث أن يُقتَل، حتى يكون عبرة لغيره ممن تحدثهم نفوسهم بأن يتطاولوا على مقام الآلهة. فذهب رجالهم إلى عمه أبى طالب يفاوضونه فى أن يُسْلِمه إليهم ليقتلوه، وعرضوا عليه كل ما يمكن من عروض الترضية؛ فأبى عليهم ما يريدون.

فلما رأوا أن أبا طالب مصمم على حماية ابن أخيه، ثارت ثائرتهم، ورأوا أن يؤدبوا هؤلاء الذين يلتفون حول محمد حتى يصرفوهم عنه. فصبوا عليهم كل ما يستطيعون من ألوان العذاب، فلم يبلغوا منهم شيئًا، وجعل هؤلاء يفرون بدينهم إلى البلاد النائية، تاركين أموالهم وديارهم وأهليهم، مضحين بكل شىء فى سبيل الدين الذى يَدِينون به.

وتحيرت فى أمر محمد

حينذاك تبين لقريش أن الأمر جِدّ لا هزل، وحقيقة لا عبث؛ فأخذوا يعيدون النظر من جديد، ويفكرون فى شأن محمد وما يرمى إليه من هذه الثورة الجامحة، التى يريد بها أن يقلب أوضاعهم، ويقوّض نظام حياتهم من أساسه. لقد نشأ محمد فيهم وتربى بين ظَهْرانَيْهم، فلم يعرفوا فيه شذوذًا قط، ولم يروْا منه غير الجد والاستقامة، والحكمة والأناة، والحزم والسداد فى كل ما يقول وما يفعل.. فما الذى دفعه إلى الخروج على مألوف قريش، وما عرفت من تقاليدها عن الآباء والأجداد؟ وما الذى يبغيه من وراء ذلك؟..

أأصابه مس من الشيطان، فخُيِّل له ما يُخيَّل للمجانين الذين يَهرِفون بما لا يعرفون؟ أم اعتراه ما يعترى الكهّان الذين يتلقّوْن السمع عن أتباعهم من الجن ثم يُلْقُونه إلى الناس، فيستهوون به قلوبهم ويسحَرون عقولهم؟ أم هو شاعر تستهويه شياطين الشعر وتهيم به فى أودية الخيال، فهو يقول ما لا يفعل ويتصور مالا يكون؟ أم هو مريض أصابته العلة بالخرَف والذهول، فهو يَهذى من أجل ذلك هذَيانَ المريض؟ أم هو من طلاب الجاه والمال، فهو يمهد لمطلبه بهذه الثورة، ليلفت أنظار

الناس إليه فيحاولوا إرضاءه ليُسْكتوه؟ أم هـو يبغـى شـيئًا وراء ذلك ؟ . .

أخذت تساومه لتعرف مقصده

وانتهى الرأى بهم إلى أن يرسلوا إليـه واحـدًا منهـم، ليعـلم عِلمه ويعرف مقصده؛ فأرسلوا إليه سيدًا من سادتهم، هو عُتبة ابن ربيعة. . ويَرْوى ابن سحاق أن عتبـة بـن ربيعـة جلس إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال لـه : «يـا ابـن أخـى، إنك منا حيث قد علمت مـن السِّـطَة[1] فى العشـيرة والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت بـه جمـاعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مـن مضى من آبائهم. . . فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظرُ فيهـا، لعلك تقبل بعضها. . فقال رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم : «قل يا أبا الوليد أسمع». قال : يا ابـن أخـى، إن كنـت إنمـا تريد بما جئت به من هذا الأمر مـالا، جمعنـا لك مـن أمـوالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت تريد به شرفًا، سوَّدْناك علينـا حتى لا نقطع أمرًا دونك؛ وإن كنت تـريد بـه مُلـكًا ملَّـكناك

(١) السطة : المنزلة الكريمة.

علينا؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا[1] تراه لا تستطيع رَدَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يداوَى منه.. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع منى». قال: أفعل. قال:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * حٰمٓ * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم * كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عربيًّا لقومٍ يَعلمون * بشيرًا ونذيرًا، فأعْرَضَ أكثرُهم فهم لا يَسمَعون * وقالوا: قلوبُنا فى أكِنَّة مما تَدْعونا إليه، وفى آذاننا وَقْرٌ ومن بَيننا وبينك حجابٌ، فاعملْ إننا عاملون[2] * قل إنما أنا بَشَرٌ مِثلُكم يوحَى إلىَّ أنَّما إلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ فاستَقيموا إليه واستغفروه ووَيْلٌ للمشركين * الذين لا يُؤْتُون الزكاة وهم بالآخرةِ هم كافرون * إن الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات لهم أجرٌ غيرُ مَمنون[3] قل: أئِنَّكم لَتَكفُرون بالذى خَلقَ الأرضَ فى يومين وتجعلون له أندادًا[4]؟ ذلك ربُّ العالمين * وجَعل فيها رواسِيَ[5] من فوقِها وبارَكَ فيها

---

(١) الرئى: التابع من الجن فى اعتقادهم.

(٢) المراد أنهم لا يفهمون منه ولا يسمعون له ولا يستجيبون لدعوته.

(٣) غير ممنون: دائم غير منقطع.

(٤) أندادًا: أشباهًا ونظراء.

(٥) رواسى: جبالا.

وقَدَّر فيها أقواتَها فى أربعةِ أيامٍ سواءً للسائلين * ثم استوَى إلى السماء وهى دُخَانٌ فقال لها وللأرضِ ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا، قالتا : أتَيْنا طائعين * فقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ فى يومين وأوْحى فى كلِّ سماء أمرَها، وزَيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وحِفْظًا، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم * فإنْ أعرَضوا فقل أنذَرْتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثَمود إذ جاءَتهم الرسلُ من بينِ أيديهم ومن خَلْفِهم : ألاَّ تعبُدوا إلا الله، قالوا لو شاءَ ربُّنا لأنزل ملائكةً، فإنَّا بما أُرْسِلتم به كافرون﴾..[1]

ثم انتهى رسول الله إلى موضع السجدة منها فسجد، ثم قال : «قد سمعت يا أبا الوليد، فأنت وذاك[2]».

فقام عتبة إلى أصحابه؛ فقال بعضهم لبعض : نَحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذى ذهب به!.. فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يايا أبا الوليد؟.. قال : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط!.. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة!.. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليَكُونَنَّ لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم؛ فإن تُصبْه العرب فقد

---

(1) سورة فصلت الآيات ١ - ١٤.

(2) أنت وما تختار لنفسك.

كُفِيتُموه بغيركم، وإن يَظهرْ على العربِ فَمُلْكه مُلْككم وعِزُّه عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به!.. قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه؟.. قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم!..»

أدركت قريش أن محمدًا صادق فى دعوته

أيقنت قريش حينذاك أن محمدًا ليس دجَّالا ولا أفَّاكًا، ولا شاعرًا ولا ساحرًا؛ وأنه ليس من طلاب المال والجاه، ولا من بُغاة الملك والسلطان؛ وأن ما يدعيه من وحى السماء ليس كذبًا ولا افتراء، ولا جنونًا ولا كهانة. ورأوا أن أمره ينتشر ويشيع؛ وأن أتباعه يكثرون ويتزايدون، وأن فريقًا من السادة الأقوياء قد أخذوا يدخلون فى دينه ويؤازرونه على أمره؛ فجعلوا يفكرون فيما يستقبلون به هذا الأمر، الذى لم يكونوا قط ينتظرونه ولا يقدّرونه.

ماذا يفعلون ليدرءوا عن أنفسهم هذا الخطر الداهم، الذى يريد أن يعصِف بدينهم، وبثروتهم، وبمكانتهم بين الناس؟..

واجتمعوا يتشاورون.. فقال قائل منهم: «يا معشر قريش، إنه - والله - قد نزل بكم أمر ما أُتِيتُم له بحيلة بعد.. فقد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقَكم حديثًا، وأعظمكم أمانة؛ حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيه الشيب قلتم:

ساحر.. لا والله ما هو بساحر! لقد رأينا السَّحرة ونَفْثهم وعَقْدَهم وقلتم: كاهن.. لا والله ما هو بكاهن! قد رأينا الكهنة وتخاطبهم وسمعنا سَجْعهم. وقلتم: شاعر.. لا والله ما هو بشاعر! قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هَزَجَه ورَجزَه. وقلتم: مجنون.. لا والله ما هو بمجنون! لقد رأينا الجنون فيما هو بخَنْقِه ولا وَسْوسَتِه ولا تخليطه.. يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه - والله - قد نزل بكم أمر عظيم!»

ماذا يفعلون إذن ليصرفوا الناس عن هذا الصابئ الخطر، ويحولوا بينهم وبين أن يستمعوا إليه؟.. إنهم لحائرون فى أمرهم أشد الحيرة.

لقد حاولوا أن يتخلصوا منه فيقتلوه، فحالت بينه وبينهم بنو هاشم وحاولوا أن يصرفوا الناس عنه فصبوا على أتباعه ألوان العذاب، فلم يبلغوا منهم ما يريدون؛ وحاولوا أن يُغْروه بكل ما يستطيعون من وسائل الإغراء، فلم يجدوا إلى إغرائه سبيلا.. «عرضوا عليه المال فرد عليهم المال، وعرضوا عليه الشرف والسيادة فرد عليهم الشرف والسيادة، وعرضوا عليه الملك والسلطان فرد عليهم الملك والسلطان، وعرضوا عليه الطب إن كان مريضًا فرد عليهم الطب وقال: ما أنا

بمريض»[1] وها هم أولاء يرون أتباعه ينتشرون فى الأرض، ويرون زعماءهم يتابعونه ويتسللون إليه واحدًا إثر واحد، ويرون دينه يأخذ فى التمكن، وأمره يزداد فى الظهور.

وأنه يدعو إلى الحق

فهل هو رسول الله حقًا؟.. وهل هذا الذى ينزل عليه وحى السماء؟.. وهل هذا الذى جاء به هو دين الحق؟.. فإذا لم يكن هو دين الحق فأين دين الحق؟ أهو دين قريش؟.. أم هو دين يهود؟.. أم هو دين النصارى؟.. أم هو دين المجوس؟.. إن قريشًا لتؤمن فى قرارة نفسها بأن دينها ليس دين الحق، وإن كان هو مصدر سلطانها ونعمتها؛ وإنها لترى فى كل دين من هذه الأديان مَغْمَزًا يبعده عن الحق، وإنها لترى دين محمد يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإذا لم يكن هو دين الحق، فلماذا يتابعه هذا العدد الكثير من الناس؟ ولماذا يتابعه هذا النفر من عِلْيةِ القوم فى قريش، وفيهم من عُرف بالعقل الراجح والرأى السديد، وفيهم من عرف بالتعصب لدين قريش والحرص على تقاليدها، وفيهم من لا يُتَّهم بالتفريط فى دينه أو التهاون فى كرامته؟.. فإذا كان

على هامش السيرة جزء ٣.

حمزة قد أسلم حَمِيَّة لابن أخيه محمد أو تعصبًا لعشيرته بنى هاشم، فلماذا أسلم أبو بكر وهو من بنى تَيْم؟.. ولماذا أسلم عثمان وهو من بنى أمية؟.. ولماذا أسلم عمر وهو من بنى مخزوم؟.. وإن أمر عمر بن الخطاب لأشد أمورهم عجبًا.. فلقد كان عمر أشدَّ قريش عداوة لمحمد ودينه، وأعنفَها بطشًا وغِلظة على المسلمين، فما الذى بدَّله كذلك حتى غدا أشد قريش حماسة لهذا الدين، وأكثرها جهرًا به وحرصًا على ظهوره؟.. لا شك أن هؤلاء السادة لم يؤمنوا إلا بعد ما تبين لهم الحق فى دين محمد؛ فليس من المعقول أن يؤمنوا عن جهل وعماية، كما يؤمن غيرهم من الأوغاد والسُّوقة.

زعماء قريش يسترقون السمع

وهكذا أخذت قريش تدرس دين محمد خِفْية، وتتعرف مبادئه وأحكامه، وتتسمع إليه من وراء حجاب وهو يتلو القرآن فى صلاته؛ فيَرُوعها ما ينطوى عليه هذا القرآن من عجيب النظم، وسعة الإحاطة، ودقة المعنى، وحلاوة الأسلوب، ويَرُوقها ما ينطوى عليه هذا الدين من مبادئ العدل والإحسان، والخير والرحمة. ولكن، كيف يؤمنون بهذا الدين الذى يقضى على سيادتهم وسلطانهم، ويجعلهم تَبَعًا لمحمد بن عبد الله، وليس محمد أكثر القوم مالا، ولا أعلاهم بيتًا، ولا أشرفهم مكانًا؟..

أم كيف يؤمنون ويدّعون هذا الشرف لبنى عبد مناف، يتطاولون به وحدهم على الناس قاطبة؟.. لا!.. ﴿لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه﴾[1].

روى ابن إسحاق: «أن أبا سفيان بن حرب، وأباجهل ابن هشام، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفى - حليف بنى زُهرة - خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وهو يصلى من الليل فى بيته؛ فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه؛ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوَموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا. ثم انصرفوا.. حتى إذا كانت الليلة التالية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له؛ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا.. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له؛ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

---

(١) سورة سبأ الآية ٣١.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج، حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حَنْظَلَةَ عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا - والذى حلفت به - كذلك. (قال): ثم خرج حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟... فقال: ماذا سمعت!!.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوْا فأعطينا؛ حتى إذا تحاذَينا على الركب وكنا كفرسَىْ رِهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء!!.. فمتى ندرك مثلَ هذه؟... والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه!..».

كان من موانع الإيمان بمحمد الحسد

وغَدَت قريش بين اثنتين: إما أن تعترف بأن محمدًا رسول الله، وإما أن تمحوَ ذكره وفكرته من الوجود. وكان من المستحيل أن تعترف قريش بالأولى وأن تقدر على الثانية؛ فقد كان الحسد لرسول الله ﷺ وقومه يمنعها أن تعترف له بالنبوّة؛ وكان رجال من قريش يطمعون فى هذه المنزلة، ويروْن أنفسهم

أحق بها من محمد بن عبد الله؛ وكان رجال يستكثرونها عليه ويقولون: ﴿لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القَرْيَتَيْن[1] عظيم﴾[2]!.. وكان رجال يَنْفِسونها على عشيرته بني عبد مناف؛ وكان رجال يعتقدون أن الرسول لا ينبغى أن يكون إلا مَلَكًا.

وحداثة السن

والواقع أن تقاليد قريش فى الزعامة وعقيدتها فى النبوة، كان لهما أكبر الأثر فى عدم اندفاعها إلى الإيمان برسالة محمد ابن عبد الله؛ «فقد كان للزعامة دور خطير فى المجتمع العربى، حيث كان الزعماء يتمتعون بنفوذ واسع وسلطان مطلق، يأمرون فيطاعون، ويَدْعون فيجابون، وينهَوْن فلا يخالَفون، وكانت لهم الكلمة الفاصلة فى المشكلات والقضايا. فلما أخذ النبى يدعو بدعوته ويبلغ عن ربه - ولم يكن بعدُ قد تجاوز سن الشباب بكثير، ولم يكن كذلك بارزًا فى مجال الزعامة - عَظُم عليهم أن يكون مثله داعية يستجاب له، ومرشدًا يهتدى بهديه الناس، ورسولا ينضوى الزعماء تحت لوائه؛ وقالوا: لو كان ما يدعو

---

(١) قال المفسرون: هما مكة والطائف.

(٢) سورة الزخرف الآية ٣١.

إليه محمد حقًّا لكانوا هم الأحق بأن يُنتدَبوا لهذه الدعوة، وأن يكلَّفوا هذه المهمة، لأنهم هم الزعماء والناس لهم تبع »[1]

وقلة المال

وكان المال وحده هو المقياس الذى يقيسون به أقدار الناس؛ فبمقدار ما يكون لدى المرء من المال يكون له حظ من الشرف والسيادة. وقد سيطرت عليهم هذه الفكرة حتى أصبحت عندهم فى منزلة العقيدة؛ ومن أجل ذلك قال الوليد بن المغيرة: «أينزَّل على محمد، وأترَك أنا - كبيرَ قريش وسيدها - ويترك أبو مسعود عمرو بن عُمَيْر سيد ثقيف، ونحن عظيمَا القريتين ؟».. وقد حكى الله سبحانه وتعالى قولهم هذا، ثم خطَّأ نظرتهم إلى المال واعتباره مقياس الكرامة عند الله؛ فما المال إلا وسيلة من وسائل العيش فى الحياة الدنيا، يناله الفاضل والمفضول، والشريف والوضيع، والمؤمن والكافر؛ وليس تفاوت الناس فى الغنى والفقر إلا ضرورة اجتماعية يتم بها نظام المجتمع البشرى، ليخدُم الناس بعضهم بعضًا، ويعاون بعضهم بعضًا. أما منازل الكرامة التى يمن الله بها على من يشاء من

(١) «عصر النبى وبيئته قبل البعثة»، للأستاذ محمد عزت دروزة.

عباده، فشىء فوق مستوى المال، وفوق مستوى الطبقات التى تعارف الناس عليها فى مجتمعاتهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نحن قَسَمْنَا بَيْنَهم مَعيشَتَهم فى الحياة الدنيا ورَفَعْنا بعضَهم فَوْقَ بَعْض درجاتٍ ليتَّخذ بعضُهم بَعْضًا سُخْرِيًّا[1]، ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يَجْمَعُون﴾.

ثم يمضى السياق فى تهوين شأن المال، وفى تخطىء نظرة الناس إليه؛ فيبين لهم أن هذا المال الذى يتفاضلون به ويعتبرونه الشىء الأهمّ فى حياتهم، والمقياس الذى يتمايزون به فى أقدارهم ومنازلهم.. هو أهون شىء على الله. ولولا مخافة أن يُفْتَن الناس بالمال ومظاهره، وأن تسود بينهم فى شأنه هذه النظرة الخاطئة.. لجعل الله المال حظًا خالصًا للكافرين به، ولمتعهم بكل ما يشتهون من زينة الحياة الدنيا.. فما المال والبنون، وما الملك والسلطان، وما الزخرف والرياش، وما كل ما فى هذه الحياة من مظاهر الثروة والجاه.. إلا متاع زائل وعرَض فان : ﴿ولولا أن يكونَ الناس أمَّةً واحدَة لجعَلْنا لمَنْ يَكفُر بالرّحمن لبيُوتهم سُقُفًا من فِضّة ومعارجَ عليها يَظْهَرون[2] ﴾

(١) سخريًا : ليسخّر كل فريق فى خدمة الآخر.

(٢) يظهرون : مصاعد يصعدون عليها.

ولبيوتهم أبوابًا وسُرُرًا عليها يَتَّكئون * وزُخْرُفا وإنْ كُلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرة عند ربك للمُتَّقِين﴾[1].

وأنه بشر مثلهم

كذلك كانت عقيدتهم أن الرسول إما أن يكون مَلَكًا من الملائكة، وإما أن يكون بشرًا يستطيع أن يفعل ما لا يفعل البشر، وإما أن يكون ذا بَسْطَة فى الرزق وسعة من المال تغنيه عن الكد والسعى فى سبيل العيش. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، واحدًا من هؤلاء؛ بل كانوا يرونه بشرًا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ويكدح ويكد فى سبيل الرزق، ويجرى عليه ما يجرى على البشر من المرض والصحة، والضعف والقوة، والفقر والغنى، والجهل بالغيب، والعجز عن جلب المنفعة لنفسه ودفع المضرَّة عنها.. إلى غير ذلك مما يشارك فيه سائر الناس. ثم هو فوق ذلك يصارحهم بهذه الحقائق، ويقول لهم بلسان الوحى فى غير تحرج: ﴿لا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاءَ الله؛ ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لا ستَكْثَرت من الخيرِ وما مَسَّنِيَ السوء؛ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون﴾[2].. و﴿لا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلمُ

(١) هذه الآيات وما قبلها من سورة الزخرف الآيات ٣٣ - ٣٤.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨.

الغيبَ، ولا أقولُ لكم إنى ملَك إنْ أتَّبع إلا ما يُوحَى إلىَّ﴾(1).

قريش تشكك فى نبوة محمد

من أجل ذلك كبُر عليهم أن يطيعوا بشرًا مثلهم، يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، وحاولوا جُهدهم أن يُشكِّكُوا الناس فى نُبوَّته، واستغلوا هذه العقيدة أعظم استغلال، ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكلُ الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أُنْزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرًا * أو يُلْقَى إليه كنْزٌ أو تكونُ له جَنَّةٌ يأكلُ منها وقال الظالمون : إنْ تَتَّبِعُون إلا رجُلًا مَسْحُورًا﴾(2)؛ وسلطوا عليه سفهاءهم وشياطينهم من الشعراء والبلغاء، يهجونه ويحقرون من شأنه، ويشوّشون عليه مجالسه كلما جلس إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، أو يتلو عليهم القرآن. وقد سجَّل الله عليهم ذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ فقال تعالى فى سورة الفرقان : ﴿وإذا رَأَوْك إنْ يَتَّخِذونك إلا هُزُواً أهذا الذى بَعثَ الله رسولا * إنْ كاد لَيُضِلنا عن آلهتِنَا لولا أنْ صَبَرْنا عليها﴾ (3) وقال تعالى فى سورة القلم : ﴿وإنْ يكادُ الذين

(1) سورة الأنعام الآية ٥٠.
(2) سورة الفرقان آيتا ٧، ٨.
(3) سورة الفرقان آيتا ٤١، ٤٢.

كفروا لَيُزْلِقُونك بأبصارِهم لمّا سمعوا الذِّكْرَ ويقولون إنه لمَجنون﴾[1] وقال تعالى فى سورة فُصّلت : ﴿وقال الذين كفروا لا تَسْمَعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلكم تَغْلِبون﴾[2].

وفيما أنزل عليه من القرآن

كذلك جعلوا يُشكّكون فيما أنزل عليه من القرآن، ويقولون : إنه ليس من عند الله، إنما يستَمْليه محمد ممن يجالسهم من أهل الكتاب؛ واتخذوا من جلوس النبى إلى بعض نصارى الروم شاهدًا على صحة ما يدّعون. وقد حكى الله عنهم ذلك الإفك ورد عليهم بما أفحمهم وأخزاهم، فقال تعالى فى سورة الفرقان : ﴿وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفْكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخَرون فقد جاءُوا ظُلْمًا وزُورا * وقالوا : أساطيرُ الأولين اكتتَبَها فهى تُمْلَى عليه بُكْرةً وأصيلا * قل أنزَله الذى يَعلَمُ السِّرَّ فى السمواتِ والأرضِ، إنه كان غفورًا رحيمًا﴾[3] وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿ولقد نعلَمُ أنهم يقولون : إنَّما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسانُ الذى يُلْحِدُون إليه أعْجَمِىٌّ وهذا لسانٌ عربِىٌّ مُبِين﴾[4].

---

(١) الآية: ٥١

(٢) الآية: ٢٦

(٣) الآيات ٤ - ٦

(٤) الآية ١٠٣

وفى الدين الذى جاء به

ولم يكتفوا بهذا... بل جعلوا يتهكّمون بالدين الذى جاء به، ويَعْرِضون مبادئه عَرْض المستهزئ الساخر، يريدون بذلك أن يشككوا الناس فيه، ويصرفوهم عنه: ﴿وقال الذين كفروا هل نَدُلُّكم على رجل يُنَبِّئُكم إذا مُزِّقْتم كل مُمَزَّقٍ إنكم لَفى خَلْقٍ جديد * أفْتَرى على الله كذبًا أم به جِنَّةٌ﴾[1]... ﴿أئذا مِتْنا وكنّا ترابًا وعِظامًا أئنّا لَمَبْعوثون * أوَ آباؤُنا الأولون﴾[2]... ﴿إن هى إلا مَوْتَتُنا الأولَى وما نحن بِمُنْشَرِين * فَأْتُوا بآبائنا إنْ كنتم صادقين﴾[3].. ﴿وعَجِبُوا أنْ جاءَهم مُنْذِرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذّاب * أجَعل الآلهة إلَهًا واحداً إنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجاب * وانطلَقَ المَلأُ منهم أن امْشُوا واصبِروا على آلِهتِكم إنَّ هذا لشىء يُرَاد * ما سَمِعنا بهذا فى المِلَّةِ الآخرةِ إنْ هذا إلا اخْتِلاق * أَأُنْزِل عليه الذِّكْر مِن بَيْنِنا﴾[4]...

وهكذا جعلوا وكُدَهم أن يشككوا فى نبوة محمد ﷺ، وفى الدين الذى جاء به، وفى القرآن الذى أنزل عليه؛ يريدون أن

(١) سورة سبأ آيتا ٧، ٨.

(٢) سورة الصافات آيتا ١٦، ١٧، وسورة الواقعة آيتا ٤٧، ٤٨

(٣) سورة الدخان آيتا ٣٥، ٣٦.

(٤) سورة ص الآيات ٤ - ٨.

يقضوا على فكرة الرسالة، وأن يمحوها من أذهان الناس. ولكن هذا السلاح لم يُجدِ عنهم شيئًا، وظل أتباع الرسول يتكاثرون، وظل أمر الإسلام ينتشر ويظهر؛ وكان إسلام حمزة وعمر من الأسباب التى شجعت الخاطئين والمترددين، فجعل الناس يدخلون فى دين الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، ومن المستضعفين والأقوياء؛ فازدادت حيرة القوم، وبدءوا يفكرون فى سلاح آخر، يقضون به على هذه الدعوة الخطيرة.

المقاطعة

عجزت قريش عن مقاومة الدعوة

رأت قريش أن كل ما استعملته من وسائلها مع النبي وصحبه، من المسالمة والإغراء، ومن السخرية والاستهزاء، ومن الإرهاب والتعذيب، ومن الدعاية والتهويش.. لم يُجدِها نفعًا، ولم يصرف الناس عن دعوة الإسلام، ولم يَحُلْ بينها وبين الظهور والانتشار. ورأت أن دخول العناصر القوية فيها قد زادها ظهورًا وانتشارًا، فقد عزّ المسلمون منذ أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، واستطاعوا أن يستعلنوا بصلاتهم بعد أن كانوا يُسِرُّون بها، وأن يصلّوا عِيانًا فى حرم الكعبة بعد أن كانوا يستخفون فى شعاب الجبال؛ واستطاعوا كذلك أن يجهَروا بالقرآن على مَسمَع من قريش بعد أن كانوا يخافِتون به.

روَى دِحْلان فى «السيرة النبوية والآثار المحمدية»: «أن أصحاب الرسول ﷺ اجتمعوا يومًا فقالوا: والله ما سمعتْ قريش القرآن جهرًا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فمن

منكم يُسمعهم القرآن جهرًا؟ فقال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: أنا. فقالوا: نخشى عليك منهم؛ إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم. فقال: دعونى، فإن الله سيمنعنى منهم. ثم إنه قام عند المقَام وقت طلوع الشمس، وقريش فى أنديتهم، فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم - رافعًا صوته - الرحمن * عَلَّمَ القرآن *...﴾ واستمر فيها فقالوا: ما بال ابن أم عبد؟ فقال بعضهم: يتلو ما جاء به محمد! ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر فى قراءتها، حتى قرأ غالب السورة. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدْمَتْ قريش وجهه. فقال له أصحابه: هذا الذى خشينا عليك منه. فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهْوَنَ علىَّ مثلَ اليوم! ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غدًا. قالوا: لا، قد أسمعتهم ما يكرهون».

فلجأت إلى المقاطعة

«وجدّ النكير بين المسلمين والمشركين، واشتد نَعْىُ محمد على قومه وعَيْبُه آلهتهم، وأنزل الله من القرآن آيات وسُوَرًا كانت تَدْمَغ قريشًا وتؤذى كبرياءها أشد الإيذاء»[1] وكان لابُدّ لقريش أن تقبل هذه الإهانات أو تردها إن استطاعت، ولم

(١) على هامش السيرة جزء ٣ص ٩٦

يكن فى استطاعتها أن تردها بالقول، ولا أن تدفع الحجة بالحجة أو تدمغ البرهان بالبرهان؛ فقد كانت حجج القرآن من القوة بحيث لا تقوم لها قوةٌ فى الأرض.

المقاطعة والحصار

وحارت قريش فى أمرها، وظلت تغلى وتفور أمام هذه الحجج الدامغة، والبراهين التى لا قِبَل لها بها، والتى لا تستطيع لها ردًّا ولا دفعًا. وكل ما كانت تستطيع أن تفعل أن تصب غضبها ونقمتها على ضعفاء المسلمين، حتى استنفدت كل ما فى طَوْقِها من وسائل الإرهاب والتخويف، ولم تبلغ شيئًا مما كانت تريد. فلجأت إلى سلاح آخر، هو سلاح «المقاطعة»، فلعله أن يكون أمضى.

قال ابن إسحاق: «فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة ابن عبد المطلب مع رسول الله وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل... اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب، على ألا يَنْكِحوا إليهم ولا يُنْكِحوهم[1]، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم. فلما

---

(١) لا ينكحوهم: لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم.

اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب، فدخلوا معه فى شِعْبِه[1] واجتمعوا إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب - عبد العُزَّى بن عبد المطلب - إلى قريش فظاهرهم[2] ».

آل أبى طالب فى الشعب

وحُصر بنو هاشم وبنو المطلب بنسائهم وأطفالهم فى الشِّعب، لا يتصل بهم أحد من القوم ولا يتصلون بأحد، ولا يصل إليهم طعام ولا شراب ولا شىء. وأحكمت قريش عليهم الحصار، فنصبت عليهم العيون والأرصاد، وبالغوا فى قسوتهم عليهم حتى قطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا طعامًا يقدَم مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه بأضعاف ثمنه، كى لا يصل إلى أيديهم منه شىء. وكان أبو لهب وأبو جهل هما زعيمَىْ هذه الحركة؛ فأما أبو لهب فكان يحرض التجار على أن يُغَالُوا عليهم فى الثمن حتى يعجزوهم عن الشراء، وكان يقول

(١) الشعب: شق فى الجبل يشبه الخبأ.

(١) ظاهرهم: ناصرهم على بنى هاشم.

كلما قدمت العير مكة : «يا معشر قريش التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئًا، فقد علمتم حالى ووفاء ذمتى!» فيزيدون عليهم فى السِّلْعة أضعافًا مضاعفة، حتى يرجع الرجل منهم إلى أطفاله وهم يَتَضَاغَوْن[1] من الجوع، وليس فى يده شىء يُعَلِّلُهم به[2]، ثم يغدو التجار على أبى لهب فُيْرِبحهم ويُضْعف لهم... وأما أبو جهل فكان دائم اليقظة والنشاط لإحكام الحصار، حتى يؤدى إلى غايته التى قدرتها قريش، وهى أن يتخلى بنو هاشم وبنو المطلب عن رسول الله ﷺ فيسلموه إليهم فيقتلوه، أو يتخلى رسول الله عن دعوته فَيُقضَى عليها.

أذاعت المقاطعة أمر الدعوة

واستمرت هذه المقاطعة نحواً من ثلاث سنين، وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون فى الشِّعب، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد، حتى أكلوا الخَبَط[3] وورق الشجر، وسُمع صراخ أطفالهم من وراء الشعب... وذاع نبأ هذه القطيعة فى الناس،

---

(١) يتضاغون : يصرخون.

(٢) يعللهم : يصبرهم به.

(٣) الخبط: ورق ينفض بالخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويمزج بالماء فتعافه الإبل، ولعله شىء يشبه «الكسب» الذى تعلف به البهائم الآن.

وتسامع بها العرب الذين كانوا يقدمون مكة فى موسم الحج، فأخذوا يتساءلون عن خبر هذه الدعوة التى أخرجت قريشًا عن وقارها، وألجأتها إلى أن تفرض هذه العقوبة الشنيعة على بنى أبيها، وأن تقسوَ عليهم هذه القسوة التى لم يُسمَع بمثلها فى العرب قط وأدرك العرب أنه لابد أن تكون هذه الدعوة شيئًا خطيرًا، فجعلوا يتسقّطون أنباءها، ويتعرفون حقيقتها وأغراضها، فكان ذلك سببًا فى ذيوع أمرها بين العرب. وانعكس التقدير الذى قدرته قريش، فانتشر ما أرادت أن تخفيه من أمر هذه الدعوة، وخرجت أنباؤها عن نطاق مكة، وتسامعت بها قبائل العرب البادية والحاضرة.

ورأت قريش أنها لم تصل إلى غايتها من هذه المقاطعة وأن بنى هاشم وبنى المطلب قد «صبروا للمحنة كرامًا، واحتملوها أعزة شُمًا»[1]. وكأنما أحست قريش أن العرب قد استنكروا منها هذه الشناعة، واستفظعوا هذا النُكْر، فخشيت أن ينال ذلك من كرامتها وسمعتها بين العرب.

اختلاف قريش فى أمر المقاطعة

وشعر رجال من قريش بسوء ما صنعت قريش، فجعلوا

(١) على هامش السيرة جـ٣ ص٩٦.

يتداركون الأمر سرًّا، ويُمدون هؤلاء المحصورين فى الشِّعب بما يستطيعون من الطعام. وكان من هؤلاء هشام بن عمرو العامرى؛ فكان يأتى بالبعير قد أوْقَرَهُ[1] طعامًا، ثم يخرج به ليلا حتى يستقبل به الشعب، ثم يخلع خِطامه[2] ويدفعه إلى الشعب، فيدخله بما عليه من الطعام، حتى علمت به قريش، فأغلظوا له القول وهموا بقتله؛ فقال لهم أبو سفيان بن حرب: «دعُوه.. ! رجل وصل أهله ورَحِمَهُ.. أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا... !».

وممن كان يصلهم بالطعام أيضًا حكيم بن حزام، فلقيه أبو جهل مرة ومع حكيم غلام يحمل قمحًا، يريد به عمته خديجة زوج النبى وهى معه فى الشعب. فقال له أبو جهل: «تذهب بالطعام لبنى هاشم؟.. والله لا تذهب أنت ولا طعامك حتى أفضحك بمكة»! فحضرهما أبو البَخْتَرِىّ بن هشام فقال لأبى جهل: «مالك وماله؟ طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها به؟ خل سبيل الرجل».. فأبى أبو جهل، حتى تشاتما ونال أحدهما من الآخر؛ فأخذ أبو البخترى لَحْىَ[3] بعير فضرب به أبا جهل فشجَّه، ووَطِئَهُ[4] وطئًا شديدًا؛ فانكفّ عن ذلك.

---

(١) أوقره: حمّله.

(٢) الخطام: الحبل الذى يسحب به.

(٣) لحى: عظمًا من عظام الفك.

(٤) وطئه: داسه بقدميه.

صحيفة المقاطعة تأكلها الأرضة

قال ابن سعد فى الطبقات : « ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأَرَضَة[1] قد أكلت ما فيها من جوْر وظلم، وبقى ما كان فيها من ذكر الله عز وجل.. فذكر ذلك رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب فذكر ذلك أبو طالب لإخوته. وخرجوا إلى المسجد، فقال أبو طالب لكفار قريش : إن ابن أخى قد أخبرنى - ولم يَكْذِبْنِى قط - أن الله قد سلط على صحيفتكم الأَرَضَة، فلحست كل ما كان فيها من جور وظلم أو قطيعة رَحِمٍ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله؛ فإن كان ابن أخى صادقًا نَزَعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذبًا دفعته إليكم فقتلتموه أو استَحْيَيْتموه. قالوا : قد أنصفتنا. فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها، فإذا هى كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فسُقط فى أيديهم ونُكسوا على رءوسهم[2]. فقال أبو طالب : عَلاَمَ نُحبس ونحصر وقد بان الأمر؟.. ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال : « اللهم انصرنا ممن ظلمنا، وقطَّع أرحامنا، واستَحَلَّ ما يحرمُ عليه منا!.. » ثم انصرفوا إلى الشعب ».

---

(١) الأرضة : العثة.

(٢) نكسوا : ندموا على ما سلموا به، ورجعوا فيما وافقوا عليه.

وحزّ هذا المنظر الأليم فى نفوس ذوى المروءة من قريش، وعز عليهم أن يعود إخوتهم إلى الشعب مخذولين، وأن يظلوا فى هذا الحصار حتى يُهلكوا جوعًا. وتمثلت لهم صورة هؤلاء الإخوة وهم يقاسون عذاب الحرمان وعذاب القطيعة، وأطفالهم يتصايحون من حولهم يَنْشدُون الغوث والنجدة، فلا يستطيعون لهم غوثًا، ولا يجدون منهم منجدًا ولا مغيثًا. فجعلوا يتلاومون على ما صنعوا بهم، ويتآمرون على نقض هذه الصحيفة الظالمة، وإنهاء هذه القطيعة التى لا تتفق مع المروءة، ولا مع الشهامة ولا مع الشرف.

رجال يسعون فى نقض الصحيفة

قال صاحب السيرة النبوية والآثار المحمدية : «عند ذلك مشت طائفة من قريش فى نقض تلك الصحيفة، وهم هشام ابن عمرو بن الحارث العامرى، وزهير بن أبى أمية المخزومى، والمُطْعِم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البَخْترىّ ابن هشام، وزَمْعة بن الأسود؛ فمشى هشام بن عمرو إلى زهير ابن أمية فقال : أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتَنكِح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ فقال : ويحك يا هشام! ماذا أصنع؟ فإنما أنا رجل واحد؛ والله لو كان معى رجل آخر

لقمت فى نقضها ! فقال : فأنا معك؛ فقال : ابْغِنا ثالثًا[1]. ومشيا جميعًا إلى المطعم بن عدى فقالا له : أرضيت أن يَهلِك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد؟ فقال : إنما أنا واحد فقالا : إنا معك؛ فقال : ابغنا رابعًا. فذهبوا إلى أبى البخترى فقال : ابغنا خامسًا. فذهبوا إلى زمعة بن الأسود فوافقهم على ذلك. فقعدوا ليلا بأعلى مكة، وتعاقدوا وتعاهدوا على نقض تلك الصحيفة، وإخراج بنى هاشم من الشعب، وقال لهم زهير : أنا أبدؤكم وأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدَوْا إلى أنديتهم، وغدا زهير - وعليه حُلة[2] - فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم والمطلب هَلْكَى، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم.. ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة !! فقال له أبو جهل : كذبت !! والله لا تُشَقّ.. ! فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ! ما رضينا كتابتها حين كتبت ! فقال أبو البخترى : صدق زمعة. فقال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.. ! فقال

---

(١) ابغنا : اطلب لنا ثالثًا.

(٢) حلة : ثياب مناسبة للموقف. ولعل هذا كان من عاداتهم عند التصدى للأمور العظيمة.

هشام بن عمرو مثل ذلك؛ فقال أبو جهل : هذا أمر قد قُضى بليل.

واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال، فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فشقها. وفى رواية : قام هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة فلبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بنى هاشم والمطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا ».

قال ابن سعد فى الطبقات : فلما رأت قريش ذلك سُقط فى أيديهم، وعرفوا أنهم لن يسلموهم.. وكان خروجهم من الشعب فى السنة العاشرة.



فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٣٩٣٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٠٥٩-٠ ISBN

١ / ٨٧ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

